علم النفس الغرضي

تأليف

الدكتور عبد العلي الجسماني

الدار العربية للعلوم
Arab Scientific Publishers

علم النفس الغرضي

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

1414هـ ـ 1994م

الدار العربية للعلوم

Arab Scientific Publishers

بناية الريم ـ شارع ساقية الجنزير ـ عين التينة

هاتف 861311 - 860138 - 811385

ص. ب 13/5574 بيروت ـ لبنان

هاتف وفاكس دولي 4782486 (212) 001

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

المحاولات الاولى لتصنيف الغريزة (تكملة)

الباب الأول

الجو الفكري في القرن السابع عشر وما بعده

الفصل الأول

بدايات علم النفس التجريبي

١ - المذهب التجريبي الكلاسيكي [المذهب الارتباطي]

يذكر مكدوجل بأن [نظرية النشاط الهورمي الغرضي ليست بالنظرية الجديدة ، بل هي نظرية تليدة ، فهي ليست مستحدثة ، بل هي قديمة بعيدة.(١)] واذ نبدأ بهذا القول متخذينه نقطة انطلاق لنا ، فأنما ترد على الذهن اسئلة شتي ، نثير منها الان : كيف يتسني انتهاج خط لاحب للبحث ، ما الأساس الذى بنيت عليه المعرفة وشيدت فأنتظمت في نظام شامل، ماطبيعة الخلفية التي تمخضت عن علم النفس الغرضي ، ماأثر علم النفس الهورمي على الدراسات النفسية ، الحديثة ، هذه وسواها من الأسئلة قمينة بالتحري والاستقصاء . وأن الأجابات على أسئلة كهذه قد تكون متشعبة المنادح ، لكنها في الوقت ذاته لا تقل عن ذلك نفعا وقيمة . وعلى هذا ، فأنه على هذه الاسئلة وعلى ما سيجد غيرها في الفصول التالية سنصب الأهتمام.

لم يكن الأمر مجرد ضربة لازب اذ تغدو بريطانيا بالتدريج مستقرا للفكر النفسي السليم. ولنا أن نتمثل بقول(ج.س.مل) حيث يذكر بأن [صولجان علم النفس قد عاد الى انكلترا بكل تأكيد.(٢)] ومن قبيل التأكيد للواقع ، فأن ملاحظة مثل هذه قد أضحت ملموسة منذ ان تحدرت اليها المعرفة على ايدي رواد نخص منهم هوبز ولوك يوم كانت انكلترا القطر الذى [اسدى الى علم النفس خدمة جلى.](٣) وقد تعاصر هذا مع مبدأين أثنين من المبادئ النفسية نبتت أرومتهما في انكلترا كذلك . احدهما هو المدرسية الفكرية القبلية(٤) Apriori التي يمكن

نعتهاايضا بأسم المدرسة الاستدلالية . اتخذت هذه الدراسة من الأفكار المجردة معالم اهدت بها الى النتائج المترتبة . فكان حجاجها يبدأ بالعلل وينتهى الى النتائج . ومن بين روادها البارزين نذكر السر وليم هاملتون[١٧٨٨ - ١٨٥٦] ووليم هويل [١٧٩٤ - ١٨٦٦] وجيمس ، ف. فيرير [١٨٠٨ - ١٨٦٦٤] وهنرى ل. مانسل [١٨٢٠ - ١٨٧١] والمدرسة الفكرية الاخرى هي البعدية Aposteriori (٥)، والتي يمكن وصفها ايضا بأنها المدرسة الأستقرائية ، وعلى نقيض المدرسة الاولى ، فالمدرسة هذه قد تميزت في مناقلاتها بالأنتقال من النتائج الى العلل والمسببات . فهي قد أبتدأت من ايام هويز ان لم تكن أقدم ، وبعد من أتباعها اللامعين كل من جيمس مل [١٧٧٣ - ١٨٣٦] وجون ستوارت مل [١٨٠٦ - ١٨٧٣] وصموئل بيلي [١٧٩١ - ١٨٦٣] وهربرت سبنسر [١٨٢٠ - ١٩٠٣] والكسندر بين [١٨١٨ - ١٩٠٣] وجورج هنري لويس [١٨١٧ - ١٨٧٨] وسواهم آخرون.

وقبل الأنتهاء الى ما هناك من استنتاجات يمكن استخلاصها بالنسبة الى الافكار المتألفة او المتخالفة التي نافحت عنها كل من المدرستين الانفتين ، لعله من الملائم التطرق بأقتضاب الى شي من اراء اتباعهما . وأن أية دراسة مستفيضة لعلم النفس المعاصر في انكلترا يتعرض بالضرورة لما ذهبت اليه هاتان المدرستان.

وليس علم النفس بمنجاة مما تتعرض له العلوم من حين لآخر من انماط في التفسير وفي التحوير . والى هذا المنحى اشار ف.ق. سمث في ملاحظته اذ يقول: [تعرضت العلوم المتعددة على اختلافها

من وقت لأخر الى ضروب التغيرات والى انماط في التفسيرات، بيد انها مرتضاة.(٦)] وان قد غدا على هذه الشاكلة نظرا لما أخضع له علم النفس من تصحيح وتنقيح مستمرين منذ انعتاقه من مرابض الفلسفة. فتوماس هوبز [١٥٨٨ - ١٦٧٩] ، مثلا ، كان قد افترع له عهدا جديدا في تطوير مبدأ له في علم النفس . اذ نودى به بأنه [ابو علم النفس التجربى.(٧)] ولعل الحقائق التي سوغت هذه الدعوى هى معالجة الربط بين الافكار على اسس نفسية . لا مشاحة فى ان ارومة علم النفس الارتباطي انما يمكن تقصيها فى مطارحات ارسطو : (٨) على ان ما اشترعه هوبز فى علم النفس لحري بأن يعد المحاولة الاولى في تأثير الوشيجة بين مختلف ضروب الحالات العقلية وارسائها [١] على ما يسمى اليوم بالأساس النفسي - الجسمي : [٢] ثم تأثر المحتوى العقلي بتمامه في مفاوز الخبرة الحسية ، وبهذا تم ابعاد الاراء القديمة القائلة بالافكار الفطرية.

ان ما تركه ارسطو من آثار فكرية مكتوبة مدونة كانت تجمع بين التصفيف والتصنيف . فهو قد قصر ما توصل اليه من قوانين ارتباطية على صنف واحد محدد من اصناف الخبرات - ونعنى بها الذاكرة . فهو قد شأى كثيرا ممن سبقه من الباحثين . وأخرين مثلهم من اللاحقين . أو كما ذكر وارين ، [فلا الاغريق اللاحقون ولا المدرسيون التالون ، ولا أوغسطين ولا ديكارت ، هؤلاء جميعا رغم ما تقدم به كل منهم من تحليلات مستقلة ، لم يتجاوزوا من حيث العمق ما كان قد بلغه.(٩)] ان القوانين الارتباطية ، من وجهة نظر ارسطو ، فقط في حالة التطبيق والممارسة تمتد اثارها ويتسع مفعولها لتصل العلاقات بين الذاكرة والاحساس وسائر

العمليات العقلية ارجرى . لهذا نجد هوبز قد أعرض كشحا عن الفلسفة الاغريقية اذ وصفها بـ [الخيالية(١٠)] واعتقد بأنه [ليس بمقدور الانسان أن يكون فكرة عن أي شيء خارج اطار الحواس(١١)] فشأنه شأن بيكون ، فقد اكد على اهمية التطبيق العملي في العلم والفلسفة(١٢). ويذهب ج.هـ .لويس الى ان هوبز ولوك كانا من طلائع تلك المدرسة النفسية التي ازدهرت في القرن الثامن عشر ، تلك المدرسة التي جعلت كل نشاط يقوم به العقل ينطلق من [الاحاسيس المنقولة] التي آلت الى المقولة الذاهبة الى ان الاحساس منبعه (١٣)التفكير. وكان المفكرون الذين اعقبوا هوبز قد اقتفوا أثره في تطوير ما اختطوه من نظم نفسية . فمكانته التاريخية ، اذن لا تكمن فيما اسهم فيه بالنسبة الى الأرتباطية ، بقدر ما تمكن فى ترسيخه اسس نمط من انماط علم النفس منه تطورت الأرتباطية تطورا طبيعيا ومنطقيا(١٤).

ان ما جاء به هوبز من سيكولوجية ضمنه بحثيه الأساسيين وهما: (طبيعة الانسان ، ١٦٥٠) و (التنين ، ١٦٥١).وكان جل اهتمامه موجها الى تبيان ان القوى التعرفية (١٥)للعقل انما تعالج ما تتيحه الحواس من مادة محددة . اما الخيال فهو ما يتبقى من نشاط الحواس فيضمحل . وبهذه الضورة عالج موضوع التصور. اذ أعتبر اوضح الصور واقواها تلك التي تخطر فى الاحلام والصور اللاحقة(١٦) فى حالة الادراك الحسي البصري . وقد بين هوبز من بين الموضوعات النفسية الأخرى ، مسارين من المسارات الفكرية : الأول هو المسار المنقطع او غير الثابت او كما اسماه هو (غير الموجه ، والسائد من غير تصميم) وفيه لا يكون ثمة

تفكير محمول بالحماس . وأسمى الثاني الفكر (المنتظم) بفعل الرغبة والتصميم . فالخيال ، والتصور ، والذاكرة ، والتذكر ، والادراك الحسي ، اوالتبصر ، والرغبة ، وغيرها من المصطلحات الأخرى نجدها مبثوثة بكثرة فى تضاعيف هذين البحثين من بحوث هوبز.

والمصطلحات المذكورة تتردد اليوم كثيرا فى المناقشات النفسية، كما هو معروف ومألوف . فهوبز ، وهو ناقد لآراء ديكارت(١٧) ، ومتأثر بغاليلو(١٨)، قد اسهم على الأقل في ناحيتين تركتا أثرهما فى علم النفس :

[١] أولاهما فكرة (الأنسان العقلاني) ، وهي فكرة مؤداها ان تصرف الأنسان محكوم وموجه بالعقل.

[٢] وثانية تينك الناحيتين هي أن ماشرعه في علم نفس أنما هو مؤشر الى مسالك جديدة . وأحد هذه المسالك هو المعالجة العامة للعمليات العقلية وهي معالجة ترسي تلك العمليات بكل وضوح في مجرى الأحداث الطبيعية . ومع هذا فان ما بدأه من علم نفس نجده موصوفا بأنه (مادي) ، وانه (آلي) ، وينعت احيانا بأنه [حتمي(١٩)].

ناقد لآراء ديكارت(١٧) ، ومتأثر بغاليلو(١٨)، قد اسهم على الأقل في ناحيتين تركتا أثرهما فى علم النفس :

وينسب الرأي اساسا الى جون لوك (١٦٣٢ - ١٧٠٤) فى استحداث عبارة [ترابط الأفكار(٢٠)] . فهو اراد بالفكرة(٢١) الجانب [الموضوعي من العقل عند ما يكون في حالة التفكير.(٢٢)] والسؤال الذى تنبغي اثارته الان هو ما المقصد الذي كان يرمي

اليه مؤسس (٢٢)علم النفس ؟ وما هو أصل افكارنا : فهل هي في جانب منها موروثة وفي جانب أخر مكتسبة ، أو هل هي في جملتها مكتسبة واذا كان الأمر على هذه الصورة : فهل الحواس هي المنافذ الوحيدة ؟ وقد أجاب بعض الباحثين على اسئلة من هذا الضرب بكل بساطة : أجابوا بأن الحواس هي مصدر(٢٤) افكارنا كافة.(٢٥) واكد لايبنتز بأنه لا يوجد شيء في العقل لم يكن متضمنا أصلا في الحاسة ذاتها ، فليس العقل سوى العقل(٢٦).

أن دور لوك ، مقارنة له بدور هوبز ، يبدو أنه اكثر تأثيرا في مجال الاتجاه التجريبي الخبري . فهو ، على العكس من هوبز ، قد تبنى اتجاها يتسم بالطابع الوظيفي على نحو افضل . وعلى نقيض ماذهب اليه هوبز الذى أعتبر الأحساسات المصدر الرئيسي لخبراتنا ، فأن لوك اعتبر الأفكار الصادرة عن الاحساس والمنقولة بالتأمل وسائل حيوية في تكوين خبراتنا الحياتية . فهو قد ميز بلا موارية بين افكار الاحساس وافكار التأمل(٢٧) . فالعقل كما يرى لوك يفكر بثلاث طرائق متباينة :

(١)احداها تتمثل في تجميع عدة افكار بسيطة لتكوين فكرة واحدة مركبة تنشأ عنها افكارنا [البالغة التعقيد].

(٢)التقريب بين فكرتين سواء كانتا بسيطتين أم معقدتين وصفهما بجانب بعضهما بحيث نتبينهما على التو معا ولكن بدون افكارنا عن [العلاقات].

(٣)وتتكون الافكار ثالثا بعزلها عما يصاحبها ويختلط بها فيكون جزء من وجودها ، وهذا الضرب من الأفكار هي ما ي«لق عليها الأفكار المجردة ، اي انها تتكون بالاستخلاص

والتجريد(٢٨). وهذه هي الوسيلة التي تتكون بها جميع افكارنا العامة . والعمليات العقلية هذه وطريقة معالجتها وثيقة الصلة بمفاهيمنا الحديثة عن التداخل والتعقيد والتركيب والتحليل.

فلوك ،من هذه الناحية ، يدعم ماذهب اليه هوبز في محاولته ان يستخلص من الخبرات المبسطة خبرة معقدة : لكنه يخالف هوبز في أنه يستمد من الخبرة المبسطة تأملا وأحساسا : فهو بهذا بجانب كلية مجال المذهب الحسي البحت ؛ وقد تبعه في هذا الشأن فيما بعد باحثون أخرون(٣٠). ومكانته التاريخية في ميدان علم النفس ، على اية حال ، تتمثل في اسهامه في استحداث تعبير ترابط الأفكار ، وهو تعبير ركز انتباه الباحثين الذين تلوه على هذا العامل كوسيلة من وسائل الأشتقاق التجريبي في المعرفة .

ان نتيجة ما بدأه هوبز من تأملات ومن ثم طورها لوك فيما بعد ، كانت قد انهت نوعا من الخلاف كان سائدا بصدد طبيعة الخبرة . فوضع هذان الباحثان بذلك حد لمناقشات جارية واعطيا اتجاها جديدا لتلك المناقلات . فتأكدت بهذا عدة اتجاهات (٣١)اهمها:

(١) لا يمكن ان تكون لدينا معرفة مالم تكن مستمدة من الخبرة .

(٢) ثمة ضربان من الخبرة هما الخبرة بالاشياء الخارجية الموضوعية والعمليات الداخلية الذاتية ، أي التأملات والاحساسات .

(٣) ان ما تتألف منه المعرفة انما مرجعه الى الائتلاف أو الأختلاف فيما لدينا من افكار.

(٤) لا يسعنا معرفة الأشياء بذاتها وفي ذاتها ، وانما نتعرف على الأشياء فقط من خلال تأثيرها علينا وتأثرنا بها ، اي أننا لا نتعرف الا على ما نكونه عنها من افكار . تلك بأختصار كانت اراء كل من هوبز ولوك على التوالي [ويرى بعض الباحثين ان الارتباطية التي ابتدأت على هذا النحو هي التي انتهت الى صيغة المنبه والأستجابة التي اتخذت لها شكلا أوليا عام ١٨٩٨ فأثرت في السلوكية واعطتها دفعتها عام ١٩١٢].

ثمة ثلاثة انظمة متميزة ترتبط بنظام لوك ، وهذه هي : مثالية بيركلي ، ومذهب الشك عند هيوم والذى امتد الى فرنسا ، والمذهب الحسي عند كونديلاك . وانه الى النظام الاول من الأنظمة الثلاثة هذه سنلتفت في الفقرات التاليات.

اشار جورج بيركلي (١٦٨٨٥ - ١٧٥٣) ، وهو هنا يتفق تمام الاتفاق وماذهب اليه لوك ، اشار الى ان معرفتنا بالعالم الخارجي انما تتأتى عن طريق الحواس(٣٢) . فهو قد اكد على نحو متميز عملية الأرتباط ، التى اطلق عليها مصطلح (الأيحاء) . وقد أورد منه انواعا عدة ، منها مثلا (البعد) او المسافة ، ويتم وروده الى العقل عن طريق فكرة أخرى ، وهذه الأخيرة نفسها يتم ادراكها بواسطة فعل الرؤية ونشاط(٣٣)الأبصار . ولقد اقتبس جي . هـ . لويس من بيركلي قوله:

[..ان مااراه بعيني وأحسه بيدي انما شيء كائن وموجود حقا : فهو حقا موجود ولامراء . فلا يحق لي اذن أن اثير أي سؤال بشأنه . وان الشيء الوحيد الذي انكر وجوده هو ما يدعوه الفلاسفة المادة ، أو العرض المادي أو الجسمي.]

فالرأي المستقى آنفا يعكس مثالية بيركلي . وهذا يشير الى ان الطبيعة الذاتية السابقة للمعرفة السائدة ايام بيركلي قد افضت في خاتمة المطاف الى المثالية [وقد اعقبت ذلك فيما بعد الحركة المثالية الجديدة . والمثالية الجديدة هذه تختلف في طبيعتها عن مثالية هيجل . فالمثالية الجديدة هذه قد احتفظت بجوانبها العقلية والروحية . وقد وجدت لها منسربا الى الأدب وبخاصة الشعر فتأثر بها الشعراء الرومانتيكيون ومنهم مثلا شيلي وكيتس ووردزورث وكوليرج الذي سيرد ذكره فيما بعد في هذا الفصل لا بوصفه شاعرا فحسب بل بصفته فيلسوفا ايضا.] وتتجلى نتائج جهود (٣٥)بيركلي في انه اكد على اهمية التأملات النشوئية في صورها التطورية من الوجهة الفلسفية العلمية . فبيركلي قد اكد على أن [فكرة تؤول الى او تستدعي الى الذهن فكرة اخرى ، وهنا قد يكتفى بأن تتوافق الفكرتان معا دونما اية ضرورة الى وجوب البرهنة على ترافدهما في الكينونة داخل العقل في آن واحد(٣٦).]

يقسم بيركلي محتوى العقل الى افكار حسية وأخرى تخيلية واعتبر [الأفكار الحسية أقوى ، واشد حيوية ، واكثر وضوحا من تلك الافكار التي يكون مصدرها التخيل : فهي افكار تتميز بالاستقرار والأنتظام والتماسك ولا تستثار اعتباطا ، وانما هي تتوالى بصورة متسلسلة ومنتظمة.(٣٧)] أما الافكار التخيلية فيعبر عنها بأنها [افكار او صور الأشياء تقتبس عقليا لتمثل صور الأشياء ولكنها ليست الأشياء بعينها.(٣٨)] وهذه اشارة واضحة بأتجاه استخدام مصطلح الفكرة بمعناها الحديث وهذا تضمين لمعنى التصور في علم النفس الحديث . ويذكر بيركلي قائلا [بوسعي

ان استثير فى ذهني افكارا متى اشاء.(٣٩)] وأضاف يقول [بأستطاعتي وبمحض ارادتي ان اكون مجموعة متنوعة من الأفكار وأن استحضرها في خيالي ، وان لم تكن بنات تخيلي هذه كلها من نفس القوة وبنفس الدرجة من حيث الثبات اذا ما قورنت بتلك الأفكار التي ادركها او تدركها حواسي الأعتيادية.(٤٠)] فأننا ندرك من وجهة نظر بيركلي سيلا من الأفكار مصدرها الحواس والتخيل ؛ بعضها حديث الأستثارة وبعضها متغير ، وغيرها يكون قد اختفى تماما فتلاشى(٤١). والافكار بالنسبة اليه خاملة وغير فاعلة ، فلا تستحدث فكرة فكرة أخرى ولا هي تغير من طبيعتها شيئا(٤٢)لكن ما يطرأ من تغيرات وتبدلات انما يتسبب بفعل نشاط الجوهر الهيولي(٤٣)أو الروح.

ان ما قام به بيركلى من دراسات قد نقلت مشكلة المعرفة من جو فلسفي محض الى مناخ نفسي متميز . فموقفه الفلسفي وان كان مثاليا بيد انه يرتكز الى دعائم الخبرة . فتحليله كان تجريبيا اكثر مما كان تحليل هوبز ولوك . وان نظريته عن الادراك البصري للمجال قد وجهت العناية بخاصة الى حقيقة ان معرفتنا بالمسافة او بالبعد انما هي معرفة قابلة للتحليل الى خبرات ابسط . وهذه الفكرة بحد ذاتها قد شجعت من تلاه من الباحثين على التعمق في تحليل وتركيب وتوليف مختلف اصناف الخبرة وما تتضمنه من عناصر . وان تجريبيته النفسية قد تركت تأثيرا كبيرا . فهو عندما عوض عن (النية) أو (القصد) بمصطلح (الفكرة) يكون قد خطا خطوة واسعة ومهمة فى اتجاهاته النفسية(٤٤). ولذا فان من يقرأ ما كتبه بيركلي يجد انه يتوجه الى القارئ بأستمرار بأن يعير

الخبرة ما تستحق من اهتمام بوضعها كخبرة . وكانت دعوته المستمرة ترمي الى تنقيح معاني الألفاظ لتنقيتها من محتوياتها الجوفاء . وان القاريء لمؤلفاته(٤٥) يجد نفسه مرة تلو الأخرى يتساءل في قرارة نفسه عما يبلوه في ذاته وعما يختبره من خبرات . ولعل هذا يماثل ما يسمى في علم النفس الأدراكي الحديث وصف ما يخبره المرء وما يتحسسه . فالشيء المدرك [بفتح الراء] مثلا ان هو الا مجموع العناصر الحسية المدركة [بفتح الراء] ولعله كان يهدف الى البرهنة على فرضية فلسفية ، لكنِ هذا لا يمكن ان يصرف النظر عما كان بسبيله من اتجاه اساسي قيم يسمح بوصفه انه [رائد من رواد علم النفس الحديث.(٤٦)]

يمثل كل من لوك وبيركلي وهيوم تتابعا زمنيا يصح نعته بأنه زمن [الفلسفة التجريبية الأنكليزية.(٤٧)] وان الخط الفلسفي هذا الذي يمتد من بيكون وهوبز فيصل الى لوك وبيركلي وهيوم ومن ثم يتصل ببنثام وآل – مل ، وسبنسر ، ينطوي على سلسلة من المبادىء المتماسكة المتناسقة تتفاوت في مظهرها طبقا للجوانب التي ينظر منها اليها، لكن حلقات تلك السلسلة تبقى دائما موصولة في علاقاتها الى اساسها الكلي الذي يتألف منها وتؤلفه . ولئن كانت ثمة رغبة في ايجاد مصطلحات ملائمة لهذا المظهر الكلي في مجمل جوانبه الرئيسية ، فينبغي اختيار [التجريبية] او [الوضعية] لأبراز معالمه الفلسفية العامة ، ويجدر استعمال مصطلح المذهب [الحسى] أو [الظواهرية] لتبيان صلته بنظرية المعرفة ، ويجب الركون الى مصطلح المذهب [الأرتباطي] بالنسبة الى علم النفس ، ولقد يحسن استخدام مبدأ [اللذة] و [نظرية

السعادة] - وهي نظرية أو فلسفة التماس السعادة اساسا للسلوك الأخلاقي ومحكا له - ، أو [المذهب النفعى] من حيث علاقته بالأخلاق ، ويجمل اللجوء الى [الشك] أو [اللاأدرية] أو [الأغنوطيسية] - وهو المذهب الذي ينكر قيمة العقل وقدرته على المعرفة - فيما اذا أريد البحث في ميتافيزيقيته ، ويستلزم الرجوع الى [الربوبية] - مذهب فكري ساد في القرن الثامن عشر يدعو الى الأيمان المبني على العقل ، ويؤكد على المناقب الأخلاقية - او الى [اللاتفريقية] - وهو مذهب يؤكد على الأيمان بأن جميع الأديان السماوية متساوية في صحتها لأنها من لدن خالق واحد عليم - من الناحية الدينية ، اما من الناحية السياسية فيلزم الأخذ بالأتجاه [الحر].

ان التجريبية أو المذهب التجريبي الكلاسيكي الذي ساد في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، تمييزا له عن المذهب الذي اعقبه في القرن التاسع عشر والذي اطلق عليه المذهب التجريبي الحديث ، افضى نلك المذهب الكلاسيكي الى فلسفة هيوم وانتهى عندها موقتا . وكانت نهايته الموقته هناك لأن هيوم لم يترك بعده مبادىء فلسفية مشنبة محددة . وهنا يكمن المعنى الحقيقي لما يسمى عادة بصورة ملطفة وبروح مخففة [مذهب الشك عند الأنسان أو الشك البشري.(٤٨)] من هذا نلاحظ أن المنهج التجريبي قد سار بوجه الأجمال وفق خط مستقيم حتى بلغ الذروة عند هيوم الذي سنلتفت فيما يلي الى تأملاته النفسية .

كان هيوم [١٧١١ - ١٧٧٦] يرى بأن العالم تيار من الأفكار تنساق انسياقا ، لكن تيار الأفكار هذا [من غير روابط ، وبدون

ثبات ، ودونما وحدة ، بلا معنى ، فهو فقط حاضر وذاهب أو ماضى.(٤٩)] وهذا اتجاه في الشك يستغربه المرء من فيلسوف مثل هيوم . ولكننا نجد ان مذهب الشك هذا والذي هيمن على تفكيره في بواكيره قد استعاض عنه فيما بعد بالمذهب الوضعي.(٥٠) وينكر بأنه بعد ارسطو يعتبر اول من صنف انماط الأرتباطية تصنيفا شاملا . وهو هنا يدعي لنفسه الأصالة التامة في هذا المجال . فهو ينكر قائلا [وان كانت المسألة من الوضوح بحيث لا تخطئه الملاحظة وهو أن الأفكار مترابطة مع بعضها ، بيد أني لم أجد فليسوفا قبلي حاول تعداد أو تصنيف المبادئ الأساسية التي تنتظم الأرتباطية – وهو موضوع جدير بأن يستأثر بحب الأستطلاع وبالبحث.(٥١)] وثمة بالنسبة الى هيوم ثلاثة مبادئ فقط تربط بين الافكار وتصل اطرافها ، وهذه المبادئ هي [التماثل] ، و[التقارب في الزمان والمكان] ، و [السبب أو الأثر].

وابرز ما اسهم به هيوم هو تغييره معنى [الفكرة(٥٢)] وتحويلها فى الأتجاه الذي كان قد اقترحه بيركلي . فهيوم يقسم الخبرة الى [انطباعات(٥٣)] و [افكار] . وتتألف الأنطباعات من الأحساسات ، والأهواء ، والأنفعالات التي [تتخلل بقوة ثنايا الشعور(٥٤)]. اما الأفكار فهي الصور العقلية الباهتة لهذه العناصر كافة(٥٥) ، اى انها بوجه عام [نسخ من انطباعاتنا(٥٦)]. ومن الصور العقلية عنده نوعان : النواكر والخيالات أو الأخيلة : والاولى اكثر حيوية في حين أن الأخيرة ليست مقيدة بنظام أو بشكل انطباعاتنا الأصيلة(٥٧). والأنطباعات بالمعنى الذي استخدمها فيه هيوم يقابلها ما نسميه

اليوم الأحاسيس والادراكات الحسية : وان مصطلح [الافكار] عنده ينطوي في الوقت ذاته على الصور العقلية والتفكير حسب مفاهيم علم النفس الحديث.

بعد ان وطد هيوم اركان مصطلحاته الفنية ، راح يتدبر طبيعة العلاقة بين الأفكار المتتابعة . فهو يذكر [أنه من الواضح بأن هناك مبدأ يربط بين الأفكار أو الأراء المختلفة الكائنة في العقل ، والأفكار والأراء هذه لدى ظهورها في الذاكرة أو مثولها في الخيال ، يرفد بعضها بعضا بدرجة محددة من المنهجية والأنتظام(٥٨).] فالأفكار مترابطة مسبقا ، وان ترابطها هذا ليس بمحض المصادفة ، بل هو ترابط جاء نتيجة حتمية لتصميم محدد ومنظور بروى العقل . فلو [كانت الأراء مهلهلة ومفككة ، لما جمع بينها في حبكة واحدة متماسكة الا التغير وحده(٥٩).] وهذا مخالف لواقع الحال.

اذ حتى الأفكار البسيطة ذات الطبيعة المتماثلة تتجمع بانتظام مع بعضها فتكون وحدة مركبة ، واذن فيجب الأفتراض بأن ثمة [رباط من نوع ما يصل بينها وينتظمها فتنسلك في نظام موحد ، وان هناك خاصية او صفة رابطة تجعل فكرة تستتلي فكرة اخرى(٦٠).] على أن هذا المبدأ الواصل [لا ينبغي اعتباره رابطا محكما .... ولا يجوز الظن كذلك بأنه بدونه لا يمكن للعقل ان يربط بين فكرتين أو اكثر ... ولكن يجب اعتباره قوة معتدلة شائعة الوجود(٦١).] فهو في هذه المرحلة بالذات كان قد عدد اساليبه الثلاثة الخاصة بالأرتباطية والمشار اليها آنفا – وهذه هي التماثل ، والتقارب ، والسببية أو العلية.

فعلم النفس الذي جاء به هيوم يمكن اعتباره تلخيصا لما نكره

من قبل كل من بيركلي ولوك[٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤] . فهو قد ابتدأ ، كما فعلا من قبل ، من منطلق الموقف التجريبي ، مستخدما أساليب العلية ومتجها صوب الأستخلاصات المعرفية القائلة ان كل ما لدي الأنسان من معرفة انما هي معرفة مستقاه(٦٥) من الخبرة . فهيوم قد وجه الأهتمام في فلسفته وفيما هو مبثوث في ثناياها من علم النفس ، وجه الأهتمام الى انه ليس من الضروري ان تكون الأشياء بحد ذاتها مترابطة ؛ وانما هي الأفكار التي يربط العقل بينها فيوحدها . وان الترابط هو نتيجة للتكرار والعادة . وان دراسة مقارنة مصطلح العادة كما استخدمها هيوم في حينها وكما هي مستعملة في علم النفس الآن وفي نظريات التعلم الحديثة تصح ان تكون موضوع بحث نافع ومهم . والرأى هو أن الأفكار تتوالى حسب مقتضاها السيكولوجي وليس حسب ترتيبها المنطقي ، وقد حدد هيوم الفوارق في الخبرة عند الأنسان والحيوان .

وقد تكون هناك صعوبة في تحديد أو تبيان المؤسس الحقيقي للأرتباطية ، اذ قد يكون هوبز ، وربما لوك ولعله يكون بيركلي ، أو هيوم . لكن ثمة شبه اجماع على أن ديفيد هارتلي (٦٦)(١٧٠٥ - ١٧٥٧) يعد الباحث الفعلي الذي صاغ مذهب الأرتباطية وقد وضع مبدأها المحدد. ومن دعوته ان هناك نظامين من الأحداث ينبغي اخذهما في الحسبان ، هما : النظام العقلي والنظام الجسمي . فهو يرى بأن هذين النظامين ليسا متماثلين وانما هما متوازيان في نشاطهما بحيث ان أي تغيير في أحدهما ينشأ عنه تغيير في الطرف الاخر . ففي الجانب العقلي توجد ثمة الأحساسات والأفكار ، وتوجد في الجانب الجسمي الذبذبات

والأهتزازات . وان العلاقة متينة بين الاحساسات والأفكار هي علاقة وطيدة ومباشرة . ولعل القوة في نظامه العلمي تمكن في جملة اساسيات ابرزها:

(١) اتجاهه في تطبيق المبدأ الأرتباطي على تفسير الظواهر العقلية .

(٢) استعماله للنظام ككل في سبيل تفسير وتعليل وظائف فسلجية محددة يمكن تسميتها انشطة ارادية ولا ارادية ، اذا ما استخدمنا لغة علم النفس الحديث.

واظهر نقطتين أساسيتين في نظرية هارتلي الخاصة بالعقل هما : (١) محاولته تقصي الصلة الوثيقة بين النشاط العقلي والنشاط العصبي محاولا تفسير ذلك بعبارات الذبذبات والأهتزازات .(٢) الأفاضة في ارجاع جميع ضروب الخبرة الى الأصول الأرتباطية . وان مبدأ هارتلي المتعلق بالذبذبات ، وان كان يثير اسئلة ونظريات ذات صبغة نفسية تتصف بالموازاة ، بيد أن اراءه تلك لم تكن سببا مباشرا لها. ونجد مؤلفه المسمى : ملاحظات تتعلق بالانسان ، مظهره ، وواجبه ، وتطلعاته(٦٧) (١٧٤٩) ، وقد طبعه اول مرة بعد وفاة هارتلي في عام (١٨٠١) ، نجده مقسما قسمين ، احدهما نفسي في منحاه ويخص عقل الأنسان وجسمه . ويهتم القسم الثاني من الكتاب بالفلسفة الاخلاقية . وان ما يهمنا هنا هو الجانب النفسى . وعند هارتلى انه الى العقل وحده تعزى الاحساسات والأفكار ، واللذة والألام ، والحركات الأرادية (٦٨). وهو يقسم الخبرة أو كما يسميها (الاحاسيس والعواطف الداخلية) الى احساسات وافكار . وهو يرى بأن اللذات والألام اما أن تكون احاسيس(٦٩ ، ٧٠) أو

أفكارا.

أرتأى هارتلي بأنه لابد من ان يكون عقل الأنسان مؤلفا من ملكات محددة هي [الذاكرة ، والتخيل أو الخيال ، والفهم ، والوجدان ، والارادة(٧١).] وهذا افتراضه الذى جعله اساس مناقشاته . وذهب الى ان ثمة ضربين من حركات الجسم هما الحركة الأوتوماتيكية أو الآلية ، والحركة الأرادية(٧٢).

لقد وسع هارتلي مفهوم الأرتباطية فجعلها تنطوى على النواحي الحركية البارزة منها كما تتجلى فى حركات الأنسان التعبيرية ، والمستترة كما هى فى حالة النشاط الفكري وللخبرة في كلتا الحالتين دور في سلوك(٧٣ ، ٧٤)الفرد . ولقد ربط الحركة والفكرة، اذ افترض ان تكرار الحركة عند المرء يرتبط بالفكرة المحركة لتلك الحركة الظاهرة . ويعتبر الربط هذا اول محاولة على طريق المنحى (٧٥)الأرتباطي . وكان يستند فيما قدمه من بيانات الى الأحساسات التي يمكن ان تتحول الى مجاميع ذات مراتب عليا ، وان المجاميع هذه تنتقل بدورها من حالة شعورية (٧٦)الى أخرى.

٢ - ثمة ارتباطيو نآخرون من القرن الثامن عشر

قبل الالتفات الى [مل] و[مل] ، الأب والأبن ، ومن اجل استيعاب أوفى للفكر الأرتباطي في القرن الثامن عشر ، فأن الضرورة تلزم بالقاء نظرة عابرة على بعض الأرتباطيين الآخرين ممن حفل القرن الثامن عشر بأسمائهم . وأحد هؤلاء كان ابراهام تكر (١٧٠٥ - ١٧٧٤). فهو قد نقح التحليل الأرتباطي للعقل

تنقيحا مستنفذا يليه جوزيف بريستلي (١٧٣٣ – ١٨٠٤) الذى استهوته نظرية هارتلى ؛ اذ تبناها وعمل على نشرها . فكلاهما – تكروبريستلي – قد كررا القول بأن الظواهر العقلية تتغير باردنماج والالتحام والألتئام والتكامل . . وهذه وجهة نظر يمكن أن تعد ممهدة للنزعة الجشتالية في علم النفس الحديث . وقد تلاهما ارثبولد البسون (١٧٥٧ – ١٨٣٩) الذى كان يؤكد على ان المادة المحسوسة تثير الشعور بالأحساس ، أى تستثير الاحاسيس ، لا الأنفعالات ؛ اذ ان الأخيرة هذه انما تنشأ بفعل ممارسة التصور والتخيل . وقد تلقف نظرية هارتلي ارازموس دارون (١٧٣١ – ١٨٠٢)) جد تشارلس دارون ، وسيلتفت اليه في الفصل القادم . وكان ارازموس دارون ذاك فيلسوفا طبيعيا ، وطبيبا ، وشاعرا. وقد فسر في كتابه : قوانين الحياة العضوية (١٧٩٤) كيف ان الغرائز تنشأ اصلا عن طريق الخبرة والارتباط ، بتأثير من دافع المحافظة على الحياة والتوافق مع الظروف المحيطة بالفرد . مثل هذا يتنافى نماما وتذهب اليه النظريات الحديثة القائلة بوراثة الغريزة لا اكتسابها وسيأتى بحث هذا تفصيلا في الفصل الثانى من هذا الكتاب . وهو يذهب أبعد مما ذهب اليه هارتلي ، ونلك بتوكيده على ان الخصائص المكتسبة يمكن ان تنتقل وراثيا . ويلاحظ من هذا بأن علم النفس الأرتباطي قد تحول الى مبدأ بيولوجي تطوري نشوئي ، ولكن لارابطة له مشتركة بمبدأ تطور الانواع الذى قال به (لامارك) فيما بعد . لكن هذا الرأى الأخير قد مهد السبيل امام ظهور الفرضية التي اقترنت بأسم تشارلس دارون . ثم اعقب هؤلاء جميعا توماس براون (١٧٧٨ – ١٨٢٠)

الذى تأثر بما ذهب اليه المدرسة الاسكتلندية في التفلسف والتفسير، ومن اسماء اتباعها يمكن نكر دوجلاد ستيوارت (١٧٥٣ – ١٨٢٨) وتوماس رايد (١٧١٠ – ١٧٩٦). لكن براون خالف المدرسة الاسكتلندية في عدم اعتباره العمليات العقلية ملكات خاصة أو طاقات عقلية محددة فهو يعتبرها ظواهر تدل على على النشاط الارتباطي ، كا ذهب الى هذا هارتلي من قبل . وقد ضمن افكاره تلك كتابه : محاضرات فى فلسفة العقل البشري(٧٧)[١٨٢٠].

ملأ براون بجهده الفجوة التي خلفتها دون تفسير بعض الأتجاهات الارتباطية الفجة . وقد اوحد مبدئين أساسيين يخصان الحياة العقلية ، وقد اسماهما : (الأتجاء البسيط) و (الأتجاء النسبي) . وعنده ان المسئول عن الجوانب الأبداعية من الحياة العقلية هو الأيحاء النسبي . وهو قد استخدم مصطلح (الأيحاء) تعويضا عن تعبير (الارتباط) . وجاء بموضوع اخر وصادف تقبلا سريعا وواسعا وهو تأكيده على اهمية الحسي العضلي ، وما يقع على العضلات من ضغط والاحساس بهذا الضغط ، وهو قد نقل هذا الرأى من الفسلجة وضمنه مفاهيم علم النفس(٧٨). ففي محاضراته المنكورة كان براون قد اقترح قوانينه التسعة الخاصة بالأيحاء وهي:

١ – قانون الاستمرارية النسبية .
٢ – قانون النشاط النسبي او الحيوية النسبية.
٣ – التكرار النسبي.
٤ – الحداثة النسبية .

٥ - قانون الأرتباطات البديلة.

٦ - قانون تكوين الفوارق.

٧ - قانون التباين او التفاوت في ذات الفرد.

٨ - قانون تعدد أو تنوع الحالة .

٩ - قانون العادة أو التعود فى الحياة.

ان اهتمام الباحثين الأنف نكرهم كان ينصب على أن المعرفة تستمد من الخبرة : مستخدمين في تحليلهم السيكولوجي مصطلح (الارتباط) للتدليل على النشاط العقلي . وجل اهتمامهم كان يتمثل في تحليل الحقائق المعقدة والمكونات او المحتويات الشعورية الى خبرات اولية ، وابرز ارائهم بأن الخبرات الاولية هذه متماسكة بفعل العامل الارتباطي . وان الدراسة التتبعية للأتجاه الأرتباطي توضح كيف تجلت آفاق التحليل عند كل واحد منهم.

٣ - مراجع الفصل الاول

(1) An Outline of Psychology, London, Methuen, (1923), P. 218; See also
An Introduction to Social Psychology, London, Methuen, 25th ed. (1943), 1st Published (1908), pp. 458 ff.

(2.) Quoted by Th. Ribot: English Psychology. (1889), p. 44

(3) Ibid, English Translation, London, Kegan Paul, (1889), p. 33. See also.
Hearnshaw, L.S. A Short History of British Psychology, London, Methuen (1964), Preface, P.V.I.

(4) Ribot, Th., op. cit., pp. 33 - 34; See also

(1) Metz, Rudolph, A Hundred years of British Philosophy, English Translation, London, George Allens, (1938) . pp. 34ff 246 - 7;

(11) Warren, Howard C., A History of the Association Psychology, New York, Charks Scribbner's Sons (1921), pp. 33ff.

(111) Bretts' history of Psychology, 3 vols. abridged and ed. by R.S. Peters, London, George Allen, (1953), pp. 36.ff

(IV) Lewes, George Henry, the Biographical History of Philosophy, London, John W. Parkes (1857), pp. 419 - 20.

(V) The History of Philosophy, 2 vols. London, Longman's (1880), vol (11), pp. 417 ff.

(5) Ribot, Th. op. cit. pp. 33 - 34.

(6) F.V. Smith, Explanation of Human Behaviour, London Constable and Co. 2nd ed. (1960), 1st Publ. 1951 p.3.

(7) (1) Brett's History of Psychology, op. cit. p. 368, See also:

(11) Harold Hoffding, A History of modern Philosophy, English trans. , 2 vols, London, Macmillan and Co. (1900), reprinted (1908) ch. IV, Vol 1, pp 259 - 291.

(111) W.R. Sorley, A History of English Philosophy. Cambridge University Press, (1920), Chapter IV.

8) See:

(1) H.C. Warren, op. cit. pp. 33 - 34.

(11) Frank Thilly, A History of Philosophy, N.Y. Henry Holt and Co., (1914), Last Publi. 1931, pp. 263 - 272.

(111) Mandler, J.M. and Mandler, G., Thinking: From Association to Gestalt, New York, John Wiley, (1964), pp. 9 - 15, 15 - 25.

9) op. cit. p. 33. see also: pp. 23 - 32.

(10) Thilly, op. cit. p. 263.

(11) G.H. Lewes, The Biographical History of Philosophy op. cit. p. 424.

See also his the History of Philosophy, op. cit. p. 417.

(12.) Thilly op. cit. p. 264., see also : F.A. Langes the History of Materialism, English Trans. London, Kegan Paul, (1925), pp. 269 - 290.

(13) G.H. Lewes, Biographical History of Philosophy, op. cit. pp. 419 - 20.

See also: The History of Philosophy, op. cit. p. 229

(14.) See:

(1) Warren op. cit. pp. 33 - 34.

(11) John Passmore, A Hundred years of Philosophy, London, Gerald Duckworth, (1957), p. 124.

(15) Hobbes, Thomas, Leviathan

(16) Ibid See also:

(1) Hobbes'' Human Nature

(11) Heidbreder , Edna, Seven Psychologies, New York (1935) pp. 38 - 39.

(17) Heidbreder: Seven Psychologies, op. cit. p. 38

(18) (1) Ibid, p. 40.

(11) Mandler, J.M. and Mandler G. Thinking op. cit. pp. 15 - 26

(19) Ibid, pp. 39, 40, see also

Lange, The History of Materialism, op. cit. pp. 297, 300, 354.

(20.) (1) Thilly, History of Philosophy, op. cit. pp. 310 - 311

(11) Murphy, Gardner, Historical Introduction

to Modern Psychology (1949) pp. 27 - 29.

(21) (1) Lewes G.H. The Biographical History of Philosophy, P. 436.

(11) ,The History of Philosophy vol 2 pp. 239 ff

(111) Brett's History of Psychology, p. 404

(22) Ibid, p. 404.

(23) John Locke being described by G.H. Lewes, op. cit. p. 434.

See also: W.R. Sorley: A History of English Philosophy. op. cit. ch. VI.

(24) Hobbes's Leviathan, op. cit. p. 7.

(25) See:

John Lockes Philosophical Works, Book 11, Ch. 1 P. 122

26. Thilly, op. cit. pp. 307 ff.

(27) See:

(1) Thilly, History of Philosophy pp. 364 ff

(11) G.H. Lewes, the Biographical History of Philosophy, p. 441.

(111) J.H. Warren, op. cit. pp. 38 - 39.

(28) See:

(1) John Locke: Philosophical Works

Book 11, pp. 122 - 123.

(11) ,Essay Concerning Human understanding (1690) pp. 326 - 356.

(29) (1) John Locke : Essay ....ch. 12

(11) H.C. Warren: op . cit. p. 38

(30) See: (1) Locke's Philosophical Works, Book 11
(11) Heidbreder, Seven Psychologies, pp. 40 - 41
(31) (1) G.H. Lewes , the Biographical History of Philosophy, P. 460
(11) H.C. Warren, op. cit.
(111) John Passmore, op cit. pp. 71, 80, 205, 428.
(32) (1) Heidbreder, op. cit. p. 43
(11) G.H. Lewes, op. cit. p. 465.
(111) , op. cit. pp. 295 ff
(IV) W.R. Sorley, op. cit. ch. VII.
(33) (1) Berkeley, The Theory of Vision (1709)
(11) H.C. Warren.
34) G.H. Lewes, op. cit. p. 465.
(35) (1) , p. p. 478
(11) Murphy, op. cit. pp. 30 - 32
(36) New theory , op. cit. Sec. 25
(37) Principles of Human Knowledge sec. 28
(38) New Theory Sec. 33
(39) Principles of Human Knowledge, op. cit.
(40) Dialogues between Hylas and Philovs
(41) Principles of Human knowledge op. cit.
(42) Ibid
(43) Ibid.
(44) See:
(1) H. Hoffding, op. cit. vol 1, p. 414
(11) H.C. Warren, op. cit. p. 42.
(111) Brett's History of Psychology, op. cit. p.

412.

(45) A New Theory of Vision : op. cit.

(46) E.T. Rasinussen, (Berkeley and Modern Psychology), The British Journal for the Philosophy of Science, vol IV, 1954. p. 3

(47) See: (1) Brett's History of Psychology, p. 400

(11) Passmore, J. A Hundred years of Philosophy, pp. 179 - 80, 190 - 1

(111) W.R. Sorley. ch. VIII.

(48) R. Metz. op. cit. pp. 47 - 48

(49) Heildbreder, op. cit. p. 49

(50) Brett's History of Psychology, op. cit. pp. 414 - 415

(51) Hume, Enquiry concerning Human understanding

(52) (1) Hume, op. cit. sect.3

(11) Hoffding, op. cit. pp. 435, vol. 1

(53) 1) Hoffding, vol 1 p. 435

(11) Brett's History of Psychology pp. 419 - 420

(54) (1) Hume's Treatise, op. cit. Book 1, part 1 Sect. 1

(11) G.H. Lewes, op. cit. pp. 325 ff

55) Treatise

56) Enquiry

57) Treatise, Sect. 3

(58) Enquiry.

(59) Treatise.

(60) Ibid

(61) Ibid

(62) Ibid

(63) (1) Brett's History op. cit. p. 420

(11) Heidbreder

(64) Ibid

(65) (1) Mandler, J.M. and Mandler G. Thinking, op. cit. pp. 51 - 68.

(11) Thilly, op. cit. pp. 345 - 36

(111) Lange, op. cit. pp. 204 - (IV) H.C. Warren, op. cit. pp. 43 - 47.

(V) G.H. Lewes. op. pp. 479 - 485.

(66) See:

(1) G.H. Lewes, op. cit. pp. 509 - 511

(11) Brett's History, op. cit. pp. 421 - 428

(111) Heidbreder, op. cit. pp. 53 - 54.

(IV) R.Descartes's Dualism: Mind and Matter

(V) F.H. Brandley, Appearance and Reality (1893) ch. XXIII, Body and Soul.

(VI) W. MCDougal, Body and Mind

(67) H. Hoffding, op. cit. pp. 446 ff.

(68) Observations, part 1.

(69) Observations.

(70) Ibid

(71) Ibid

(72) Ibid

(73) H.C. Warren, p. 55

(74) Ibid, pp. 55 - 56

(75) (1) Observations, op. cit. Book I, part I Sec. 4.

(11) For Further Information and Reading, J. Edward Erdmann,:

A History of Philosophy, Eng. Trans. 3 vols. London (1890)

(76) H.C. Warren, op. cit. p. 64.

(77) (1) Hoffding , vol. 1 op. cit. pp. 448 449

(11) H.C..Warren, op. cit. pp. 64 - 80

(111) F. Thilly, op. cit. p. 364.

(IV) J.C. Flugel, A Hundred Years of Psychology, London (1955) pp. 23 - 24

(v) Heidbreder, E., op. cit. p. 55

(78) (1) J.C. Flugel, op. cit. p. 27.

(11) H.C. Warren, op. cit. pp. 77 - 79.

الفصل الثاني

المذهب التجريبي في القرن التاسع عشر

١ – سلسلة الافكار النفسية

كانت ثمة من الوجهة التاريخية فجوة بين الأرتباطية الكلاسيكية أو التقليدية من جهة وبين الأرتباطية التي سادت في القرن التاسع عشر من ناحية أخرى ، والتي تسمي تواترا بـ(الفترة الحديثة). على أن تقسيم الحركة الأرتباطية الى فترات ينبغي الا ينظر اليها على أنها فواصل حادة . ولكن يجدر اعتبار الأعوام (١٧٦٤) و (١٨٦٥) (١)مثلا [وهى اعوام طرأفيها نوع من التحول في التفكير العلمي الفلسفي النفسي] بأنها تمثل تحولات دراماتيكية في الحوار المتبادل والمتضارب احيانا بين مدرستين فكريتين [انظر الفصل الاول]. ورغم هذا فأنه كانت هناك كما يبدو مفاوز تسمح بألتقاء اصحاب الدعوة الأرتباطية ومن ثم تصنيفهم في مجموعتين حسب الحقب الزمنية . يمثل باحثو الحقبة الاولى نزعة الى تقصي التعابير والمصطلحات الأساسية ، منتهجين اساليب التتبع المتقطع أو ملتمسين اسباب التحليل الموزع غير المنسق . اما دعاة الفترة الثانية فقد كانت عنايتهم بادية في استقصاء المقاصد الأرتباطية ، وبالتالي أنصب اهتمامهم على التحليل المنظم والتبرير المتعمق.

وانسياقا مع اهميتها التاريخية ، فأن التجريبية الحديثة ، ممثلة بأبحاث ودراسات جيرمي بنثام (١٧٤٨ – ١٨٣٢) امتدادا الى مل (الأبن) وباين ، تبرز اهميتها وتتجلي قيمتها في كونها حركة فكرية من الطراز الأول وذات تأثير فعال . فهي لم تكن العمود

الفقري لقوة دافقة في سبيل التقدم المحدد لمنهجية الفلسفة وعلم النفس فحسب ، وانما بالأضافة الى ذلك ، فهي قد باينت غيرها من الدراسات الأخرى في مسارب المعرفة الانسانية ، وذلك بنفاذ تأثيرها الى مختلف الاجواء الأدبية منها والثقافية ، والتربوية ، وسائر جوانب الحياة الاجتماعية . ولهذا فأن تجريبية القرن التاسع عشر تحدد معالم نظام متبلور في مجرى اضطراد علم النفس المبني على الملاحظة الجادة . والى جانب اصحاب مدرسة النشوء والتطور الذى سيتم تناولهم في الفصل التالي ، فأن ابرز اعلام التجريبية الحديثة هم جيمس مل ، وجون ستيوارت مل ، والكسندر باين

أضطرد تيار الفكر التجريبي ، بعد بنثام في افكار جيمس مل (١٧٧٣ - ١٨٣٦) وفي بحوثه ، وكان متأثرا به(٢). فهو يمثل همزة الوصل بين بنثام وبين أبنه جون ستيوارت مل . فكتابه: <u>تحليل ظواهر عقل الانسان</u> (١٨٢٩)، يعد من الأساسيات في ارتباطية القرن التاسع عشر كما كان كتاب هارتلي : الملاحظات يعتبر من دعائم الأرتباطية في القرن الثامن عشر . وقد كتب ل.س. هارنشو(٣) (١٩٦٤) عن كتاب مل يقول:

[... ان هذا الكتاب يفتتح عهدا جديدا في مسار التفكير الأرتباطي ، ففيه نجد جميع الحالات العقلية المعقدة التي تتجلي في فكر الانسان ، وقد تم تحليلها براعة الى مجاميع من الاحساسات والافكار وتوارد الخواطر ... وقد ابرز فيه مؤلفه بأن جميع ضروب النشاط الأنساني يتحكم فيها سيدان يهيمنان عليها هما الالم واللذة ...]

وبصرف النظر عن وظيفته الاساسية ، فأن علم النفس عند مل [الأب] يتسم بأهمية تاريخية خاصة : ففي هذا المجال حاول مل أن يجمع بين طرفين من اطراف المعرفة النفسية كانت قد فصمت بعض الوقت . فهو اعاد تجديد مسألة مكنية العقل : فهو قد استعاد الطريقة التحليلية ومعها جاء بفكرة [كيمياء العقل]، وتشبث بفكرة تحليل الظواهر العقلية الى ابسط دقائقها وهو ما اسماه بـ[الذرات النفسية] ، واحيا فكرة قانون الارتباط بوصفه قانون الحياة النفسية الاساسي ، واحيا الفكرة الظواهرية في نظرية المعرفة . وبهذا يكون أنعش حشدا من الافكار يرجع بعضها الى النظرية الفلسفية الكلاسيكية(٤).

يمثل مل اتجاها اقرب الى هارتلي منه الى لوك وهيوم ، لكن تحاشى الخوض في التفسيرات الفسلجية واقتصر بدلا من ذلك على ارتياد ثنايا الشعور بصورة مبسطة . وهو قد تقبل كذلك مفهوم هارتلي الخاص بالظواهر العقلية بدلا من تقبل آراء توماس براون [ف الفصل السابق]. ولقد تبنى مل صنفين من المشاعر هما [الاحاسيس] و [الافكار(٥).] فبالاضافة الى الحواس التقليدية الخمس المعروفة ، ميز مل ثلاثة انواع اخرى من الاحساسات . وان الخبرات المستمدة من هذه الحواس ليست من البساطة .[اذ ليس بوسعنا أن نفكر بالاحساس باللون من دون ان نفكر في الوقت ذاته بشيء ملون – ولا ان نفكر بسطح أو ببعد من غير ان تكون لدينا فكرة عما تمدنا به الأحساسات البصرية من أشياء كلأمتداد والأتساع والشكل انما تظهر بصورة فورية بحيث تبدو وكأنها اشياء موضوعية بصرية ، وكأنها اشياء منظورة فعلا(٦)].وان

مغزى أية حاسة انما هو فكرة مركبة أو معقدة تضم في عناصرها:

١ - الفكرة العضوية أو فكرة العضو.
٢ - فكرة الأحساس بالشيء.
٣ - فكرة الشيء المحسوس.
٤ - فكرة النظام أو الترتيب التزامني لكل من [١،٢].
٥ - فكرة الترتيب التتابعي لما هو وارد في [٣](٧).

لم يكن مل متفقا في الرأي وما ذهب اليه من سبقه ممن قالوا بأن الأفكار دائما تكون اضعف من الاحساعات ، وان كان يعتقد بأن الحالة يمكن ان تكون اعتياديا على هذه الصورة . فبعض الأفكار تكون أضعف من بعضها الآخر ، انما هي مسألة ظرفية يعزى أمرها الى البعد النسبي الحاصل في الأحساس الأصلي بالنسبة للوضوح النسبي الصادر عن ذلك الأحساس نفسه . لكن الصعوبة كما كان يراها ، هي مقارنة الضوح النسبي للأحساسات الصادرة ، ويستثني من هذا حالات الشعور باللذة والالم (٨). ولعل ما توصل اليه على هذه الصورة من خلاصة يرجع الى خلطه بين التمييز او الوضوح وبين القوة الصادرة عما هو محسوس.

ولعل رأي مل يتلخص في مقولته الذاهبة الى ان [أفكارنا انما تنبع من ، او تكمن في النظام الذي ينطوي على الاحساسات ، وهي استنساخات منه واليه مردها ومآلها.] وعنده ان هذا [هو القانون العام لترابط الافكار وهو تعبير يراد به تفسير نظام الأحداث والظواهر(٩)...] وقد اعتقد [مل] بأن ثمة درجات في الارتباطية

كما أن هناك درجات من الأحساسات ودرجات من الافكار . فهو يرى أن هناك ثلاثة شروط في تكيف الدرجات أو الحدود المميزة لأية ظاهرة . فهو يظن بأن ارتباطا يكون أقوى من سواه عندما تتوفر شروط منها:

١ - الثبات

٢ - اليقين

٣ - التكرار بيسر وسهولة(١٠).

ويخلص مل الى أسترعاء الأنتباه الى ترابط الأفكار المعقدة أو ما اسماه بـ[ألتركيب المضاعف] أو [الفكرة المزدوجة(١١).] وازدواجية الصور العقلية عنده يمكن أن تتخذ درجات متفاوتة من التعقيد. فالنظرية الأرتباطية اذن ترمق العقل أو الخبرة على انهما سلسلة متماسكة من الحالات العقلية متوحدة في مجاميع مترابطة ، شأنها شأن توحد وترابط الذرات في هذا الكون اذ تترابط دقائقه لتؤلف أشياء مادية ولتنتج احداثا ملموسة مادية . فالأرتباطية عند مل اذن يمكن وصفها بأنها ميكانيكية آلية.

أعتبر مل لفظه [المفاهيم] و [التصورات] أو الخيالات نماذج أو انماطا من الخبرة أبسط من مدلول الذاكرة التي اعتبرها عبارة عن فكرة(٢١) . وبهذا فهو يتفق وما ذهب اليه براون من قبل ، وان كان تحليله بتحليل هارتلي الصق . ففي حالة التذكر ، كما كتب يقول:

[...فأن العقل يجري مسرعا الى الماضي مخلفا وراءه مشاغل الحاضر ، ليلحق بلحظة الأدراك ... فيتجاوز ما يعترضه من حالات شعورية تستدعيها الحالات الأرتباطية ، وبهذا فأنه يحاول

جاهدا تعشيق النقاط المتماثلة الخاصة بما نريد تذكره بسرعة فائقة فيوحد بينها في بؤرة واحدة من مجال الشعور يطلق على هذه البؤره تعبير الذاكرة...(١٣)]. فوصفه هذا للذاكرة يمثل نزعته الميكانيكية نحو التفسير الارتباطى . واذا كان تحليله للوقائع العقلية وللأحداث السلوكية لا يتسم بلأقتناع في كثير من الاحيان ، فأنه رغم ذلك تحليل يتصف بالشمول والتنظيم خلال انتقاله فيه من موضوع سابق الى آخر لاحق(١٤ ، ١٥).

نأتي الآن الى جون ستيوارت مل [١٨٠٦ – ١٨٧٣]، وفي بحوثه نجد التجريبية قد بلغت أعلى مستواها ، كما كانت التجريبية الكلاسيكية قد وصلت على يد هيوم ذروتها قبل مل بمقدار قرن من الزمن . ففي علم النفس في رحلته عبر تلك القرون انا لنجد ما كتبه مل [الأبن] يأتي في المقدمة . ففى ماتركه من بحوث تتحد جميع ضروب التجريبية فتتوحد في اتساق تام(١٦). وبوسع المرء ان يلتمس اراء مل في كتابه : نظام المنطق [١٨٤٣]. وفى كتابه الآخر : استجلاء فلسفة السير ولين هاملتون [١٨٦٥] . فهو في كتابه المنطق لم يكتف بأستعمال لفظة العقل اطلاقا مجردا وانما اسماه تسمية صريحة واضحة وهي [علم النفس(١٧)].

ميز مل في بحثه عن [قوانين العقل] بين علم النفس وعلم الأخلاق . لكنهما يتحدان في النهاية لأنهما عن الانسان يصدران وبه يتصلان . فهو قد أكد على أن الخبرات الشعورية تستتلي بعضها بعضا بيد أن القوية منها تجتلب الضعيفة التابعة . وان الحالات العقلية الثانوية تستدعيها وتثيرها وتنبهها ما كان قد تحصل لدينا (١٨ ، ١٩ ، ٢٠) من انطباعات . ولذا فهو قد

استطاع صياغة قوانينه الثلاثة الخاصة بالعقل وهي :

١ - قانون التشابه

٢ - قانون التجاور

٣ - قانون الشدة(٢١).

وعند مل ان قوانين علم النفس ، شأنها في هذا شأن العلوم الطبيعية عامة ، تنطوى(٢٢) على انماط شتى من الضوابط . لعل ابرزها نمطان هما قوانين الظواهر العقلية احيانا تماثل الجوانب (٢٣)الميكانيكية ، واطوارا(٢٤) تضارع الخصائص الكيمياوية.

وهذا يوضح لنا ان نظامه النفسي وتحليله لعلم النفس مهما بدا احيانا معقدا او يظهر منطويا على فجوات ، فأنه لا يخلو من تساوق في الأفكار واتساق في الآراء اذا ما نظر اليـه ككل وليس بصورة(٢٥ ، ٢٦، ٢٧) مجزأة . وان تحليله للجوانب الشعورية قد فتح كوة نظر من خلالها أولئك الذين تلوه في تكملة مسيرة المعرفة العلمية في مخارف علم النفس.

٢ - الكسندر باين

ولعل ابرز الذين التقطوا آراء مل وأضافوا اليها هو الكسندر باين (١٨١٨ - ١٩٠٣). اذ يعتبر واحدا ممن استهلوا فصلا جديدا في سفر علم النفس الواسع(٢٨) . ولعل ذكر لفظة (فصل) ولم نذكر كلمة (كتاب) في هذا المجال تجعلنا منصفين لمن سبقوه . فهو قد اعترف بجهودهم وكيف بها تأثر . وبوصفه نفسانيا قد خاض بجد

في خضم هذا العلم فأنه من حيث الدور العلمي في هذا المجال يقف بين الفلسفة العقلية التي سادت في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وبين مرحلة جديدة يمثلها علم النفس بمظهره العلمي في القرن العشرين هذا . فهو يمثل عهدا انتقاليا في رحلة علم النفس اذ هو قد ابتعد بعض الشيء عن النزعتين المثلتين للمذهب الفكري القديم والمذهب الأرتباطي القديم وتحول الى ميدان علم النفس القائم على النشاط والمبني على التفسير(٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠)الغرضي.

كان باين من المتأثرين بجون ستيوارت مل ومن ابرز طلابه وما من باحث آنذاك الا وكان متأثرا بنثام او كولبرج . وهكذا امتدت السلسلة في حلقاتها موصولة في نظام المعرفة الفكرية يومذاك(٣١) . فكولبرج (١٧٧٢ – ١٨٤) ، الشاعر الرومانتيكي المعروف ، كان مجددا في الشعر وكان الى جانب هذا فيلسوفا ، وقد وجه تفكيره العميق الشامل صوب تصوير الحياة وتقريب مفاهيمها من اذهان الناس في مجتمعه . وقد جرب حظه في فهم علم النفس عن طريق الفلسفة . اذ هو اعرض عن الأرتباطية الآلية ، واستبدل بها نشاط العقل ودور الوجدان . وكان شديد الأهتمام بقوى التصور والتخيل وابتعد عن المبادئ الأرتباطية السلبية التي وصفها بأنها (اوهام). وأعتبر الفصل بين علم النفس والفسلجة عملا يؤدي الى اندثار الاول منهما فيفضي الى حرمانه من اصوله ومن الحقائق الموضوعية ، ويحيل الثاني منهما مجرد تصفيف لحقائق تتعلق بظواهر لا تمس مسا مباشرا جوهر حياة الأنسان (٣٢). وما الغرض من ش: التعريج الا اظهارا لما تأثر به باين (٣٣ ،٣٤١)دون ان يدرك هو مدى هذا التأثير عليه.

فهو في كتابيه : الحواس والفكر (١٨٥٥) و الأنفعالات والأرادة (١٨٥٩) ، قد جمع معظم عناصر علم النفس . فهذان الكتابان وان جاءا منفصلين فهما يمثلان وحدة فكرية حول موضوع واحد وهو علم النفس(٣٥). ولقد ميز باين بين ثلاثة أضرب من الظواهر العقلية هي :

١ - الوجدان وما يدخل في رحابه من الم ولذة ومعاناة.

٢ - الارادة وما تنطوي عليه من ضروب الدفع والحض والحث على العمل.

٣ - الفكر أو العقل وما يضم من قوة(٣٦) تعرفية.

وينطوي على وظائف الذاكرة والاستدلال والحكم ، والتصور والتخيل . فهو يشتمل على ثلاث حقائق هي :

أ - التمييز

ب - المماثلة أو معنى الأتفاق

ج - الحفظ (٣٧)او الاحتفاظ

ويذكر باين بأن ثمة أربعة قوانين مهمة من الوجهة النفسية :

١ - قانون التصاقب أو التقارب أو التحادد.

٢ - قانون الاتفاق.

٣ - قانون الترابط المركب وينص على أن النشاطات والاحساسات والأنفعالات والافكار تتداعى بصورة أسهل عندما تكون متقاربة أو متماثلة.

٤ - قانون التخيل أو التصور(٣٨ ، ٣٩)البناء ، ويقول باين فيه بأن للعقل عن طريق الارتباط قوة لتجميع حقائق وتأليف

مكونات تختلف عن تلك التي عرضت له (٤٠)من خلال الخبرة . وان العملية العقلية التي تتم على هذا النحو يطلق عليها التصور ، التخيل ، الأبداع ، البناء ، الأصالة أو الأختراع فهي عملية يوحد العقل بين اشكال وضروب عناصرها فيضمها سوية لتكون الحصيلة التصور العقلى . وهذا ما يؤكد عملية علم النفس الحديث اذ يرى التصور استرجاع لخبرة محسوسة في الغالب بحيث تبدو وكأنها ماثلة امام عين العقل . وان كان الناس يتفاوتون فيها من حيث القوة والوضوح والثبات والنوعية والنسبة الى الحاسة التي تأثرت أكثر من غيرها بالمحسوس الذي نقلت عنه (٤١ ، ٤٢)الخبرة.

يختلف باين عن مل في انه ميز بين الذات والموضوع فهو يرى أن هذين الجانبين ينفصلان في رحاب الخبرة بفعل ثلاثة معايير مستقلة هي :

١ - ان الأشياء الموضوعية تتصف بالحركة والنشاط تمييزا لهذا الجانب عن الحركة السلبية او غير الظاهرة

٢ - ثمة الأحاسيس أو المشاعر التي ترتبط بالحركات فتميز المشاعر التي لا تقترن بأي نشاط.

٣ - هناك خبرة عامة تتصل بكل شيء وبكل موضوع وهذا يميزها عن الخبرة التي تلتصق بالذات فحسب فلا تبدو أثارها منعكسة (٤٣ ، ٤٤) على الواقع أو على البيئة.

ولعل ابرز النقاط في سيكولوجية باين هي:

١ - توضيح العلاقة بين الخبرة والدافع الذي يؤدي اليها متأثرا

بالمنبهات البيئية.

٢ – تمييز حقائق العناصر الفكرية التي تعتبر منبعا مستمدا منالخبرة

٣ – احياء الأنطباعات التي تأثرت منذ ابداية بالمنبهات ، فتنشأ عن تلك الأنطباعات الأفكار بوصفها حقائق يتم تفسير فسلجيا فيبدو ذلك جليا فيما يأتيه الفرد وما يصدر عنه من آثار نفسية.

٤ – التوافق النفسي والبيئي.

٥ – ترجع الأنفعالات اساسا الى أحاسيس بدائية في طبيعتها والى دوافع حركية آلية.

٦ – تتأصل حقائق الشعور في بنية الفرد وتكوينه.

يتضح لنا مما تقدم بأنه من الموضوعات الأساسية في منهجية المدرسة الأرتباطية اللذة والألم . وكذلك أولت هذه المدرسة على امتدادها الزمني الموصول عناية خاصة الى طبيعة الأنفعالات وما تحدثه من آثار في حياة الفرد اليومية(٤٥ ، ٤٦). وقد ميزوا بين ضربين من ضروب الانفعالات :

أ – الأنفعالات البسيطة

ب – الانفعالات المركبة

وان جميع انواع مظاهر المشاعر الأخلاقية نجدها متضمنة في الضرب الثاني (ب) فمنهم مثلا ، وبخاصة القدامى من بينهم ، من استخدم لفظة (هوى) PASSION ، وكان يريد بها اكثر من معنى مثل : الغريزة ، الرغبة ، الأنفعال وسوى ذلك .فلفظة (هوى)

استعملها باحثون مختلفون ليعنوا بها معان مختلفة ولتنطوي على مدلولات متباينة.

وكان يرى الأرتباطيون ان الارادة : متأصلة في نشاط الفرد ككل وممتدة في مختلف جوانب حياته ، وكانوا يرون كذلك بأنها قد تبزغ من هوى الأنسان ونزعته . وعندهم أن الحقائق الأختيارية والارادية خاضعة لقانون السببيةالشامل. فالارتباطية(٤٧) من أي نوع كانت تعد أقدم نظرية في علم النفس ، منها نبع واليها ارتكز . وان الارتباطيين جاهدوا ، من خلال مناقشاتهم وكل في مجال أهتمامه ، في التوفيق بين جانبين اساسيين من جوانب الحياة هما:

١ - الشكل أو الصورة أو البنية.

٢ - المادة بعناصرها المتفاوتة . أو

أ - النشاط

ب - المحتوى وما ينطوي عليه من جوهر حسب التعبيير النفسي. وحاولت الأرتباطية عبر رحلتها الفلسفية والعلمية والنفسية العلمية ان تدلل على ان الافكار المتكونة والمتجمعة بالخبرة تلتقي فتتوحد طبقا لقوانين ثابتة ، وليس بصورة عفوية عشوائية كما قد يظن.

٣ – مراجع الفصل الثانى REFERENCES

(1) (1) G. Murphy, Historical Introduction to Modern Psychology, op. cit, pp. 162 - 4.

(2) R. Metz, A hundred Years Of British Philosophy, p.p. 47 - 93.

(111) Brett's History Of Psychology, op. cit. pp. 633 FF.

(2)(1) L.S. Hearnshaw, A Short History Of British Psychology, London, Methven (1964), op. cit. P. 4.

(11) R. Metz, op. cit. p. 57

(3) L.S. Hearnshaw, op. cit p. 2

(4) (1) J.T. Merz, History Of European Thought in the XIX th Century, Vol. 3. P. 202.

11) R. Metz. Op. Cit. P. 59

111) L.S. Hearnshaw, op. cit, pp. 2-4.

(5) The Analysis Of the Mind, Ch.2, p. 52.

(6) Ibid, Ch. 1. Sect. 3, pp 21 - 22.

(7) Ibid, P. 19

(8) Op. cit. ch. 3. pp. 84 , 85

(9) Ibid, P. 78

(10) Ibid, P. 82

(11) Ibid, p. 115

(12) Ch. 10, P. 321

(13) Ibid, P. 331

(14) Vol. 11, ch. 15, p. 178

(15) Ibid, Ch. 19, P. 190

(16) (1) R. Metz, op. cit. pp. 62FF.
(11) G. Murphy, Historical Introduction to Psychology, op. cit. p. 104.
(111) Brett's History of Psychology, op. cit. pp. 633 - 641
(17) (1) John Stuart Mill, System of Logic, London, Longman's (1884) Book 4 - Ch. 4.
(11) See also LL.. Hearnshaw, op. cit. p. 3
(18) System of Logic, Book V1. Ch. V
(19)Op. cit. Sect. 3
(20) Ibid,
(21) Ibid. Here it must be noticed that in a note to the Analysis , J.S. Mill rejects the Law of Contrast absolutely. See Vol 1, P. 126.
(22) Examination Of Sir William Hamilton Philosophy (1865), Vol 1, Ch. 11, P. 235.
(23) Ibid
(24) Ibid, Vol. 1, P. 317
(25) System of Logic, op Cit, Sec. 3.
(26) Ibid
(27) Ibid
(28) L.S. Hearnshaw, op. ....

(29) L.S. Hearnshaw, op. cit. p. 9
(30) Ibid
(31) Ibid, p.6
(32) (1)Ibid , P. 6
(11) See also: R. Metz, op. cit. pp. 74 - 76

(111) S.T. Coleridge, The Philosophical Lectures, A Series of Lectures beginning December 14, 1818, to March 29, 1819, ed. by Kathleen Coburn, (1949) London. See especially Lectures X1, X11, and X111.

(1v) S.T. Coleridge, Biographia Literaria (1817) a Reprint (1905) Particularly chaps. 5, 6, 7, and 8

(V) Confession of an Inquiring Spirit reprint (1849)

(V1) For Further reading see also J.B. Beer, Coleridge: The Visionary (1959), London

(33) L.S. Hearnshaw, op. cit. pp. 7 - 8.

(34) Ibid, p. 8

(35) The Senses and the Intellect, Introduction, ch. 1. Sec. 2

(36) Ibid, Sec. 3

(37) Ibid,

(38) Ibid, Sect. 6

(39) Ibid, ch. 1. Sec. 2 Sect. 1

(42) Ibid. ch. 4, Sect. 1

(43) The Emotions and The Will

(44) Ibid , ch. 1 Sect. 2

(45) G. Murphy, op. cit. pp. 102 - 104.

(46) A short History of British Psychology op. cit. p. 14

(47) (1) Bradley, F.H. Association and Thought Mind, vol. X11, No. 46, (1887), P. 361.

(11) Bain, A. The Same Vol. (On Association) pp. 161FF

(111) Brett's (Associationism and Act Psychology)

Psychology of 1930, ed. by Carl Hutchinson, Worcester, Mass, Clark University.

الفصل الثالث

نشأة علم النفس المقارن وتطوره

١ - مفاهيم التطور والتفكير العلمي قبل دارون

ان مفهوم التطور قد تأثل ورسخت منه القدم على نحو جيد منذ ان نشرتشارلس دارون (١٨٠٩ - ١٨٨٢) كتابه : أصل الانواع عام ١٨٥٩. فلنظرية دارون ، التي يعتبرها بعض الباحثين فاتحة عهد جديد في ميدان التطور العلمي ، تطبيقاتها المهمة في علم النفس الحديث. على أن التأملات التطورية النشوئية هذه متأصلة من غير شك في تاريخ الفلسفة. وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر أصبح لهذه التأملات ما يدعمها من الشواهد النابعة من صميم نظرية(١) دارون. فالحركة النشوئية التطورية ، كما كان يراها دارون ، تعتبر [بزغة تجديد حديثة] تمتد جذورها في نفس [مغارس النزعة التجريبية القديمة].

ومن حيث المنطلق فأن فكرة التطور تبتدئ من المجال الفلسفي .وقد قال بشذرات فلسفية منها هربرت سبنسر الذي كان يكتب وكأنه يتوقع ما سيقوله دارون من بعده. اما من ناحيتها العلمية فأن حركة التطور ترجع الى دارون و(الفريد رسل والاس). ففي بحث مشترك نشراه عام ١٨٥٨ بدها دنيا علوم الحياة باعلامهما عن تكيف الانواع عن طريق الانتخاب الطبيعي. ولعل الطريف في الأمر هو ان ما حصل من التحام بين الفلسفة والبيولوجي يشبه الى حد بعيد ما كان قد حدث أيام ديكارت ونيوتن من التئام بين الرياضيات والفيرياء. فالفلاسفة قد استحسنوا واستخدموا نتائج العلوم المحددة ، وان المتخصصين في العلوم قد

تخطوا حدود بحوثهم الى مفاوز الاستنتاجات الفلسفية العامة والصورة كما يصورها [ميتز] هى [ان قوى التطور تسير وكانها منطلقة باتجاهين او بصفين متوازيين ، كانا اول الامر منفصلين ، ثم اصبحا فيما بعد متحدين.(٣)] وقبل تأمل ما تركه دارون من تأثير بارز على علم النفس الحاضر، فانه ليجدر التساؤل عما يراد بالتطور وكيف اصبح مؤثرا في مجال الحياة بوجه عام؟

وكان لامارك (١٧٤٤ - ١٨٢٩) من قبل ، سابقا لنظرية دارون، قد حاول البرهنة على أن الحيوانات كافة كانت قد تحدرت أصلا عن اصناف او انواع أخرى مختلفة من الحيوانات . وكان قد ارجع اختلاف الحيوانات وما بينها من تفاوت وما طرأ عليها من تغيرات الى ما تعرضت له من تقلبات في حياتها ، منها مثلا الظروف المناخية وتفاوت اصناف الطعام. كما عزا في الوقت ذاته ما حصل من تبدلات الى رغبة تلك الحيوانات في تطور ذواتها وتحسين ظروفها وتكييف حجومها واشكالها. ويبدو أن لامارك بتفكيره هذا كان مأخوذا بتأثير قانون فسلجي يقول ان جميع اعضاء الكائن الحي تشتد وتقوى او تضعف فتتهاوى تبعا لمقدار استخدام تلك الاعضاء أو اهمالها واغفالها . ورغم ما حققته هذه الفكرة من استهواء لبعض الباحثين فأنها لم تلق قبولا مرضيا من لدن جمهرة المختصين بعلوم الطبيعة . كما أن فكرة لامارك القائلة بأن الخصائص المكتسبة تنتقل (٤) من جيل الى آخر قد قوبلت بالتشكيك فيها . ولعل ابرز ضعف في رأي لامارك هو ان اراءه تلك كانت مجرد حدس وتخمين وافتراضات ينقصها الدعم العلمي القائم على شواهد من الحقائق الملموسة . يضاف الى هذا ، فأن

كثيرا من الدراسات التجريبية اللاحقة ، كتلك التي اجراها مكدوجل مثلا ، لم تنتج من النتائج المرضية ما يوافق كثيرا مما ذهب اليه لامارك.

ومع هذا كله ، فأننا لنقرأ في مقدمة كتاب أصل الانواع (١٨٥٩) ، ما كتبه دارون عن لامارك بأنه : (اسدى خدمة علمية بارزة وذلك باسترعاء الانتباه الى أن احتمال ما يحصل من تغيرات في الحياة العضوية واللا عضوية انما يكون مردها الى قانون محدد ولا ينتظر ان تطرأ عرضا أو اتفاقا) على أن هذا الثناء لم يمنع دارون من ان يستخف بفكره لامارك القائلة ان تطور الكائنات العضوية يعزى الى حاجاتها النابعة من احاسيس ومشاعر داخلية ذاتية . لان لامارك بهذا الضرب من التفكير يكون قد استثنى من حسابه مملكة النبات .

وكان يدور نقاش وقتها، وبخاصة فيما ضمنه (روبرت تشمبرز) كتابه: منابع التكوين Vestiges Of Creation (١٨٤٤) ، بأن جميع الانواع من المخلوقات ، الحيوانات منها والنباتات ، كانت توالت متعاقبة بانتظام بعضها من بعض بفعل قوانين من التطور مجهولة ، ساعدت بعض الظروف الخارجية تلك القوانين . لكن هذا الرأي ضئيل التأثير على المهتمين بشئون الطبيعة(٥) . وقد سبق ارازموس دارون (١٧٣١ - ١٨٠٢) كلا من لامارك وتشمبرز ببعض الاراء القائلة بالتطور كما كان قد نكر(٦) من قبل.

ويذهب (الفريد والاس رسل)، وهو من مقترحي نظرية الانتخاب الطبيعي ، الى أن ثمة(٧) نزعة في الطبيعة الى استمرار

التقدم والاستطراد بأتجاه تنمية اصناف معينة من المخلوقات وابتداعها من انماط أصلية. وعنده ان التقدم هذا يخضع على نحو دقيق الى خطوات محددة تسير بأتجاهات متفاوتة. بينما نجد الأمر يختلف عند لويد مورغان في هذا القرن، اذ يرى ان الخطوات(٨) هذه تتم على صورة فقرات أو خطوات فسيحة ، وان كل خطوة تكون متبوعة بخصائص وصفات تجدد الهوية التي تبزغ فتبرز الى الوجود دون أن تفقد سابق سماتها وخصائصها. وهذا الاضطراد الذى ينبع نظام الخطوات في منحاه قد اطلق عليه مورغان فيما بعد [التطور الانبثاقي] Emergent Evolution . وقد ميز [هـ . أس . جيننكز)، الذي يرى بأن التطور عملية مفتوحة(٩)، ميز بين التطور الآلي الميكانيكي والآخر الأنبثاقي. فالاول منهما انما هو محسوب منذ البداية. وان كل ما هو عقلي فلا أثر له في مجرى احداث هذا التطور. اذ أن الاشياء العقلية لا دور لها في عمليات الكون ولا في احداث التطور . وينص مبدأ التطور الانبثاقي على ان الخصائص الجديدة وضروب النشاط انما تتجلى عندما تكون الخطوات سائرة من الذرات الى الجزيئات، ومن الجزيئات البسيطة والأخرى المعقدة ، ومن اللاعضويات الى العضويات . كما يذهب هذا القانون الى أن خصائص الاشياء الحية انما تعتمد على مكوناتها الفيزياوية والكيماوية وان نشاط الكائنات المفكرة انما هو نشاط المكونات الفسيولوجية عندما تكون المكونات هذه جزء من المخلوق المفكر نفسه ، كما أن نشاط المجتمعات وفعالياتها انما هي انشطة وحدة افرادها في حالة كون اولئك الافراد جزء من ذلك المجتمع ومن اعضائه.

وبالنسبة الى نظرية [هنرى سيدجويك] التي جاء بها عام ١٨٧٦ فأن التطور مقتصر على نشوء(١٠) محدد. ولعله بنظريته هذه يشير الى ما كان قد نكره سبنسرمن أنه ينبغي ان يكون هناك اختيار بين فرضيتين - فرضية النشوء الخاص وفرضية التطور. على ان اهتمام سيدجويك بنظريته التطور كان مبنيا على المنحى الاخلاقي . ونجد عقب هذا بأن [وليم مورتن ويلر] يعتبر التطور مرتبطا بالحياة العقلية(١١) وبما يهم العقل ككل ، وقد ورد هذا لدى مناقشته ما كان سائدا في مطلع هذا القرن(١٩٢٧). وكنلك أرتأى كل من مكدوجل و[ليستر وارد(١٢)]. واننا لنجد من خلال تتبع نظرية التطور ، أن ثمة اسماء شتى لها قد اقترحها باحثون مختلفون فهي عند لويد مورغان[التطور الانبثاقي] وهي [المذهب الطبيعي التطوري] عند ر.و.سيلرز ، وهي لدى سبولدنج [التركيب التكويني]، وهي بالنسبة لدى س.د. لورد[الحيوية المنبثقة] ، وهي لدى جي. هندرسون(١٣، ١٤، ١٥) [المذهب العضوى].

ان ضروب التأكيد المنكورة هذه قد قربت المفاهيم وادنتها من معانيها وجعلتها مألوفة ، وجعلت فكرة التفاوت التلقائي عند الحيوانات والنباتات قريبة من افهام الذين كانوا لا يدركون مغزاها من قبل . وهذه الظاهرة لها ايضا مكانتها في علم النفس ، فهى متضمنة في النظام الفكري أو العقلي ، وفي النظام الانفعالي ، وفي نظام النشاط ، وكلها من المسميات النفسية في القرن العشرين (١٦) هذا (١٩٢٣). وكان كل من دارون وسبنسرقد صاغا مبدأي [بقاء الاصلح] و [الأنتخاب الطبيعي] ، وهما مبدآن أقرهما

معهما (١٧ ، ١٨) كثيرون . وفي الوقت الذي كانت فيه الداروينية تلوح في الافاق ، بزغت الداروينية الجديدة التي استهدفت اقصاء المذهب اللاماركى . ومما تمسكت به الداروينية الجديدة قولها بأن قانون الانتخاب الطبيعي وحده أو مبدأ بقاء الاصلح بمفرده يعتبر المبدأ الوحيد في التطور العضوي. والمدرسة الجديدة هذه والتي كان يتزعمها [اوجست فايسمن] لم تدع مجالا لنشاط وعمل الغرض المستنير(١٩) والمقصد الذكي. ولعل هذا كان من دواعي اختلاف وجهة نظر مكدوجل اختلافا كليا عما ذهبوا اليه . على ان الداروينية الجديدة هذه والداروينية الاصلية قلما تختلفان على ما مر من حقائق تم بحثها.

٢ - الداروينية وتأثيرها على دراسات علم النفس المقارن

كان قد تم التوصل الى مفاهيم التطور نتيجة لما قام به دارون من ملاحظات وبحوث في العلوم الطبيعية . وأضخم ما اجراه من انجاز هو تجميعه لمزيد من الشواهد كلها تبرهن على ان عالم الاحياء انما يرجع الى نظام واحد من الوجود . واطلق على هذا الوجود اسم [الطبيعة(٢٠)] . وعنده أن ما هو كائن من حيوان ونبات انما نشأ نتيجة للانتقال من ضروب من الكائنات سابقة . وأن أصل الانسان انما يخضع لهذا القانون(٢١) فهو يذكر قائلا : [حالما أصبحت مقتنعا بين عامي ١٨٣٧ - ١٨٣٨ ، بأن الأنواع مخلوقات متحولة وقابلة للتغير ، فلم يسعنى اجتناب الاعتقاد بأن الانسان يخضع لنفس القانون.(٢٢)] وهذا يوضح

ان الكائنات الحية وليدة التطور الطبيعي ، وان قانون الانتخاب الطبيعي عنده اهم عوامل التغير. وان مفهوم التطور قبل دارون كان مجرد [تأملات عشوائية] كما وصفهـا(٢٣) مكدوجـل. ومحاولة دارون تجلت في نزعته الرامية الى تفسير كلية الاشياء الى ما اصبحت عليه. ويرجع نجاحه الى اضفاء التعليل العلمي على العملية بجملتها. ولعل هذا ما جعل التطورية والدارونية يقترنان معا ويستعملان بصورة (٢٤) مترادفة. والاهم من هذا كله هو [ان دارون كان قد كتب بلغة العلم في وقت اصبح العالم مستعدا لتقبل هذا المنحى الذى بات يحدد المفاهيم العلمية بأطر خارج نطاق اللغة الفلسفية العامة . ويحتمل ان مما اكسب نظرية دارون تقبلا هو لارتباطها بمحسوسات الانسان ومشاهداته(٢٥)] كما قال س. هـ. واننجتون الذي أقتبس قول جي . جي . سمبسون الذي يذكر فيه [ما اغبانا اذ لم نفكر بهذا من قبل].

ان العنوان الذي اختاره لكتابه اصل الانواع كان كالتالي : [اصل الانواع بواسطة الانتخاب الطبيعي والحفاظ على الاجناس الصالحة بالتناحر من أجل الحياة (١٨٥٩)] ، وان السياق الذي صيغت به نظرية التطور كان سياقا يعتمد على مبدأ استمرار الانواع . ويتمثل جهده في تجميع مادة ضخمة من الشواهد والحقائق العلمية لم تنسب لاحد قبله . وان اسهامه يتجلى في اقتراحه العلمي القائل بالتغيرات وفق قوانين حددها. ولقد وجد دارون ادلة واشارات استبانها في كتابات توماس ر. مالتس (١٧٦٦ - ١٨٣٤) الخاصة بالسكان وطريقة تكاثره. وبعد ان صاغ دارون نظريته فسرعان ما تلقفها [ت . هـ . هكسلى ١٨٢٥

– ١٨٩٥) وسواه من المختصين بعلوم الحياة البارزين(٢٦).

ومكث دارون يكرر القول بأن ثمة في حياة الكائن الحي عنصرين بارزين هما : طبيعة الكائن نفسه ، وطبيعة الظروف المحيطة به . والاولى أظهر من الثانية وأشد. وكل كائن حي يسعى جاهدا ليبلغ اسمى ما تسمح له به طبيعته وطاقته وتكوينه وتكثير اعداد (٢٧) نوعه . وجد هناك من اعترض على تعبير [الانتخاب الطبيعي(٢٨)] وان كان دارون اكثره بل فضله على تعبير [مبدأ حفظ الحياة أو ديمومة الحياة] ، وما التفضيل هذا الآ من أجل الايجاز وابتغاء الاختصار(٢٩). وكان دارون يؤكد بأن الكائنات قد تم تكوينها على اساس من مبدئين رئيسين أو قانونين اساسيين هما :[وحدة النمط أو النوع] و[ظروف الوجود أو الكينونة]. واراد دارون بوحدة النمط أو النوع توافق البنية الأساسية، في تكوين المخلوق وتناسق نشأته بحيث يتماثل هذا التكوين في افراد النوع الواحد . واراد بظروف الوجود ما يكون هناك من تكيف يطرأ عمى حياة المخلوقات ترفده كيفية تصرف الكائن الحي وما قد يحسن استعماله أو أهماله مما لدية من اعضاء . وقانون ظروف الوجود او الكينونة هذا بعده دارون ارقي ضروب القوانين.(٣٠) الأخرى.

فتأثير نظرية دارون على علم النفس يتضح مما ساقته من امثله حيه تتصل بحياة الكائنات وبسبل تكوينها. فهذه النظرية (٣١، ٣٢) كان لها من الأثر خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر (٣٣) مالأي عامل آخر من أثر في اتجاه علم النفس خلال بلورته فيما بعد وكما هو عليه اليوم. وقد تأكدت بهذا نزعته البيولوجية . اذ على اسس من الأتجاه الجديد في علم النفس أصبحت العمليات

العقلية تفسر على انها وظائف مهمتها التكيف الى ما يكتنف (٣٤ ، ٣٥) الفرد من عوامل . والعنصر المشترك بين نظرية دارون وعلم النفس يتمثل في انه لا ينبغي اعتبار الانسان منفصلا عن محيطه ، بل يجب النظر اليه ضمن اطار قوى مختلفة تؤثر فيه ويؤثر فيها ، فهي له منبهات وهو يصبح بدوره لها منبها.(٣٦)

ولدارون مساهمة في مجال سيكولوجية الطفولة تتجلى في طريقته الأولية التي اتبعها مع اطفاله. وفيها كان يمسح اخمص الطفل البالغ من العمر سبعة ايام ، بورقة فتبين رد الفعل الانعكاسي وما يصدر عن الرضيع من مختلفة ضروب الانشطة ومنها مثلا العطاس ، والتثاؤب ، والتمدد ، والصراخ ، ومص الأصابع ، والارتعاش ، وثنى اصابع القدم انعكاسيا شأن الطفل الكبير عندما يدغدغ. وتفسير هذه الانشطة عند دارون ان اكتمالها أو عدم اكتمالها انما يعزى الى الارادة كلما تقدم الانسان في الحياة ، وليس للعضلات دور كبير الا في النادر الأقل . فهو يذكر مثلا:

[يبدو لي هنا بأن مسحة من يد ناعمة دافئة على وجه الطفل تثير عنده الرغبة في الرضاع. ومثل هذا العمل يمكن اعتباره نشاطا غريزيا . اذ من المتعذر الاعتقاد بان الخبرة والارتباط الحاصل بين فمه وبين ثدي الأم هما العنصران المؤثران في هذا الضرب من السلوك وبخاصة في تلك المراحل المبكرة ..(٣٨)]

وأوضحت ملاحظات دارون بأن رغبات الطفل تصبح واضحة الدلالة مما يند عنه من صراخ غريزي يتحول فيما بعد فيتكيف لاشعوريا واختياريا الى سلوك يدل على كيفية الاتصال بالأخرين. ومن ثم يتكيف هذا النوع من السلوك الى تعابير تبدو على الوجه

وتعبر عنها الاطراف، ويرمز اليها بالاشارات ، ثم تتحول الى الفاظ يختارها بنفسه مقلدا بها الأخرين(٣٩). وان الطفل الرضيع يستطيع مبكرا فهم معاني احاسيس الاخرين ازاءه مستخلصا اياها مما يصدر عنهم من اشارات ومما يعبرون عنه من مشاعر متكررة.

واننا لنجد في كتاب : أصل الانسان والأنتخاب وعلاقتهما بالجنس(١٨٧١) لداروين تأكيد على التشابه بين العمليات العقلية عند الانسان والحيوان وهذا ما أدى فيما بعد الى التحدث عن التعلم عند الحيوان واجراء التجارب النفسية عليه في مختبرات علم النفس ومن ثم نقل نتائج التجريب هذه الى عالم الانسان . ففي فصول الكتاب الخاصة بمقارنة طاقات الانسان العقلية وطاقات الحيوانات الدنيا كان قد وضع الأساس الذي مهد السبل الى دراسة مجتمع الحيوان ومجتمع الانسان والعلاقة بين المجتمعين وبخاصة ما للغريزة من دور في سلوك الحيوان وتصرف الأنسان . وعند داروين جميع الحيوانات تشعر[الدهشة] وتعبر عن حب الاستطلاع وان مبدأ التقليد والمحاكاة عند الانسان أقوى ولاسيما لدي المتوحشين.(٤٠)

واقترح داروين في كتابه : التعبير الانفعالي عند الأنسان والحيوان (١٨٧٢) ، تفسيرا نشوئيا لما يصيب مظاهر السلوك من تغيرات وما يطرأ من خصائص على معظم الانفعالات التي تعتبر ظواهر سلوكية تنم على ما وراءها من دوافع . ولقد سمى ثلاثة مبادئ عدها اساسية فيما يحصل من تعابير لا ارادية وحركات اضطرارية تطفو على مظهر الأنسان والحيوان وتلك هي :

١ - مبدأ العادات المترابطة النافعة ، وفحـواه أن بعض النشاطات المركبة ذات منفعة مباشرة أو غير مباشرة ، تحت ظروف معينة ، غايتها تخصيص أزمة العقل أو اشباع أو ارضاء بعض الرغبات.

٢ - مبدأ التناقص : ويذهب الى بعض الحالات العقلية تفضي الى بعض الأنشطة التصورية ذات الجدوي للفرد ، على أن تكون مسايرة لما ورد في المبدأ الاول.

٣ - مبدأ الفعاليات والانشطة الناجمة عن طبيعة تكوين الجهاز العصبي، مستقلا عن الارادة واحكام العادة(٤١).

وبكتابيه الآنفين مع : [مجمل سيرة طفل] ، يكون دارون قد ارسي قواعد نفسية اقامها على اسس بيولوجية مع التأكيد على اهمية العوامل العقلية في النشوء. وبهذا فأن عناصرمنحاه العلمي - وهي الانتخاب الطبيعي ، وبقاء الاصلح، والتكيف للبئية ووراثة الخصائص الغميدة ، وسواها - قد كونت بمجموعها صورة أخاذة حددت معالم أصل التطور للكائنات الحية كافة . فدارون كما قال عنه هارنشو في اواخر الستينات من القرن العشرين هذا :

[قد تجاوز حقا ابعاد علم النفس المقارن فهو قد اتاح معرفة بكيفية التعرف على طبيعة العقل ، ووصفه بأنه وظيفي وديناميي ، وأنه منشغل بأهتمام بالجد من أجل البقاء وانه - العقل ايضا - مهتم بعملية التكيف الى البيئة ... وبهذا الجهد فأن دارون يكون قد فتح منافذ على تطور علم النفس الفارق(٤٢)].

ثمة باحث آخر أثر تأثيرا كبيرا في مجالات التطور والدراسات النفسية ذلك هو هربيرت سبنسر(١٨٢٠ - ١٩٠٣) وقد كتب عنه مكدوجل عام ١٩٢٣ يقول [الصورة المهجورة لهربرت سبنسر (٤٣)]. وان مثاله الأعلى عن المعرفة يتجلى في دعوته الى الوحدة الكاملة لنظام التفكير والعلم . وعنده ان المعرفة يجب ان تكون متواصلة ومستمرة ومنتظمة . وان العلم يتحفنا بمعرفة موحدة جزئيا ، وان الفلسفة معرفة متوحدة كاملة . وان النظام الكامل للكائنات العضوية يحدد لنفسه مشكلة يتوخي لها الحل ، اذ هي ترمي الى اكتشاف اسمي الحقائق من مصادر مختلفة تستقي منها المبادئ ام الميكانيكية والفيزياوية والبيولوجية والاجتماعية والاخلاقية . وان تكون هذه القضايا الفلسفية كافة متناسقة فيما بينها . ففي كتابه : الأصول الاولى (١٨٦٢ - ١٨٦٠) كان قد أرسى اسسا لمجموعة من المؤلفات اهمها :

[اصول البيولوجي (١٨٦٤ - ١٨٦٧) ، واصول علم النفس (١٨٧٠ - ١٨٧٢) ، واصول علم الاجتماع (١٨٧٦ - ١٨٩٦) ، واصول الاخلاق(١٨٧٩ - ١٨٩٣) . ويسمي سبنسر فلسفته [الفلسفة التركيبية] أو التوليفية ، ويريد بهذا توحيد اصول العلم في مجموعة متكاملة (٤٤). وان ما اكتسبه سبنسرمن شهرة خلال ايام حياته وبعدها يرجع الى معالجته عن طريق الفلسفة قضايا تمت بصلة مباشرة الى مجرى(٤٥)حياة المجتمع. وكأحد علماء التطور فقد كان مجليا في الميدان (٤٦،٤٧).

وقد أوضح سبنسر عدة مراحل في عملية التطور التي أثر في مسار علم النفس الارتباطي ، ومن هذه المراحل :

١ - مرحلة التركيز ، وهذه تكون تكونها اشبه بتكوين القيمة في السماء أو الكثيب على الارض.

٢ - مرحلة التمايز ، وفيها يتم التطور بالانعزال عن الكتلة ثم تكوين كتل خاصة ضمن الحجم الاصلي.

٣ - الاتجاه نحو الغاية ، ويتم هذا بتوحد الاجزاء في كل عام منتظم.

والاجزاء الثلاثة هذه ينظمها قانــون واحــد هو قانــون النشوء(٤٨). وان علم النفس النشوي ، كما بحثه سبنسر مبني اساسا على المضارعة البيولوجية . فهو حيوي - كيمياوي وفيزياوي ، وليس فيزياويا بحتا أو ميكانيا خالصا كما رآه جيمس مل (٤٩)وباين .

وقد حلل سبنسر مكونات العقل الى [احاسيس] والى [علاقات بين هذه الأحاسيس]. وأن الأحساس بالنسبة اليه لا يكون عنصرا من عناصر العقل بأيه (٥٠)حال من الاحوال. وعن طريق تأليف العلاقات والأفكار القائمة بين العلاقات ، ينشأ الذكاء وبتكوين الأحاسيس والعلاقات بين الأحاسيس والأفكار الناشئـة عن الأحاسيس ، تنشأ الأنفعالات(٥١). وان الارتباطات عند سبنسر تنطوي على مسألتين هما :

١ - الأرتباط بين المشاعر الوجدانية ، بنوعيها اللاحب والمغمى.

٢ - ارتباط في العلاقات بين الأحاسيس (٥٢). وان الشعور كما يراه مقسم الى صنفين هما الوجدان والتعرف . والاول منهما يتألف من:

١ - الأحاسيس المتجلية او المشاعر الظاهرة .

٢ الأحاسيس المتجلية - المتجلية وتنطوي على جزء كبير من الأنفعالات.

٣ - الأحاسيس الفكرية .

٤ - الأحاسيس المتكررة وتنطوي على العواطف(٥٣).

وان سبنسر يبتدئ بالفعل الأنعكاسي ويعتبره أوطأ ضروب الحياة النفسية . فهو بالنسبة اليه أقرب ما يكون أرتباطا بالحياة الفسلجية (٥٤). وأعلى من الفعلى المنعكس مرتبة هي الغرائز ، اذ تتضمن افعالا انعكاسية مركبة . وعنده ان الذاكرة تنشأ من جراء المنبهات المعقدة بحيث لا يسع الجهاز العصبي المركزي استيعاب جميع الانطباعات في نفس اللحظة وعلى التو(٥٥). فعلم كما جاء به سبنسر بعد حدثا سابقا بالنسبة الى سائر الدراسات النفسية . وهو يرى بأن علوم الحياة وعلم النفس وعلم الاجتماع ، كلها يرى بأن علوم الحياة وعلم النفس وعلم الاجتماع كلها تدلنا على الغاية المثلى لندرك من خلالها ما توجه اليه اعمال الانسان توجها اخلاقيا ، هذا من جهة ، وهي من جهة أخرى ، تجدد السبيل التي نبلغ بها تلك الغاية بأسمى درجات الامكان المستطاعة والمتاحة للانسان (٥٦،٥٧،٥٨) . وعنده أن السلوك انسجام الاعمال والغايات من غير تناقص أو تباين (٥٩).

ومن ممثلي مذهب النشوء البارزين بعد سبنسر ، يأتي جورج هنري لويس (١٨١٧ - ١٨٧٨) . فهو كان يجمع بين النزعتين الأدبية والفلسفية . وهو معروف جيدا في مجالي الفلسفة وعلم النفس . وقد ضمن مناقشاته النفسية جميع مؤلفاته وأهمها:

تاريخ السير الفلسفية [١٨٤٥ - ١٨٤٦].

وتاريخ الفلسفة بجزئين [١٨٨٠]

ونسلجة الحياة العامة [١٨٥٩ - ١٨٦٠]

وسلسلة من المجلدات اسماها :

مشكلات العقل والحياة [١٨٧٤ - ١٨٧٩].

وفى هذه السلسلة بالذات توفر لويس على مشكلات العقل وموضوعات علم النفس (٦٠،٦١)ونظامه. وقد شملت مناقشاته جوانب بيولوجية ونفسية وفلسفية . وان بحوثه كانت مفعمة بالأفكار والاراء ولكن كانت احيانا ينقصها التناسق والأستمرار(٦٢). وكان هو الذي صاغ تعبير [الميتافيزيقيا] أو ما وراء الطبيعة (٦٣)وان اراءه النفسية جديرة بأهتمام علم النفس الوراثي في عصرنا هذا(٦٤) بيد انصرافه الى الفلسفة اكثر من انصرافه الى علم النفس جعل مكانته(٦٥) في ميادين علم النفس اقل شأنا ، كما انه حاول أن يطرق عدة مجالات في آن واحد مما بدد جهوده(٦٦) فلم يستطيع التركيز فى اتجاه واحد. ولعله لم يكن مهتما اهتماما اكيدا فى مفاوز علم النفس وانما اتخذ التحدث عن هذا العلم من قبيل الهواية التي تأتي عرضا لدي حديثه عن الفلسفة(٦٧). ومع هذا فقد ترك بصماته الواضحة في مجرى الاتجاهات النفسية التي اتخذت لها منحى جديدا اختلف عما كان عليه من قبل.

فلويس ينكر بأن علم النفس انما هو علم الحياة العقلية وهذا العلم يتحرى تفسيرا ويلتمس له اسبابا في قوانين الفسلجة والفسلجة نفسها ينبغي ان تجد عونا مهما في الكيميا والفيزياء.

لكن هذا لا ينفي ان يكون لعلم النفس مجال بحثه الخاص وهو الانسان ككل(٦٩).

وان أسسه النفسية تأتي تحت عدة أصول منها :

١ - طبيعة الحياة والمبدأ الحيوي،

٢ - الشعور وما عسى ان يكون عليه،

٣ - النوم وسيكولوجيته،

٤ - الوراثه من الناحية النفسية.

وللشعور مكانة بارزة في علم النفس عنده . وقد تحدث بأسهاب عما اسماه [الادراك الكامن(٧٠)] وميز ضروبا شتى من الادراكات في السلم(٧١) التصاعدي الكائن في حيز الشعور(٧٢). وهو، وان أقرب الصلة بين علم النفس والفسلجة ، فقد وضح مدى استقلال كل منهما في طبيعة ما يتطرقان اليه من دراسا . فالنشاط الفسيولوجي ، كالدورة الدموية مثلا ، يختلف تماما عن النشاط النفسي كالاستدلال الاستنباطي . ولعل ابرز معالم علم النفس عند لويس هي :

١ - فهو حاول تأطير النشوء والتطور البيولوجي بمفاهيم خاصة به .

٢ - فهو قد صاغ مجاميع محددة من الوظائف الارتباطية الخاصة بالظواهر العقلية .

٣ - اوضح بأن الصور العقلية انما هي صورة متفردة ومحددة .

٤ - أكد على أن الافكار تتصف بأنها عامة ومجردة .

٥ - حدد بأن الصور العقلية تنطوي على الذاكرات والخيال وان الافكار تتضمن الاحكام العقلية والاستدلال(٧٣).

فعلم النفس عنده أذن يستهل بطريقة وينتهي بطريقة والنتيجة في كل حالة تفضي الى علم وضعي بعيد عن الميتافيزيقيا .

٣ – مراجع الفصل الثالث

1. (1) L.S. Hearnshaw, op. cit., p. 32.
   (11) E. Heidbreder, op. cit., pp. 105 - 106
   (111) Wm. McDougall, "Mental Evolution" in Evolution in the light of modern knowledge, London, (1925), pp. 321 - 322.
2. (1) R. Metz, op. cit. p. 95.
   (11) J.B.S. Haldane, The Causes of Evolution, London, Longman's (1932), pp. IFF.
   (111) J.C. Flugel, A Hundred Years of Psychology, op. cit. p. 113.
   (1V) Alfred Russell Wallace, Darwinism, London, Macmillan, (1889). pp. 3FF.
3. (1) Metz, R. op. cit. P. 95; See also
   (11) Merz, J. Th. History of European Thought in the XIX Century, London, Blackwood, (1896), Vol 3, P. 461.
4. (1) Wallace, A. R., Darwinism, op. cit. pp. 3 4.
   (11) Natural Selection and Tropical Nature, London, Macmillan (1870), pp. 31 - 32.
5. Wallace, A.R., Darwinism, op. cit. pp. 4 - 5.
6. (1) Hearnshaw, L.S. Op cit. p. 32.
   (11) Merz J. Th., Vol. 4, pp. 235, 515 ff
   (111) Smith , Sidney, Elementary Sketches of Moral Philosophy,

Lectures delivered at the Royal Institute in the

years 1804, 1805, 1806, London, Longmans, (1850),

7. Natural Selection, op. cit. p.33

8- (1) Conway Lloyd Morgan, "Emergent Evolution" Mind, N.S. Vol XXX1V, No. 133, January (1925), p. 71

(11) ,"Biology" Evolution in the light of modern Knowledge, A collective work, London, Black and Co., (1925), p. 108.

(111) ,Emergent Evolution, the Gifford Lectures, Vol. 1. London, Williams Norgate (1923), pp. 2 - 3.

9. The Biological Basis of Human Nature, London, Fabre and Fabre (1930), pp. 268, 361 - 363 - 371.

10. "The Theory of Evolution in its Application to Practice"

Mind, Vol 1, No. 1, January, (1876), p. 53. See also. F. Pollock, "Evolution and Ethics" Mind, vol 1. No. 3, (1876) p. 337.

11. "Emergent Evolution and the Social Factor'," Psyche Vol V11. No. 3, January, (1927) p. 28.

12."Mental Evolution" Evolution in the Light of modern Knowledge, op. cit. pp. 32 IFF.

13. (1) Mind vol 1X, No. 36, October, (1884), p. 563. see also:

(11) H.W. Carr and G. D Hicks in a symposium on "The Nature and Range of Evolution" in Aristotelian Society, Vol.11, No. 4 (1894) pp.

132 - 151

(111) G.H. Elliot Smith, "Anthropology" Presidential Address in Rep.Brit. Asso. (1912), pp. 575 - 598. in this paper Smith began his talk on evolution and the connotations this word involves.

14. Evolutionary Naturalism, Chicago and London, (1922)

15. The New Rationalism. N.y. (1918)

16. (1) William Morton Wheeler, op. cit. p. 28.

(11) Social Life among Insects, N.Y. (1923)

17. The Ribot, The Psychology of the Emotions, Eng. Trans. London, Walter Scott. (1897) p. 193.

18. (1) Harold Hoffding, Modern Philosophers London, Macmillan (1920) P. 229.

(11) J. Mark Baldwin, "Determinate Evolution" Psych. Rev. vol 1v. No. 4. July (1897) op. cit. p. 393.

(111) D.G. Ritchic, Darwin and Hegel" The Aristotelian Society, vol 1, No. 1 (1891) p. 57. For Further reading see J. Th. Merz, vol. 2. and ch. VI. of vol. 3 both op. cit.

19. Grene, Marjorie, "Two Evolutionary Theories" Part 1, The British Journal for the Philosophy of Science, vol 1X, (1958 - 9)

PP. 110 - 127.

See also: Discussions by different writers of the

paper above, the same journal vol XIV (1963 - 4), pp. 140 ff, 146 FF.

20. (1) McDougall, WM " Mental Evolution" in Evolution in the Light of Modern Knowledge, op. cit. pp. 327 - 8

(11) Weismann, August, Essays upon Heredity, Oxford, Clarendon Press, (1889), pp. 316 385.

21. See: Ritter, William Emerson, Charles Darwin and the Golden Rule, Washington, Science Services (1954) ch. 5

22. De Beer, Sir Gavin "Charles Darwin: Master Mind" Proc. Brit. Academy, vol XLIV, (1958), pp. (163 - 183)

23. Darwin, Francis, The Life and Letters of Charles Darwin Vols. (1898). New York, Appleton, Vol 1, pp. 75 FF.

24. An Outline of Psychology, London, Methuen, (1923), p. 129.

See also:

(1) Jenons , Frank B., Evolution, London, Methuen (1900), pp. 75FF.

(11) Rignano, Eugenio, Biological Memory, London, Kegan Paul, (1926), PP. 26 FF. 122 FF.

25. (1) Waddington, C.H. "Theories of Evolution" in A Century of Darwin, ed. by Barnett's A. London, Herman, (1958), p.1

(11) Murphy, G., op. cit., p11.

26. C.H. Waddington op. cit. pp. 1 -2, The Quotation Waddington has taken from Simpson's: The meaning of Evolution (1949).

27. (1) C.H. Waddington, op . cit. pp. 3 FF.

(11) A.R. Wallace, Darwinism, op. cit. pp. 1-2.

(111) ,Natural Selection, op. cit. chapter 11

(iv) Thomas H. Huxley, Lectures and Lay Sermons, London, Dent, (1910) last reprinted (1926), pp. 99 - 114.

(v) C.D. Darlington, in his introduction to the Origin of Species, pp. XV, XVI, XIX.

28. The Origin of Species, London, John Murray, (1859) Last reprint 1920. pp. 6 - 57.

29. Ibid, P. 58

30. Ibid, p. 111

31. Ibid, p. 156.

32. (1) The Origian of Species, Op. cit. pp. 300 FF

(11) The Athenaum, November, (1859) pp. 659 660. A note on "The Origin of Species".

(111) T.H. Huxley, "The Darwinian Hypothesis" in The Times," December 26, (1859)

33. The Athenaum, op cit. P. 660.

34. The Origin of Species, op. cit. ch. IV, pp 57 FF.

35. The Athenaum, op. cit, p. 659.

36. Heidbreder, E., op. cit. pp. 105 - 106.

37. Bretts' History of Psychology, or.cit. p. 638.
38. Charles Darwin, "A Biographical Sketch of an Infant" Mind Vol 11, No. 7 July, (1877) pp. 286 294.
39. Ibid, pp. 293 , 294.
40. (1)The Descent of Man and Selection in Relation to Sex (1971) last published in (1923), pp. 108, 110, 319, 371.
(11) C.M. Williams, Evolutional Ethics, London, (1893), pp. 2 - 12.
41. (1) Darwin, The Expression of Emotions in Man and Animals. (1872), p. 28, see also.
(11) Young, P.T. Emotion in Man and Animals, (1943).
42. A Short History of British Psychology, op. cit. p. 40
See also Thilly, History of Philosophy, op. cit. pp. 542 FF
43. An outline of Pyschology, (1923) op.cit. p. 29
44 (1) Thilly, op. cit. pp. 535 FF
(11) C.M. Williams, Evolutional Ethics, (1893), op. cit. pp. 28 FF.
45. (1) R. Metz, op. cit. pp. 98 FF
(11) C.M. Williams op. cit. pp. 48 FF.
(111) C.M. Warren, op. cit. pp. 121 FF.
46. L.S. Hearnshaw, op. cit. p. 40
47. (1) Ibid pp. 40 - 41
(11) Th. Ribot, English Psychology, op. cit. pp.

134 - 135.

48. Thilly, op. cit. p. 541

49. H.C. Warren, op. cit. p. 120

50. Herbert Spencer, The Principles of Psychology in 2 vol. (188)

51. Ibid, p. 104

52 (1) Ibid , p. 584 FF.

(11) See also Hoffding, vol 11 , op. cit. p. 462 FF.

53. (1) Ibid 3rd ed. pp. 104 - 5

(11) see also Hearnshaw, op. cit. pp. 43 - 44

(111) H.C. Warren , op. cit. 121 - 124

(IV) H. Spencer , " Comparative Psychology of Man"in Mind, Vol 1 No. 1 (1876)

54. First Principles of Psychology pp. 105, 108, 109.

55. Ibid pp. 108 - 109

56. op. cit. p. 45.

57. H. Spencer "Replies to Criticisms on The Data of Ethics" in Mind vol. VI No. 21. January, (1881) p. 83.

58. Henry Sidgwick, "Mr. Spencer" Ethical System" Mind, vol 5 No. 18 April (1880), P. 83.

59. Ibid p. 217

60. (1) H. Spencer, Principles of Psychology, pp. 504, 533, 539.

(11) L.S. Hearnshaw, op. cit. pp. 42 - 45.

(111) H.C. Warren . op. cit. pp. 168 - 173, 121 - 137.

(IV) Harold Hoffding, op. cit. pp. 452 FF vol 11
61. J.C. Flugel, op. cit. . P. 116.
62. (1) L.S. Hearnshaw, op. cit. p. 465
(11) R. Metz, op. cit. p. 120
(111) M.C. Warren, op. cit. pp. 137 - 8
63. R. Metz, op. cit. p. 120
64. L.S. Hearnshaw op. cit. p. 46.
65. H.C. Warren, p. 163.
66. L.S. Hearnshaw, op. cit. p. 46
67. (1) Ibid, p. 46
(11) R. Metz, pp. 120 FF.
68- Hearnshaw op cit, p. 46
69 - (1) G.H. Lewes, Physchology of Common Life (1859) pp. 2, 3
(11) The Study of Psychology, (1890) pp. 5, 158 FF
70- L.S. Hearnshaw, op. cit. pp. 48, 49
71. Th. Ribot, op. cit. p. 292.
72. (1) G.H. Lewes, "What is Sensation" Mind, vol 1 No. 2 (1876), p. 157.
(11) The Ribot, op. cit. pp. 296 FF.
(111) James Sully, The Human Mind, A Text book of Psychology, (1892) vol 1. p. 70.
(IV) Outline of Psychology (1898) p. 38.
73. (1) G.H. Lewes, Problems of Life and Mind, Vol 11 pp. 44 FF.
(11) Th Ribot, op. cit. pp. 301 FF
74. (1) Lewes G.H., "Biographical History of

Philosophy op. cit. P. 663.

(11) Warren C.H. Op. cit. pp 138 - 152 172 - 176.

(111) Hearnshaw, L.S. op. cit. pp. 51 - 53.

الفصل الرابع

باحثون مهدوا للدراسات النفسية وأثروا في مجراها

١ - معاصرون لدارون

أن الأهتمام بتطوير الحياة العقلية وارسائها في التفسير على أسس نشوئية قد استتلى الألتفات الى دراسة الحياة العقلية عند الحيوانات بوجه عام . وقد ارتبط هذا الالتفات بتوفر عميق على علم النفس بصورة عامة ، وبخاصة علم النفس المقارن. واحد المبرزين في هذا المجال كان جورج جون رومنيز(١٨٤٨ - ١٨٩٤) اذ كان واحدا من رواد هذا الأتجاه ، وقد تبعه في هذا اخرون كثيرون. وكان رومينز هذا من أكثر المهتمين بدراسة علم النفس انتظاما واهتماما في عصره. فكان يجرب وكان يجمع من الحقائق ما يدعم به مناقشاته. واجتهد في ان يجري [مسحا وتحديدا لعلم نفس الحيوان على نحو وصفي ونظري.(١)] وهو ، وان كان يوصف احيانا بأنه يسرد ما يعرض له من حالات بأسلوب قصصي مسهب، فهو كثيرا ما كان يقارن بمشاهير عصره من امثال دارون و ت . هـ . هكسلي ، وجي .هـ . لويس ، وسواهم من الباحثين اللامعين(٢).

ففي محاضرة بعنوان [ذكاء الحيوان] القاها رومينز عام ١٨٧٩، تحدث فيها عن ان الأهتمام بدراسة ذكاء الحيوان في تلك الأونة انما يرجع الى نظرية الأصل الشائعة يومذاك ، لأن النظرية هذه قد أماطت اللثام عن كثير من جوانب علم النفس المقارن وجعلته موضع اهتمام شأنه في هذا شأن علم التشريح المقارن ، فقد ارسيت قواعد العلمين على اسس جديدة تماما . فلم يعد ثمة مكان للقول بأن ما يصدر عن الحيوان من نشاط انمـــا يعزى

الى الغريزة وحدها ، والتخلص بالأدعاء بأن ما يصدر عن الحيوان من ضروب السلوك الأخرى انما هي تعز على التفسير . وان ما أصبح ملحا الآن هو التفسير العلمي للغريزة [وأصلها ، والأسباب التي ادت الى تطورها ، واستمراريتها ، ووصفها ، ووظائفها]. فلم يعد مقبولا الأ كتفاء بالقول بأن ما يبدو عند الحيوانات من مظاهر سلوكية انما هي مجموعة ظواهر خالية من أي مغزى علمي . فالتفسير اصبح ان كل ما يبديه حيوان ما من سلوك وثيق الصلة بسلوك حيوان أخر يسبقه في سلم التطور وبسلوك حيوان ثالث يليه في هذا السلم . فملاحظات رومينز تبدو آثارها في:

١ - التأكيد على المناقشات النشوئية بوجه عام.

٢ - الأهتمام المتصل بدراسة الأنسان والحيوان دراسة مقارنة.

٣ - التأكيد على ان الغرائز هي مصادر الطاقة السلوكية مع الفارق بأنها عند الأنسان موجهة بحكمة العقل.

من هذا يتبين بأنه كان هناك اتجاهان خاصان بتطور العقل : فدارون وأتباعه كانوا يرون بأن المخلوقات كافة انما هي نتيجة نشوء طبيعي . واذن فالعقل قد تطور تدريجيا من مخلوقات دنيا. ويذهب اتباع [والاس] في الرأى الى القول بأن عقل الأنسان ينفرد عن عقل سائر الحيوانات وهو نسيج وحده . وقد وقف رومينز من هذين الرأيين موقفا وسطا . فهو قد أقر بالرأي القائل أن عقل الأنسان فريد في بابه وفي تكوينه ، لكنه اشار في الوقت ذاته الى انه عقل تميز بمقدار ما بلغه من تطور(٤).

ولم ير رومينز مبررا للتمييز(٥) بين علم نفس الأنسان وعلم نفس الحيوان . لكنه لم ينف بأن الفرق واضح(٦) في عقلية

الأنسان والحيوان ، ويرجع الفرق هذا الى تكوين الأفكار والانتفاع من الخبرات عند الأنسان(٧). وقد ميز بين نوعين من الأفكار اسماها الأفكار الخاصة المحددة والأفكار العامة. وينطوي النمط الأول منها على [الأدراكات] ويتضمن النمط الثاني منها [المفاهيم(٨)] . ونزع الى تبيان أن التفكير الشعوري انما يتوفر على التجميع والتبويب . كما أنه صنف الأفكار الى اصناف متخصصة أكثر هي:

١ - افكار بسيطة ، أو افكار ذات ادراكات حسية خاصة.

٢ - افكار مجردة ، أو افكار ذات خصائص عامة ، وهذه قسمها رومينز الى اصناف اكثر تحديدا منها:

(أ) أفكار تمت نتيجة مشاعر وجدانية بسيطة وأحاسيس .

(ب) أفكار نشأت نتيجة لعلامات(٩) واشارات ملموسة خبرها الأنسان في حياته اليومية . والأفكار عنده ، بعد ، [وحدات سيكولوجية تجعل من البنية الكلية وحدة فكرية عقلية(١٠)]. ويذهب الى انه [في عقل الحيوان وفي عقل الرضعان نجد صورا محددة تمثل اشارات لأشياء في دنيا الواقع.(١١)] على أن عقل الحيوان وعقل الطفل الرضيع هنا لم يبلغان بعد درجة النضج بحيث يسمحان لنا بالأستبطان والتعرف على طبيعة محتوياتهما . وفي هذا دلالة ، كما يرى رومينز ، على ان ثمة اسسا مشتركة بين الحيوان والانسان وان تميز الأنسان بالرقي العقلي.

وقد جمع رومينز في كتابه : نكاء الحيوان (١٨٨٢) حقائق جمة تتعلق بسلوك العجماوات . وكان تأليفه لهذا الكتاب منطلقا من

اعتقاده بأن علم النفس المقارن مهم جدا كأهمية علم التشريح المقارن ، وان هناك علاقة(١٢) بين الانسان والحيوان . وحاول في كتابه : التطور العقلي عند الحيوانات (١٨٨٣) ان يوضح كيفية الأستمرارية الموصولة بين سائر ضروب الحيوانات. وأخرى بحوثا كثيرة تتصل بسلوك (قنديل البحر) و(نجم البحر) و (قنفذ البحر) ضمنها فيما بعد كتابا يحمل اسم المخلوقات الثلاثة (١٣)(١٨٨٥) ، مقيما افكاره على أن تكاثر المنبهات عملية طبيعية وهي بأهتمام علم النفس ألصق . وقد استكمل سلسلة تفكيره وبحوثه في كتابه : التطور العقلي عند الأنسان (١٨٨٨) مبينا اهمية النشوء في تدرج المخلوقات ، بيد أنه عزز من قيمة عقل الأنسان(١٤).

وكان من بين الذين تقبلوا فكرة التطور بحماس توماس هنري هكسلي(١٥) [١٨٢٥ - ١٨٩٥] الذي وصفه(١٦) الناقدون بأنه [وكيل دارون ونائبه] ووصفوه بأنه [حارس دارون الأمين] لما كان معروفا عن هكسلي من تقبله للأفكار النشوئية والدفاع(١٧) عنها.

فهو قد وصف دارون بأنه[نيوتن علوم(١٨)الحياة]. وقد تبنى هكسلي فى دراساته وفي مناقشاته فكرة [الغائية] Teleology وفهمها على الوجه التالي:

ان [أ] قد تكون أو نشأ ليؤدي وظيفة محددة أو ليقوم بغرضي Purpose وهو [ب].

اذن فأن المخلوق [أ] هذا قد خلق ليقوم بتنفيذ تلك المهمة الموكولة اليه وهو سائر(٢٠) بأتجاهها ان اراد أم (٢١)لم يرد. وعنده أن كل مخلوق أوكائن عضوي انما هو[أشبه بطلقة البندقية

تنطلق مستقيمة بأتجاه هدف(٢٢)محدد.]

اكد هكسلي على ما أسماها [الأنماط الدائمة] ، واراد بها الحيوانات والنباتات التي لا تتغير(٢٣) مهما تغيرت الظروف التي تكتنفها . فهو يرى بأن أهمية ديمومة الأنماط انما تنبع من صميم ارادتها في الحياة . وقد عمم بصفة الأجمال(٢٤) احيانا فنكر ما اسماه [المجموعات الدائمة أو المستمرة(٢٥)]. وهنا الأستمرارية اما أن تأتي من مجموعات كبيرة فيبقى بعضهـا ، أو ان الأستمرارية تتأتى من مجموعات أفلحت في البقاء بالنظر لوفرة اعدادها كما هي الحال (٢٦)عند النمل . وتجده متأثرا بفلسفة هيوم الذي يصفه هكسلي بأنه [أمير اللاأدريين]. فهو ساير هيوم في الأقرار بأن الخبرة هي مصدر المعرفة ، لكنه اختلف عن هيوم في أنه جعل مذهب الظواهرية قائما على اسس (٢٧)فسلجية . فقد نكر هكسلي بأن جميع الحالات العقلية أو الأحداث الفكرية انما هي ناجمة عن مسببات جسمية ، ولهذا فلكي نفهمها علينا ان ندرس وظيفة الجهاز العصبي ، وهو الذي اكد على مبدأ [الظاهرة (٢٨)اللاحقة] وصفا اطلقة على ما يتأثر به العقل.

بذلك الضرب الحديث من التفكير كتب هكسلي:

العلم والأخلاق [١٨٨٦]

و التناحر من اجل البقاء في مجتمع الأنسان[١٨٨٨]

و التطور وعلم الاخلاق : مقدمة ناقدة [١٨٩٤]

وفيما كتبه من جملة رسائل علمية الى صحيفة التايمز عام [١٨٩٠]

وممن أثرت في آرائهم نزعة النشوء والتطور وأستهوتهم عما

كانوا بسبيله هو صموئيل بتلر [١٨٣٥ - ١٩٠٢] ، فهو معروف على نحو أفضل بكونه (٢٩)قصاصا وكاتبا رومانتيكيا اكثر منه عالما.

فمن دراساته الكثيرة نشر بتلر بعض ملاحظاته في المجلة الجديدة المعروفة بأسم : New Quarterly Review المجلد الثالث ، لعام ١٨٧٨ ، لخص أراءه البيولوجية بقوله:

١ - ان تشخيص الوراثة والذاكرة ، والأرتباط بالسلف القديم السابق للنوع ، وظواهر العمر والشيخوخة ، واسباب العقم في الأنواع الهجينة ، كل هذه وسواها تتبع نظاما بيولوجيا محددا لا يمكنها الخروج عليه : وهذا هو نظام الحياة والعادة.

٢ - ان القول بالغائية واستخدامها في ميادين الحياة لا يقل اهمية عن نظرية الحياة والعادة ، وهذا هو مظهر التطور بشطريه القديم والجديد.

٣ - حاولت تفسير طبيعة الذاكرة وقد ضمنت هذا (٣١ ، ٣٢ ، ٣٣)كتابا بعنوان الذاكرة اللاشعورية(١٨٨٠).

فقد لخص بتلر في كتابه <u>الحياة والعادة</u> (١٨٧٧):

١ - وحدة الشخصية بين الأبوين وما ينجبانه.

٢ - وراثة وحدة الذاكرة بأنواعها حسب رأيه.

٣ - كمون الذاكرة حتى يتقبض لها ما ينبهها من جديد بفعل ترابط الأفكار .

٤ - اللاشعور الذي يعتبر محركا ودافعا لبعض الأنشطة التي ترتبط به . وتقترن بهذا كلة النزعة الغرضية من جانب الكائن

الحي . واكد على أن ما حققته الأنسانية من تقدم لم يكن ضرية لازب (٣٤، ٣٥)بل هو نتيجة لما هو عليه الأنسان من نكاء استطاع به فتح مغاليق الحياة.

وكان بتلر قد كتب : النشوء والتطور : القديم(٣٦) والحديث (١٨٧٩) ليدافع فيه عن لامارك ضد دارون . واراد على حد رأيه الدفاع عن بعض(٣٧) مفاهيم لامارك التي اعتبرها اساسية(٣٨)لكنها أهملت من جانب دارون . وان بتلر من خلال نزعته الموسوعية (٣٩)في العلم قد خاض جوانب متعددة واستطاع ان يسهم في ترسيخ دعائم فلسفة (٤٠) علوم الحياة . لكنه مع هذا لم يستطع التخلص من نزعته الأدبية . فهو قد الف كتابه المعروف : سبيل (٤١)كل حي (١٩٠٣) وجعله وكأنه كتاب سيرة ذاتية ، بل هو حقا كنلك . ويعتبر الكتاب دراسة حالة ، تبرز من خلالها عقدة أوديب ، وعقدة العلاقات(٤٢) العائلية ، فهو ينكر قائلا [ان ألد عدو لي لا يعرف الصفح منذ طفولتي وما بعدها كان أبي من غير(٤٣) شك.]

يمكن القول بأطمئنان بأن نجاح دارون يتمثل في استرعاء الأهتمام الى مشكلات الوراثة ووراثة القوي العقلية . وقد اعقبه في هذا المحال وارسى الأسس الأحصائية لهذه الدراسات هو فرانسس(٤٤) جولتن [١٨٢٢ - ١٩١١]. فجولتن أصر على ما بـ [العبور] بين الأنواع واعتبره قيمة حافظة . وهو قد خالف اتباع فوندت النفسانيين ننم كانوا يهتمون بالتعميم حول عقل الأنسان(٤٥) ، في حين كان جولتن مقتنعا بأن ثمة درجات متفاوته بين عقول البشر . ولعل منحاه هذه يعكس مدى تأثر بقريبه دارون

الذي كان يؤكد على موضوع الفروق الفردية بين الناس ، وهذا اتجاه جديد ومهم في علم النفس الحديث(٤٦).

تمكن جولتن بثاقب فكرة أن يطبق اصول علم النفس على المشكلات اليومية للأفراد . ومن وجهة النظر هذه الف كتابه : العبقرية (٤٧)الوراثية (١٨٦٩) ، واصل الكتاب في الأساس بحث بعنوان [العقلية الوراثية والخلق] أعده عام ١٨٦٥ . وتجده قد ضمن كتابه هذا مبحثين اساسيين هما:

(أ) تصنيف السمات(٤٨) العقلية الى :

١ - القدرة على العمل والنشاط
٢ - اهتمام بالعمل نفسه ورغبة فيه؛
٣ - الارادة المؤدية الى الأستمرار في العمل.

والاقسام الثلاثة هذه شديدة الأرتباط بالتقسيمات الحديثة في علم النفس وهي :

١ - التعرف
٢ - الوجدان
٣ - النزوع.

(ب) ميز بوضوح بين

١ - القدرة العامة
٢ - القدرة الخاصة(٤٠).

كان جولتن يؤكد بأستمرار على تمييز كهذا وقد خص بتأكيده هذا فكرة القدرة العامة ، ومنه استعارها فيما بعد كل من بنيه وسبير من . واستطاع جولتن أن يطور علم النفس الأخصائي . وانه هو الذى اقترح اول مرة في تاريخ علم النفس بأن الناس يمكن تصنيفهم وترتيبهم تبعا لمنحنى (٥٠)التوزيع الطبيعي ، وهو المنحنى الذي يحتل مكانه متميز في الأحصاء النفسي اليوم . وقد وسع آراءه هذه في كتابه:

الطبع والتطبع (١٨٧٤).

اكد في كتابه هذا الخصائص التالية:

١ – الطاقة الجسمية والعقلية .

٢ – الصحة.

٣ – المثابرة والمواظبة .

٤ – عادات العمل.

٥ – الذاكرة .

٦ – استقلالية الشخصية وثبات الخلق.

٧ – الأستعداد الميكانيكي.

أن كثيرا من افكار جولتن وآرائه ، وقد طورها فيما بعد كارل بيرسون ، أصبحت أسسا لمعظم الدراسات الأحصائية النفسية الحديثة. فهو قد تبنى الأحصاء النفسي بوصفه (الوسيلة والأداة

التي يستطيع بها الباحث من معالجة الصعوبات لينفذ من خلال نلك فيتابع دراسة علم الأنسان.) ضمن اراءه هذه وسواها كثير كتابه(٥١) : الوراثة الطبيعية (١٨٨٩).

يوصف جولتن احيانا بأنه [ابو الأختبارات العقلية]. ولعل في هذا النعت شيئا من الصحة . فهو قد ادرك أهمية الطرائق الكمية وتمكن من استيعاب اساسياتها . ولعله غالى احيانا في تطبيق اصول الأحصاء على كل شيء عندما اراد اخضاع جميع ضروب المعرفة الأنسانية الى الأرقام الأحصائية . فهو يذكر(٥٢) :

[ان أية ظاهرة في أي فرع من فروع المعرفة لا تخضع للقياس والأرقام الأحصائية ، فلا يسعها أن تحتل مكانتها العلمية ولا تبلغ مرتبتها المطلوبه.]

ففي كتابه : تحريات في قدرة الأنسان(٥٣) وتطورها (١٨٨٣)، قد ابرز عدة جوانب علمية اهمها :

١ - الفروق العلمية التي تعد في علم النفس الحديث من الموضوعات النفسية البالغة الأهمية .

٢ - تحليل شخصية الفرد بوصفها (٥٤)نتيجة لازمة لعاملين مهمين هما الطبع والتطبع.

واقترح خلال بحوثه تلك معيارا احصائيا ، كان اساسه محاضرة عامة أول الأمر ، ثم طوره(٥٥) تدريجيا . وكان يذهب الى الأنسان يجب ان تقاس مكانته بالنسبة الى مجموعة من الأفراد من حيث القدرات ومن حيث ما يستطيعون انجازه في الحياة(٥٦) . ومعظم افكاره العلمية (٥٧) هذه متضمنه في مؤلف له بعنوان :

ذكريات حياتي (١٩٠٨).

فجولتن ، اذن ، يعتبر من بناة علم النفس الحديث ، ومن بحوثه الأجرائية يسصمد كل من علم النفس الفارق والقياس النفسي شيئا كثيرا من مصادر ما وصلا اليه اليوم.

٢ - هوبهاوس ولويد مورغان

يتردد ذكر ليونارد تريلوني هوبهاوس (١٨٦٤ - ١٩٢٤) في علم النفس الحديث كثيرا لمكانته المعروفة في مجال دراسات علم النفس المقارن . وان هذا لا يبعده كثيرا عما عرف عنه بأنه فيلسوف(٦٠، ٦١) موسوعي . وكانت نظرية الى الفلسفة في كونها عنصر توحيد بين العلوم المختلفة فتجعلها تصعب في رافد واحد الغرض منه خدمة الأنسان في بيئته . ففي مؤلفه :

نظرية المعرفة (١٨٩٦) ، يؤكد على ان المعرفة يجدر ان نتحراها ونلتمسها في مجالات امشعور . فكتابه هذا الذي وصف بأنه [الواقعية الناقدة] ينطوي على بحث لايريم هوبهاوس عنه ، وهو ان التعرف Cognition يبدأ بالادراك والاستيعاب ويؤول اليه . والعملية بجملتها تتم في ميدان الشعور . وهو يميز بين التعرف بوصفه محددا ويقوم بالجانب الوظيفي وبين المعرفة Knowledge التي يعتبر النتيجة(٦٢) التراكمية للنشاط العقلي الذي يكتسبها بالتعرف . وفي كتابه :

العقل في تطور(٦٣) [١٩٠١]

حاول هوبهاوس تجربة كثيرة من الدراسات التي قام بها معاصرون له ومنهم رومينز ومورغان . وان كثيرا من تجاربه لا تكاد تختلف(٦٤) عن تجارب كوهلر على القردة (١٩١٧) ، ولكنه لم ينتظمها في مغزى جشتالتي كما فعل كوهلر . وان ما اسماه هوبهاوس بـ [الرقوم] Consilience انما اراد به التفاعل المشترك(٦٥) بين الأجزاء الداخلة في نظام كلي موحد . ولعل هذا مما يقرب بين منحاه في علم النفس وبين المذهب الجشتالتي الحديث.

وعند هوبهاوس أن كل كائن عضو خلق كما هو ولكنه مكون ليحقق توازنه الذاتي Homeostasis في الحياة . وهنا يقترب كثيرا من رأي لويد مورغان الذي يذهب فيه الى القول بنشأة العقل على اساس أن العقل معروف من خلال وظيفته . وان الكائن الموهوب بالذكاء انما يبدي هذا الذكاء في أي صعيد يحل فيه . ويكون ذكاؤه هذا مستخلصا عن طريق التكيف ففي رأيه ان الذكاء والتكيف شيء واحد أو نتيجة وأثر وسبب ومسبب . ثمة جوانب بارزة في ما يذهب اليه هوبهاوس ، اهمها:

١ - فهو يقول : [حيثما يكن العقل(٦٦) يكن الترتيب والنظام] وهذا رأي وثيق الصلة لمقولة مكدوجل [حيثما وجدت الحياة يوجد العقل]. فالعقل والحياة والنظام عوامل متلازمة في حياة الفرد الأجتماعي .

٢ – ان مناقشات هوبهاوس تعكس مدى تأثره بنظرية النشوء كما سكها دارون.

٣ – يتضح للمتتبع لآراء هوبهاوس (٦٧)انه كأن متأثرا بكل من دارون ووليم مكدوجل ويبدو هذا واضحا في قوله بأن نماء العقل في الحياة انما يتجلي في مظاهر التفاعل.

وان من يتتبع مناقلات هوبهاوس(٦٨)الخاصة بعلم النفس والاخلاق وعلم الأجتماع ليجد غزارة في المعرفة . وان اسلوبه في البحث ومنهجيته تتجلي في :

١ – المورفولوجيا : ذلك الفرع من علوم الأحياء يبحث في شكل الحيوانات والنباتات وفي بنيتها.

٢ – التطور والنشوء .

٣ – التقييم

وقد ضمن اارءه هذه مجموعة من كتبه أهمها:

الأخلاق في تطور (١٩٠٦)

الخير العقلاني أو المعقول (١٩٢١)

التطور والغرضي (١٩١٣)

التطور الأجتماعي (١٩٢٤)

عناصر العدل الأجتماعي (١٩٢٢)

ومحور افكاره يدور حول فكرة أن الدوافع الفردية والأعراف الأجتماعية يؤلفان قطبين ونحن بينهما نجوب . وان خلق الأنسان(٧٠)، هو اساس المعيار الخلقي وعليه تبنى القيم التي يجب ان نقرها على ان تكون عند مستوى الكرامة الأنسانية وان تنأى به عن البوهجية الحيوانية.

ومما كان يؤكد عليه هوبهاوس:

١ - ان نظرية الغاية أو الغرض أو القيمة في الحياة الأجتماعية شيء ، ونظرية ظروفها شيء آخر يختلف .

٢ - ان ما يلزم لفهم الحياة الأجتماعية وسلوك افراد المجتمع الواحد انما يتأصلان في ادراك قيمة بحثهما وفق اسس علمية.

٣ - ان ان مسألة الأهتمام الأقصى انما تنبع من مشروعية تقصي حقائق الحياة الأجتماعية ومن خلال سلوك الأفـراد في المجتمع.

وان المرء ليقرأ في كتب هوبهاوس (٧١)افكارا تكاد تشهد بمقدرته على البحث والنظرة المستقبلية . وقد بث اراءه تلك في مؤلفاته الكثيرة منها ما مر آنفا ولعل كتابيه :

التطور الأجتماعي والنظرية السياسية (١٩١١) و النظرية الميتافيزيقية للدولة (١٩١٣)

متممان حقا لسلسلة ارائه النفسية والاجتماعية . فهو يبحث الفرد من حيث تكوينه الكلي بما في ذلك التكوين النفسي اولا ، ومن ثم ينطلق لبحث البيئة الأجتماعية ، ومنها ينتهي(٧٢) الى العلاقة بين الفرد وبيئته بوصفها عنصرا مؤثرا في السلوك ، لكل من الفرد والجماعة .

مفكرا آخر في مسار التطور وعلم النفس المقارن يمكن ان نذكر هوكونواي لويد مورغان (١٨٥٢ - ١٩٣٦). بالتخصص كان

مورغان عالما في الفيزياء وعلم الجيولوجيا . وعلم النبات وعلم الحيوان ، الى جانب اهتمامه بالأدب والتاريخ الدستوري(٧٢) . لكنه توافر فيما بعد على دراسة علم النفس وانقطع اليه كلية وأجرى بحوثه في مجاله

تصدى مورغان لمشكلات علم النفس وحاول أن يصحح بعض ما وقع فيه معاصروه من اخطاء علمية تخص ميدان هذا العلم . ففي بحث نشره في مجلة (مايند) Mind عام ١٨٨٦ . صحح ما كان قد نسبه رومينز رأيه الذي ينسب الفعل المنعكس الى الغريزة بالذات . وفي رأي مورغان أن الافعال الانعكاسية [ذات طبيعة عضوية تتميز بأنها ،استجابات تصدر(٧٣) نتيجة لمنبهات محددة ، وأن الأفعال الانعكاسية هذه تشمل اعضاء معينة من الكائن العضوي وليس الكائن العضوي ككل. اما الأنشطة الغريزية فأنما تتكون نتيجة لتأثير العادة بحكم ظروف محددة .] من هذا (٧٤) خلص مورغان الى ان كلا من الذكاء والغريزة قابل للتكيف وفق الظروف البيئية . وعندما ذكر رومينز مثلا بأن القرد الذي كانت تجرى عليه التجارب استطاع ان يجد المبدأ الميكانيكي في استعماله اللولب ، رد مورغان بقوله ان هذا استخدم للمصطلحات في غير مكانه . وان المرء ليجد شواهد نفسية وتصويبات جمة في كتابه الموسوم:

حياة الحيوان وذكاؤه نشر عام (١٨٩٠) ، ثم اعيد طبعه منقحا بعنوان

سلوك الحيوان (١٩٠٠)

اجتهد مورغان أن يقيم الدليل العلمي في علم النفس على الصلة بين عقل الحيوان وعقل الأنسان والتشابه في الظواهر السلوكية حسب التدريج في سلم التطور(٧٤). ففي كتابه :

مقدمة في علم النفس المقارن (١٨٩٤)

حاول استبعاد بل نفى النزعة التشبيهية الاحيائية الي كان ينسبها الآخرون الى الحيوان (٧٥) عن تفسيرهم لعقل الحيوانات كافة . ولكنه لم يلجأ الى الماحكات اللفظية ، بل ارتكن الى قانون صاغة (٧٦) وبه عرف وبأسمه اقترن، هو [قانون الأقتصاد بالجهد] ومنطوقه :

[لاينبغي لنا أن نفسر نشاطا معينا بأنه محصلة ممارسة نفسية عليا ونتيجة لها ، اذا كان بوسعنا تعليلها وتفسيرها بأنها نتيجة مران مخلوق يأتي في مرتبه أدنى في السلم النفسي.(٧٧)]

ويذكر مورغان كذلك بأن ما يجب(٧٨) ان نتأكد منه من الموضوعات العلمية يجب أخضاعه للتجربة المهيأت بعناية تحت ظروف محددة نتحكم فيها تجريبيا وانتهج مورغان في نظرياته وفي تجاربه منهجية النظرة الواحديــة Monism وليس

اسلوب النظرة الثنائية Dualism فالثنائي ينظر الى الذات والموضوع على انهما شيئان منفصلان في حين ان الواحد يعتبرهما شيئا واحد . وبهذه النزعة اعتبر الطبيعة وما تحفل به وان يأخذ بالنزعة الواحدية يرى بأن الجوانب البيولوجية والنفسية انما نتيجة للتطور الذي يكون الكائن العضوي قد قطعه (٧٩). وان العقل ليس فوق الطبيعة أو خارق لنظام الطبيعة وانما هو أحد جوانب الوجود الطبيعي ، وان الطبيعة هي موضوع المعرفة. وان العقل والجسم مميزان عن بعضهما لكنهم لا يمكن فصلهما.

ويذهب مورغان الى ان ثمة ضربين من التعلم هما:

١ - الخبرة

٢ - المهارة

ويأتي الأثنان تحت مظلة الأكتساب ويصفهما بأنهما عمليات عقلية وعضلية مهمة (٨٠). وان المهارة تكتس بصفة العادة والعادة تصبح (٨١) نمطية بالتكرار . وهو يرى بأن الغريزة تستعمل بمعان شتى . فهي تستخدم حسب المعنى الدارج المألوف حينما يراد التمييز بين سلوك الحيوان وتصرف الأنسان ، وان لم يكن كل تصرف يأتيه الأنسان معقولا (٨٢). وتستعمل للأنسان حينما لا يكون سلوكه صادرا عن وعي شعوري . واستعمل مورغان الأنفعالات بمعنى ناقص فيه ما كان قد ذهب اليه وليم جيمس من قبل . فمورغان يرى بأن التغيرات الجسمية التي تتلو مباشرة الادراك الحسي للحقيقة القائمة ، فأن مانستشعره(٨٣) من حالة وجدانية ومن تغيرات مصاحبة ، تكون الأنفعالات وان تلك الحالة الوجدانية هي الأنفعال بعينه

ان السلوك الغريزي الذي تضرب جذوره بعيدا في اغوار التطور ، انما يتيح لنا الشواهد على ما للممارسة من أثر وهي موجهة (٨٥) بتأثير الذكاء من جانب الأنسان وان النشاط الغريزي من الناحية (٨٦) البيولوجية والفسلجية لا يعدو كونه انعكاسا ، لكنه من الناحية النفسية (٨٧) اكثر من ذلك ، فهو يتيح حقائق تدل على الخبرة الشعورية . وانه لمن الضروري التمييز بين نشوء الخبرة وتكونها وبين طبيعة تكوينها الميتافيزلقي . آراء كهذه يجدها (٨٨) المرء مبثوثة في تضاعيف مؤلفيه :

الغريزة والخبرة (١٩١٢)

و الحياة والعقل والنفس (١٩٢٦)(٨٩)

والمستغرب ان مورغان كان يتحاشى فكرة بزوغ العقل وبهذا يكون هو وهوبهاوس في اتفاق (٩٠) تام . اما بالنسبة الى مكدوجل فليس في الأمر مشكلة طالما هو يرى بأنه حيثما تسنت الحياة توفر العقل . وقد فسر (٩١) مورغان المراحل الثلاث وهي : المادة ، والحياة ، والعقل ، بأنها جاءت نتيجة حتمية للتطور (٩٢) وانها اقترنت بالأرتباط وتكاملت . وهذه انعكست آثارها على علم النفس الحديث فوطدت من دعائمه العلمية.

٣ – مراجع الفصل الرابع

1. Hearnshaw, L.S. op. cit. p. 92.
2. (1) Ibid, p. 92.
(11) See also "Mental Evolution in Evolution in the Light of Modern Knowledge, op. cit. p. 324.
3. Dilivered in the Hulme Town Hall , Manchester, March 12th, (1879), p. 14, 15 , Pamphlet.
4. (11) Ibid, p. 52, CF. p. 159
(11) A.R. Wallace, Darwinism, op. cit. pp. 131, 139
(111) C.J. Romanes, Mental Evolution Ani-amls, (1883)
5C.J. RomanesMental Evolution Man (1888) p. 13
6. Ibid pp. 16 - 17.
7. Ibid pp. 20 - 21.
8 Ibid p. 23
9. Ibid pp. 40, 59
10. G. Romanes "Animal Intelligence" A Lecture delivered in 1878, pub. in the XIXth Century, vol IV No. XX pp 653 - 672.
11. Ibid, p. 655
12. Mental Evolution in Man op. cit. p. 196
13. Ibid, pp. 201 - 3
14. Jelly Fish (1885) p. 53
15. E.G. Boring, op. cit. pp. 473 - 4
16. Animal Intelligence op. cit. p. 670
17. (1) E. Boring, op. cit. p. 471
(11) R. Metz, op. cit. p. 110

18. (1) Merz, vol 111 op. cit. p. 30

(11) R. Metz , op. cit. pp. 110 - 111

(111) Hoffding vol 11 op, cit, pp. 445 - 452

19. Basil Willey Darwin and Butler, (1960) p. 33

20. T.H. Huxley, collected Essays, 9 vols. (1893 - 4) vol. 2 ch. 5

21 , op. cit. p. 100

22. Ibid

23. Huxley, Lectures op. cit. p. 10

24. Julian Huxley, Evolution Action, (1963) p. 132.

25. Ibid, p. 132

26. Ibid, p. 133

27. R. Metz, op. cit. pp. 111 - 112

28 - T.H. Huxley, "Evolution in Ethics" The Romanes Lectures in a book of the same title, pp. 46 58.

29. Ibid, p. 51

30. Ibid, pp. 79 - 83

31. op. cit. p. 53

32. See Preface to Life and Habit, (1878)

33. Ibid, pp. V111 - 1X.

34. Macus Harlog, Introduction to Unconscious Memory, pp. IX - X.

35. Ibid, p. 33

36. Ibid pp. 248 - 249

37 . (1) Ibid ch. x111

(11) Unconscious Memory, ch. IXV.

(111) "Thought and Language"(1890)

(IV) The Deadlock in Darwinism both in Essays on Life, Art and Science, (1890) ed. by R.A. Streatfield. (1904)

38. Life and Habit op. cit. pp. 253 - 254
39. Cited by Rutter on p. 253 in Life and Habit
40. Unconscious Memory, p. 58.
41. (1) Unconscious Memory, op. cit.

    (11) Basil Willey , Darwin and Butter: A Critical Study, ch. IV.
42. See, for example, chapters 29, 30, 31
43. Butleriana (1932).
44. A Short History of British Psychology, op. cit. p. 55.
45. "Discontinuity in Evolution" Mind, vol.111 No. 2 (1894), p. 372.
46. Mind, vol 111 (1894) pp. 33 - 34.
47. (1) E.G. Boring op. cit. p. 461.

    (11) E. Heidbreder, op. cit. p. 107.
48. Published in the MacMillan Magazine
49. Ibid , pp. 16 - 17.
50. (1) Hereditary Genius , op. cit.

    (11) Cyril Burt, B.J. Statistical Psych. vol XV (1962).
51. Natural Inheritance (1889) pp 62 63.
52. Brain, vol 2 (1879)
53. The Full Title was "On a Proposed Statistical Scale"

54. "Psychometic Experiments" vol IX pp. 342 FF
55. Vol XLIX PP 33 - 46
56. London Methven, p. 267.....
57. For Full Appreciation of Galton" Wide Interest and vivid imagination See:

Carl Pearson, The Life, Letter, and Labours of Francis , Galton 4 vols. (1914 - 1930).

58. Op. cit. p. 66
59. op. cit. p. 101
60. R. Metz, op. cit. pp. 150 - 151.
61. See his article on "Comparative Psychology" in Encyclopaedia Brittannica (1929)
62. R. Metz, op. cit. p. 152.
63. R. Metz, op. cit. p. 157.
64. Thoery of Knowledge, (1896) 3rd ed. (1921)
65. See Smith, F.V. Explanation of Human Behaviour, op. cit. ch. IX
66. Mind in Evolution, London MacMillan (1901), p. 24
67. Ibid, p. 6
68. Morals in Evolution, p. 14
69. Ibid, p. 14
70. Ibid, p. 12
71. Ibid p. 7
72. Social Development, London (1924) pp. 12 - 48
73. Mind, vol XI, No. 42, April, (1886), pp. 174, 182, 183, 184.

74. Ibid, p. 184.
75. Lloyd Morgan, An Introduction to Comparative Psychology, London, (1894), p. 53.
76. Ibid, p. 359
77. Ibid, pp. 1 - 3
78. Ibid, pp. 3 - 5
79. Ibid pp. 5 - 6
80. Habit and Instinct , London (1896)
81. Ibid, p.1
82. Ibid. p. 2
83. Published in Mind, (1884), vol IX pp. 188FF.
84. Habit and Instinct, op. cit. p. 189.
85. Instinct and Experience (1912) p. 26
86. Ibid, p. 18
87. Ibid, p. 22
88. "The Natural History of Experience" B.J. Psychol, vol III, December, 1909, P.I.
89. Ibid, P.2
90 Mind, (1926), Vol XXXV, No. 130, pp. 355, 360.
91. E.G. Boring, op. cit. p. 470.
92. See:

(1) Morris Ginberg, "The Concept of Evolution in Sociology" Proc. Assist. Society, Vol. XXXI, 1930 - 31, pp. 201 - 224.

(11) E.G. Boring op. cit. pp. 470 FF.

(111) John Maynard Smith, The Theory of Evolution, (1966)

(IV) Bertrand Russell, History of western Phi-

losophy, London (1946) pp. 752 FF
(V) Hans Driesch, The Science and the Philosophy of the Organism, (1929) pp. 168 - 175, 181
(VI) Charles S. Myers, "Vitalism" Mind, Vol IX NO. 34, 1900 pp. 233, 328.
(VII) William James, "Are we Automatic Mind vol. No. No. 13. (1879) pp. 2, 7
(VIII) A Symposium in Pro. Aristot Society, Vol. 1, part 2, (1890),
(IX) A Symposium i Proc. Aristot. Society, vol 11, (1893).

الفصل الخامس

نشأة علم النفس الحديث في مطلع هذا القرن

١ - علم النفس الفلسفي

يبدو أن علم النفس منذ أن ابتدأ يشق طريقه الى الحياه العلمية الخاصة به قد انتهج نهجا مباشرا موائما لطبيعة ما اراد من بحوث . فهو قد ساوق مسارات التوجه الفلسفي التجريبي أول الأمر ثم تابع الخطى التطبيقية بالمعنى الحديث وبالمفهوم المألوف.

ومما يذكر ف هذا الشأن بأن علم(١) النفس الفلسفي قد بقي مألوفا على نحو جديد يباين فيه معايير القرون الخالية على يدي جيمس سلي[Sully] (١٨٤٢ - ١٩٢٤). وليكن معلوما في الوقت ذاته بأن سلي لم يكن معروفا بنزعته الفلسفية بقدر ما كان يعرف عنه بأنه باحث علمي ومنقب تجريبي. فهو شأنه شأن أ. شوبنهاور(Schopenhauer) ذي النزعة التشاؤمية التي تجلت في كتابه : التشاؤم : تاريخه ونقده(١٨٧٧) ، كان (سلي) قد عالج ضربين من ضروب التشاؤم(٢) هما :

(١) المألوف والغريزى على حد تعبيره ،

(٢) الفلسفي والمألوف

ويعتمد هذان النمطان على بعضهما اعتمادا تاما وكان سلي يتحدث احيانا عما اسماه (التشاؤم الجديد والتأملي) الذي جعله وثيق الصلة بالنوعين الانفين. وكل وكده كان ليوضح بأن ما هناك من تناقص اساسي في تقدير حياة الأنسان بشكلها الشامل لا تفصح عن ذاتها في سمات وخصائص الشيء كما هو فحسب ، بل تتجاوزه الى مكوناته الجزئية وكيف أن هذه تنعكس حتي طبيعة تكون النفس الانسانية وما هي اليه نزاعة . فهو يعتقد بأن عالمنا

هذا هو أسوا العوالم المخلوقة الاخرى ، وانما كفة الشر والشقاء في هذا العالم أرجح وهذا يتطلب الاحتراز في تنقية الذات البشرية وفي تربيتها للمحافظة على جوهرها النقى بقدر المستطاع والا أمتها الآفات ونالت منها الانحرافات(٣).

ومما تحدث عنه سلي بأن فكرة الانسان عن اللذة Pleasure تستمد شيئا من جذورها من فكرتنا المتناقصة عن الالم واللذة وما بينهما من صلة تعارض لا يدرك كنهها ، وما يؤديه هذا التناقص من دور في حياة الفرد . ويبدو انه يعتبر اللذة من ناحيتها النفسية دافعا تحضيريا في حياة الانسان . ويذهب الى القول بان اللذة يمكن تحديدها بشكل بسيط بأنها نقيض الألم [يصبح بمقدور العقل أن يتملى بوضوح فكرة أي جانب من جوانب الانطباعات أو الخبرات(٤).]

الف سلي مؤلفا اسماه :

<u>الاحساس والالهام : دراسات في علم النفس وعلم الجمال</u> (١٨٧٤)، ضمنه فصلا عن (العلاقة بين فرضية التطور وعلم نفس الانسان) أوضح في هذا الفصل بأن [علم النفس يحتل مكانة فريدة في سلم العلوم(٦) كافة.] وان علم النفس تتكشف جوانبه للمتخصص بعلم التطور من نواحيه العلمية حسب. ويذهب سلي الى أن فرضية التطور وهكذا كان يسميها. [الى جانب تفسيرها ظروف وتكوين الجهاز العصبي العام وطبيعة الظواهر العقلية لا بتدو احيانا بأنها متسببه عن علل تعمل ضمن حدود حياة الفرد(٧).]

وان هذا انما يتم بفعل عمل الانتقال الوراثي . وخلص سلي الى

القول بأن ثمة ظرفين عامين بعمل وفقهما مبدأ الحياة والخلف عند الأنسان هما :

١ - الحياة الثقافية الأخلاقية السابقة وما انطوت عليه من مشاركة وجدانية .

٢ - ما قطعه من حب الأستطلاع عند الانسان.

وان القوة السيكولوجية الأساسية في تكوين الأهتمام عند الأنسان انما هي ذات أصل فكري . وان العقل هو العامل الناشط للتميز بين باطن طبيعة الانسان وظاهرها . ولولا قدرة العقل على التفكير المنتظم ، لما اصبح بوسع الفرد ان يستحسن اي جانب من جوانب الشخصية . وان القدرة على التمييز بين العقل والتفكير يعد من خطوات التطور التى قطعها الأنسان عبر تاريخه ويبدو أن هذا الموضوع قد اتضحت جوانبه اكثر عبر تطور اللغة عند الأنسان نظرا الى أن كثيرا من التعابير والمصطلحات الداخلة على العمليات العقلية كانت قد استعيرت من اشياء محسوسة(٨). وبهذا الرأي يكون سلي قد ربط بين قوة الظاهرة العقلية والتناسق البيئي. ولعله بهذا الأتجاه يكون فتح كوة جديدة على مجالات التجريبية بعد أن كانت مهملة خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر(٩).

يتضح مما مر سلفا بأن علم النفس (١٠)عند سلي يعتبر عاملا مؤثرا اذ مهد الأساس للمعرفة التى استهدفت التأثير في التفكير والوجدان والنزوع الى النشاط(١١). وان كل ما يمكن أن يؤديه العقل انما يأتي تحت:

(أ) التعرف

(ب) الوجدان ، وما يستشعره الأنسان من لذه والم وحالات

نفسية.

(ج) الارادة ، أو النزوع ، أو العمليات الفعالة(١٢).

وقد ضمن اراءه تلك كتابه الوجيز في علم النفس (١٨٩٦) وفي كتابه المعروف :عقل الانسان ، بأجزائه الثلاثة ،(١٨٩٢) عرف علم النفس بأنه [العلم الذى يبحث في ، ويفسر ظواهر العقل ، ويلتمس التعليل لتكويننا الداخلي ولخبرتنا الشعورية.] واراد بالعلم العقلي صياغة نظرية عامة لمجموعة الظواهر التي تمثل النشاط العقلي والسلوك الظاهر والارادة(١٣). ولقد عالج سلي ، الى جانب ما تقدم ، موضوعات شتي منها مثلا، الضحك(١٤) ، والوهم(١٥) ، ودراسات(١٦) في الطفولة ، والتربية(١٧) عامة ، والنزعة الخلقية(١٨). مقيما جميع ارائه على اسس(١٩) تطورية.

٢ - آرا ءوارد النفسية

ان الاراء النفسية التى ناقشها سلي قد اتمها وأفاض في مناقشتها جيمس وارد [١٨٤٣ - ١٩٢٥] الذى يوصف بأنه [المنسق](٢٠) Systematizer . وان بحوثه النفسية تعكس بشكل واضح تأثير علوم الحياة . وفي دراسته لعلم النفس ترجح النزعة العلمية وتتغلب على الناحية الفلسفية وهذا منحى جعل مجالات علم النفس تتبلور تدريجيا . ولعل اول افكاره النفسية تجلت في بحث نشره في الطبقة التاسعة من دائرة المعارف البريطانية(٢١) Encyclopaedia Britannica ، وقد وسع

مقالته فيما بعد حتى بلغت حدا استلزم نشرها في كتاب بعنوان الاصول النفسية(١٩١٨)الذي يعد من الكتب المعتمدة في هذا المجال ومن المؤلفات الكلاسيكية.

ولقد نال بحثه ذاك تقبلا حتى لدى معارضيه ومنهم على سبيل المثال (باين) الذي تقدم ذكره في فصل سابق ، فوصف البحث بأنه [تحفة علمية في ميدان علم النفس الخاص بالعقل البشرى(٢٢).] بيد أن هذا الموقف لم يمنع (باين) نفسه من ان يحدد اتجاهه ازاء ما ذهب اليه وارد بشأن الفعاليات العقلية ، فنجد [باين] ينكر :

[ان تربيتنا من بدئها حتى منتهاها انما تأخذ صورة البناء المضاف المتراكم وحدة فوحدة بفعل خصائص الطبيعة الحافظة المتماسكة ،التيجبلنا عليها ومنها استلهمنا ، وكل ماعدا ذلك من عمليات في مجال التطور انما تعتبر ثانوية في الاعتبار(٢٣).]

أن اراء وارد تبدو آثارها(٢٤) مؤثرة في علم النفس الذي تلاه بعدئذ اذ نلاحظ في ملخص علم النفسي (١٩٢٣) الذي كتبه مكدوجل نصا يقول فيه كاتبه :

[انه لمجهود يرمي الى رفض علم النفس الفسيفسائي الذي رفضه وارد وجعل رفضه محور مباحثه النفسية(٢٥).]

واراء مكدوجل ، حامل لواء الغرضية ، هذه ستكون من المناقشات الأساسية فيما بعد . وان تأثير وارد هذا نجده في محاضرة بعنوان [طبيعة العقل] استهل بها [تشارلس س.مايرز] عام (١٩٣١) موسم المحاضرات الثقافية لجمعية علم النفس البريطانية وكانت يومذاك تسمي اتحاد المتخصصين بعلم النفس وهذا ما فعله كذلك ر. ج. بارتلين عام (١٩٤٧).

ان علم النفس عند وارد يكاد يكون في جميع أساسياته مغايرا من حيث التفسير لما كان جاريا من قبل بشأن الحياة النفسية والعقلية . وان ما تسمته من علم نفس يمكن نعته بأنه عضوي ، وانه غائي ، وانه هو لامي . فهو مكما فعل سلي من قبل قد قسم موضوع علم النفس الى تعرف ووجدان ونزوع ، بين أنه يختلف عن سلي في أنه أسهب في طرق الموضوعات وأضب(٢٦) فهو قد ذكر بأن علم النفس يعالج :

١ - مادة ذات قابلة للتغير اللاارادي يتخذ صفة الاستمرارية الحسية [تعرف].

٢ - وبالتالي فأن الاستمرارية هذه تفضي الى ما يؤول الى اللذه أو الألم [وجدان].

٣ - ومن ثم فعن طريق الانتباه الأرادي تحدث تغيرات في الاستمرارية الحركية [نزوع أو سلوك].

يستخدم وارد لفظة (موضوع) Subject احيانا ويريد به الذات ego الواعية وعيا شعوريا لما يجري في الذهن وما يدور في العقل ، والى هذه الذات يرد كل شيء عقلي . وبالنسبة اليه فهناك ثلاثة أضرب من الذات يمكن تمييزها هي :

١ - الفهم الميتافيزيقي للنفس .

٢ - الذات البيولوجية أو الخبرية التجريبية .

٣ - الذات السيكولوجية التي تحتك بجميع المحسوسات . وبالنسبة الى الموضوع أو الشيء الموضوعي ثمة:

١ - المعرفة وهي نتيجة الاحساس بالشيء.

٢ - التوق أو السلوك وهو تحسس الأشياء الحركية.

٣ - الأحساس الوجداني وهذا لا يكون ماثلا في البيئة انما يتحسسه الأنسان ذاتيا ، وهو لا يمثل في الخبرة ، لكنه نتيجة أصلية Primordial للعرض الحسيء ، وهو شرط اساسي للعرض(٢٨) الحركي.

اما بصدد رأيه عن الشعور والخبرة ، فأن وارد يذكر [نعتقد بأن الجرذ يشعر ويكد ويجتهد : فالاحساس والشعور والاجتهاد اذن تعد من عوامل خبرته ، ولكن ليس لدينا من دليل يجعلنا نجزم بأن العوامل هذه تعتبر من موضوعات معرفته . فهي تكون على هذه الصورة بالنسبة للأنسان دون ريب . ومع هذا فهناك اشياء كثيرة بالنسبة اليه يمكن التحدث عنها بأنها جزء من خبرته وانه وعاها ، وان اشياء اخرى لم يكن مدركا لها ولا واعيا لها.(٢٩)]

فالاحساس حسب نظرية وارد قد يعني:

(أ) اللمس Touch ، كلمس الشيء الخشن.

(ب) الاحساس العضوى Organic Sensation ، كالاحساس بالجوع.

(ج) الأنفعال Emotion كالاحساس بالغضب.

(د) أيه حالة ذاتية خالصة Subjective Sta te كالأحساس بالثقة أو التأكد أو النشاط.

(هـ) التحسس بالحالة الوجدانية كالشعور(٣٠) باللذة أو الالم Pleasure or Pain .

لهذا نجد وارد يحتسب كلا من الوجدان أو الاحساس والأرادة

احساسات أو مركبات من الاحساسات(٣١). وبهذا المعيار دعا الى أن تكون لعلم النفس الحديث رسالة خاصة به وهي أن يرجع الحياة النفسية الى تأمل العمليات العقلية الفيزياوية والجسمية(٣٢). وأن علم النفس الحديث يتميز بمنهجيته الاجرائية المتمثلة في:

١ - تقريره الموازاة بين موضوع علم النفس ومادة الفيزياء.

٢ - اصراره على ان علم النفس بوصفة علما انما يتوفر على دراسة الاحداث ومعالجتها ، ولا ينصرف الى دراسة المجردات والمسببات(٣٣).

والأنفعال كما يراه وارد حالة عقلية، وهو ذهان ؛ وليس عنصرا سيكولوجيا نفسيا . وان ما تطرق اليه وارد من موضوعات نفسية شتي توضح مدى اهتماماته الواسعة . ففي [نظرية الموازاة النفسية الجسمية(٣٤)] اوضح وارد بأن هناك كثير من النظريات التي تعالج موضوع الموازاة تحاول الأجابة علي سؤال يتردد وهو :كيف تؤثر التغيرات النفسية فيما يحدث من تغيرات فسلجية جسمية عند الكائن العضوي؟ وجميع هذه النظريات تبتدئ وتنطلق من المبدأ الديكارتي المتعلق بالتفاوت والتباين والتمايز القائمين بين المادة والعقل . وحاول وارد تطبيق القوانين النفسية على التربية التي يراد بها ان تنتهي بالأنسان الى اكتساب(٣٥) التكامل .

بيد أن توافر وارد على المناقشات النفسية والدراسات السيكولوجية لا بحال انه جانب كلية جولات له في ميدان الفلسفة . فمن بين اثني عشر بحثا نشرت(٣٦) بين عامي (١٨٨٩) و

(١٩٢٥)، تسعة بحوث منها في الأقل يمكن اجمالها في ثلاثة عناوين رئيسية تناولت :

١ - الطبيعة والطريقة والاتجاهات الحديثة في الفلسفة.

٢ - التعارض والتوافق بين حدود الطبيعة وحدود الغايات.

٣ - العقيدة أو العامل الديني نشاطا وفكرا. وفي بحثه عن [الاتجاه الفلسفي والتفكير العلمي(٣٧)] يدعو وارد الفلاسفة الى ضرورة التوفر على معالجة مشكلات الواقع وما يمس جوهر الحياة . وارد وارد بالعقيد [ايمان الشخص بوجود خالق يتعذر على الحواس ادراكه ، لكن البصيرة لا تخفق في معرفته ، وان جميع الأديان تقر(٣٨) بأنه القاهر فوق العباد.]

وهو قد ميز بين مذهب (الواحدية) Monism ومذهب (المونادية) Monadism ، والاول يتيح لنا الوحدة عن طريق الجوهر ، والثقافي يسمح لنا بها بواسطة النظام والتنظيم. وأن الغرض ينطوي في طياته علي مقصد الخير والقيمة السامية(٣٩). وان الفلسفة يمكن اعتبارها من خلال تأريخها بأنها فلسفة في حالة(٤٠)تجريب . وان النفس الأنسانية ونشاطها انما هي حقائق يجب تقبلها على انها جوهر ومظهر. وبهذا الجوهر وبذلك المظهر يعني(٤١) علم النفس ويلتمس التفسيرالأجرائي المطمئن.(٤٢)

وتناول وارد في ما تناوله ايضا ثلاث نظريات اساسية:

١ - نظرية كون الطبيعة تكوينا ضخما احتوت كل ما يمكن ان يتصوره العقل.(٤٣)

٢ - نظرية التطور بوصفها ضمن اطار هذا التكوين الهائل.

٣ - نظرية المتوازي(٤٥) النفسية - الفسلجية أو الجسمية ،

ويضمن هذه النظرية عالج موضوع التسيير الذاتي الشعوري Conscious automatism ومؤداها أن الظواهر(٤٦) العقلية غالبا تصاحب حركات وتفاعلات ما يجري في العالم المادي ولكنها لا تقررها ولا تحددها مسارا(٤٧) ، لان تلك التفاعلات(٤٨) والحركات مقررة موجهة قبلا. [وعنده ان الطبيعة روح وطاقة(٤٩)] ، وان [الانتخاب الطبيعى بدون العوامل الغائية لايغنى(٥٠)شيئا ولا يستطيع أن يساير التطور البيولوجى.] وان [الطبيعية والاغنوطيسية] دليلان فعالان ، كما يرى . وان اراءه هذه نجدها مبثوثة في كتابه:

الحدود والغايات أو تعدد الحقائق والتوحيد

ويوسع المرء أن يجد اراص مماثلة في كتابه
المذهب الطبيعي والاغنوطيسية

وفي كتاب: **علم النفس وتطبيقاته التربوية**
وكذلك في : **المظهر والحقيقة** أو **المظهر والواقع** (٥١)

مما تقدم ، بوسع المرء أن يخلص الى ان النظام السيكولوجي الذي جاء به وارد يتسم بخصائص رغم حداثه هذا الموضوع

بين سائر العلوم الأخرى. فقد أثرى علم النفس بمفاهيم وتعابير تركت آثارها بارزة على النفس الذي اعقب فترته ، وان معظم ما جاء به من تلك المفاهيم ما فتئت مستخدمة ومتداولة . وان رفضه للمادية وللثنائية فلسفيا ونفسيا والتزامه(٥٣) بالموازاة وبالمونادية جعل نظامه النفسي أقرب الى نظام مكدوجل الغرضي وتقييما(٥٤) لسيكولوجيته ككل يمكن القول بأنه قد خطا بعلم النفس الى الأمام خطوة فسيحة بأتجاه العرض والابانة(٥٥) والمنهجية والتطوير .

٣- نفسانيون أخرون

ونحن بصدد مناقشة علم النفس الفلسفي ، فلعله من المجدي طرق الى نكر كل من :

توماس(٥٦) هل جرين [١٨٣٦ - ١٨٨٢] من جامعة اكسفورد(٥٧).

وهنري سيدجويك [١٨٣٣٨ - ١٩٠٠] من جامعة كمبرج(٥٨).

وكارفت رلايد(٥٩) [١٨٤٨ - ١٩٣١].

ويراد من نكر هؤلاء توفية لمتابعة الموضوع ، ولما لهم من أثر في مسار هذا الموضوع.

فالأول من هؤلاء الثلاثة - جرين - يذهب الى ان مبدأ(٦٠) اللذه لا يعد من الاخلاق في شيء فتنمية الخلق قمين ان يزمه. وهنا يلتقي ورأي مكدوجل الذي يذهب فيه الى ان الغرائز . تبقي متحكمة فى سلوك الفرد مالم نعمل على تربية (٦١)

العاطفة تربية اجتماعية رصينة والعاطفة هذه وبخاصة عاطفة اعتبار الذات - كفيلة بكبح جماح الغريزة.

وكذلك نجد سيد جوبيك(٦٢) ، شأنه شأن جرين ، يدعو ا لي الالتزام الاخلاقي . وهو يري أن الدراسة الأخلاقية تشمل موضوعين أساسيين هما :

١ - علم النفس وما يعالج من موضوعات تنبع من النشاط الأرادي.

٢ - علم الاجتماع وما يتصدي لها من موضوعات ترتبط بظواهر المجتماعت البشرية(٦٣).

وعند سيد جويك ، فأن الادراكات المعرفية وما تنطوي عليه من [لواحف] Dictates أو دوافع امرة زاخرة ، ما لم يهيمن عليها العقل ، تتضمن الأنفعالات بضروبها(٦٤) المختلفة ، وهنا نجده يقرن الأنفعالات بالعواطف بل يقيم الاولى على الأخيرة . ولكن علم النفس الغرضي لا يوافق على هذا الاتجاه اذ يجعل الأنفعالات وهي موصوفة بعدم الاستقرار ، متأصلة بالغرائز التي تعتبر من صميم جبلة الفرد. وان العواطف هي البلورة لتلك الأنفعالات. فالعواطف حسب المفهوم الغرضي تعد بمثابة الرواسخ التي تثبت دعائم الشخصية .

وأبرز الموضوعات التي عالجها (ريد) يمكن اجمالها في:

١ - الشعور والحياة العقلية .

٢ - الادراك الحسي والصور العقلية .

٣ - العقل ومحتوياته.

٤ - الخلق والارادة(٦٥).

٤ – مراجع الفصل الخامس

1. (1) Merz, J. Th. vol. 111. pp. 75, 78 , vol IV. op. cit. p. 394
   (11) Meztz, R. op. cit p. 747.
   (111) E.G. Boring, op. cit. pp. 459 - 460
2. London, Henry King and Co., pp. 2 - 3.
3. Ibid, p. 13
4. Ibid, p. 261
5. (1880) 2nd. ed. London, Kegan Paul.
6. Sensation and Intuition (1874), p. 1
7. Ibid , pp. 2, 3, 5, See also, pp. 17, 18, 20 , 21.
8. Ibid, pp. 248, 249, 250 ff.
9. (1) Ibid, pp. 247 - 28.
   (11). See also his article on Aesthetics written for the 9th ed. of Encyclopaedia Britannica (1886)
10. J. Sully, outlines of Psychology, London (1898)
11. , The Human Mind, a Text Book of Psychology, London 2 vols. (1892)
12. Outlines of Psychology, op. cit. p. 32.
13. The Human Mind, vol 1, pp. IFF. Sec also vol. 11, p. IFF.
14. An Essay on Laughter, London (1902)
15. Illusion, A Psychological study, London (1881)
16. Studies of Childhood, London (1895) New Impression (1904)
17. The Teacher's Handbook of Psychology (1896)
18. op. cit. p. 467.
19. M.A. Davidson, "Current Trends in clinical

Psychology" (1953)

20. Brett's History of Psychology, op cit. p. 585
21. The same article was also revised for the 11th ed. of Encyclopaedia Britannica (1911)
22. Bain A. "Mr. James Ward's Psychology" Mind vol XI No. 44 (1886)
23. A Bain, Mind, vol XII (1887) pp. 46 FF.
24. See his article "Psychological Principles" Mind vol V111, (1883) pp. 153 - 169, 465 - 486.
25. (1931) Sect., J.
26.
   (1) E.G. Boring,, op. cit. p. 463.
   (11) R. Metz, op. cit. pp. 747 - 748, 399 - 402
   (111) L.S. Hearnshaw, op. cit. p. 136.
27. Mc Dougall, W. "A Contribution towards an Improvement in Psychological Method" Mind, vol V11, (1898) p. 17
28. (1) J. Ward, Psychological Principles, 2nd ed. London (1920), First Pub. 1918, pp. 21 - 22, 57, 45 - 51.
   (11) Sec also his article in : Encyclopaedia Britannica, 11th ed. (1911) vol. XX11, pp. 547 - 604.
29. Psychological Principles, op. cit., pp. 21 - 22
30. Ibid, p. 41
31. (1) J. Ward "ModernPsychology" Mind, vol 11, No. 5 (1893), p. 56.
(11) ,Psychological Principles, op. cit. pp.

45 - 123

(111) , Psychologicaal Principles, Mind, No. 46, (1887).

32. Mind, vol 11, No. 5, (1893) op. cit. p. 79.

33. (1) Ibid, pp 59 .60

(11) See also is article "Assimilation and Association" being part 1 in Mind, vol. 11 No. 7/8 (1893) pp. 347 FF.

(111) See also his part 11 of the same article in Mind, vol. 111, (1894)

(IV) His article, "On the Definition of Psychology" in British Psychology vol. 1. part 1 (1904), pp. 3FF.

34. Being a chapter in Naturalism and Agnoticim, A Gifford Lecture Book, vol 11, delivered 1896 - 8, 3rd ed. 1906.

35. Psychology Applied to Eduction (1880)

36. Afterwards published in book-form entitled : Essays in Philosophy (1927)

37. (1) Incorporated in the book above

(11) see also H. Barker, in Mind vol XXXVI, (1927) pp. 480.

38. "Can Faith' Remove Mountains" in the above book p. 101.

39. "The Progress of Philosophy" op. cit. p. 116

40. Mechanism and Morals " op. cit. p. 232.

41. "The Progress of Philosophy" op. cit. p. 117
42. (I) H. Barker, Mind. vol XXXVI (1927) op. cit. p. 483.
(II) F.C. Bartlett, "James Ward 1843 - 1925" Anex J. Psych. vo. 36, 1925, pp. 449 - 453.
43. op. cit. vol. I. p. 186.
44. Ibid vol I. pp. 186 - 7, 205, 212 - 242.
45. Ibid, vol II. p. 186.
46. Ibid, Preface, P. XII, vol .IIpp. 97 - 151.
47. Ibid , p. 302
48. Ibid, vol. II. p. 283.
49. E.E.C. Jones, "Dr. Wards, Refutation of Dualism" Mind. vol IX, (1900) p. 370.
50. The Gifford Lectures (1911)
51. J. Ward, The Realm of Ends, Lecture V, PP. 97 - 116
52. Ibid p. 1.
53. 2nd ed. London, (1908), book II chapter XIII, XIV and XV
54. T.H. Green, Prolegomena to Ethics
(1883), see also R. Mertz, a Hundred year of British Psychology op. cit. pp. 268 ff
55. See: (I) Wm McDougall, An Introduction to Social Psychology op. cit. pp. 326, 327
56. The Methods of Ethics (1874) 6th ed. P.I.
57. (I) Ibid, pp. 1 - 2.
(II) Lecturers I and IIIin Philosophy its scope and relations ed. by J. Ward. (1902).

(111) Philosophy: its scope and Relation, op. cit.

58. (1) Methods of Ethics, op. cit. pp. 2FF., 40FF.

(11) Outlines of the History of Ethics. London (1886)

59. Lecture I in Philosophy

60. London Methven (1961)

61. (1) Outlines of the History of Ethics op. cit. pp. 10FF

(11) The Ethics of T.H.Green and H. Spencer. (1902)

(111) Lectures on the Philosophy of Kant, ed. by J. Ward ,, London (1905)

(IV) 66Green's Ethics'' Mind vol. IX. NO. 34 (1884) pp. 170. 175

62. An Introduction to social Psychology, London, Methven, 25th ed. (1943) pp. 233, ;55.

63. (1) "Hedonism and Ultimate Good" Mind, vol 11. No. 5, (1893) pp. 33FF.

(11) Unreasonable actions"Mind vol 11 No. 6, (1893) pp. 174 FF.

(111) Practical Ethics, London (1897) ch. IX.

64. An Introduction to Social Psychology. op. cit. pp. 7, 12 14, 313.

65. (1) Sec. The Metaphysics of Nature London (1905)

(11) Natural and Social Morals, London (1909)

(111) "On the Differences between Percepts and Images" Brit J. Psych. vol. 11 part 4, (1908)
(IV) The Origin of Man and of his superstitions" London (1920).

الفصل السادس

علم النفس الغرضي في نشأته الحديثة
أصوله وقواعده

١ - نفسانيون محدثون

يجدر في هذا الصدد ان يشار الى بعض علماء النفس الغرضيين ممن استهلوا الدراسات النفسية الحديثة بجهود مثرية . من هؤلاء يمكن ان نذكر كلا من جراهام ولاس [١٨٥٨ - ١٩٣٢] وتشارلس .ي. سبيرمن [١٨٦٣ - ١٩٤٥]، وتشارلس س.مايرز [١٨٧٣ - ١٩٤٧]، وجيمس دريفر [الأب] [١٨٧٣ - ١٩٥٠] وجون كارل فلوجل [١٨٨٤ - ١٩٥٥]. ولعل الدواعي الى نكرهم هنا ترجع الى :

١ - أنهم قد تأثروا بالاتجاه الغرضي في علم النفس ، طلابا وباحثين.

٢ - انهم انقطعوا تماما الى الدراسات النفسية بمنهجيتها الجديدة بعيدة عن الأغراق في التأملات الفلسفية.

٣ - ان جهودهم قد أسهمت كثيرا في استجلاب الأهتمام الى النزعة الهورمية أوالغرضية في علم النفس.

٤ - الأجماع منعقد على ان بحوثهم ومناقشاتهم قد نشطت غالية الدراسات النفسية في مسارها الجديد منذ مطلع هذا القرن.

لكن اكتمال الصورة يكون أوفى عندما يذكر أسم الكسندر فوكنر شاند(١) [١٨٥٨ - ١٩٣٦] الذي تعتبر دراساته ذات اهمية خاصة في مباحث علم النفس الغرضي ، ونلك بتأكيده على جوانب محددة في علم النفس البشري ، ولا سيما بحوثه عن العواطف والخلق.

ذكر شاند ثلاثة مكونات تتفاعل في صياغة الخلق بعد أن يتأثر

بعوامل البيئة والتنشئة . والمكونات هذه هي:

١ - الغريزة بوصفها دافعا فطريا.

٢ - الأنفعال بوصفه مصاحبا للغرائز الرئيسية ودالا على طبيعتها.

٣ - العاطفة بوصفها عامل ترسيخ وصمام أمان للأنفعالات .

وأن العناصر الثلاثة المذكورة تتساوق وثلاثة مستويات من مستويات التطور هي:

١ - مستوى التطور عند الحيوان

٢ - مستوى التطور عند الطفل

٣ - مستوى التطور عند الأنسان الراشد.

وان التساوق المذكور يمكن ان يقال عنه بأنه منتهج خطوات مسايرة لسلم التطور والنشوء . ولعل المرحلة الاولى من المراحل الثلاث الآنفة تتسم بالجمود ، نظرا الى أن عامل العقل ضئيل التأثير في تنظيم حياة المخلوقات التي تأتي دون الأنسان في سلم الحياة . اما المرحلة الثانية فتعد أنتقالية من حيث خصائصها ، لأنها تصل بين طورين من اطوار الحياة التطورية . وان الفترة الأخيرة فقط تعتبر نهاية المراحل الثلاث لما تتسم به من مرونة في انتظامها لأنها موجهة بالحياة العقلية .

فشاند ، وان سار في منهج علم النفس بشكله التجريبي الحديث ، بيد أنه ، كما يبدو ، قد تأثر بآراء جون ستوارت مل في المنطق(٢). فهو قد تقبل معظم مناقشات مل القائلة لقوانين العقل . (٣) وانتهج شاند منهج مل الخاص بتطور الخلق وتكوينه(٤،٥). وأول قانون صاغه شاند متأثرا فيه آثار العلم الحديث هو قانون

الخلق الذي يعد محور سيكولوجية . وينص القانون هذا على ان [النشاط العقلى ينجح ، لاشعوريا اول الأمر ثم شعوريا فيما بعد ، الى اتاحة نظام متسق وتنظيم نفسي متصل (٥) .] ويذهب شاند الى القول بأن قوانين العقل لا تشبه القوانين الأرتباطية : فقوانين العقل ليست جاهزة ميسورة ، انما تتطلب البحث والتحري(٦). وان في تكوين كل انسان قوتين متعارضتين أو نشاطين متناقضين : احدهما ينحو الى الأتساق والنظام والآخر يدعو الى التفكك والأنفصام ، وهذان الجانبان هما : العواطف والأنفعالات . ورغم ما بين هذين العنصرين من تمايز نظري ، ورغم ما تتباعد هاتان القوتان ، ورغم تأثيرهما البالغ في دعم ركائز الحلق من حيث البناء فهما اعتباريا متماثلان . فكلاهما يتجه الى غاية ويتابع هدفا . وكلاهما يصطفي الوسيلة الى ما ينشد من غايات . وكلاهما نظامي ومنتظم(٧) .

ان ما يبديه الأنسان من نشاط نزوعي تكتنفه حقائق نفسية لابد من الأخذ بحقيقة فروقها الفردية . فشاند يرى بأن [الحقيقة العامة الخاصة بفعالياتنا النزوعية هي ان هذه الفعاليات تجنح بجميع مظاهرها لتكوين نوع من التنظيم النفسي المتناسق الذي يمكن أن يكون سمة لشخصية الفرد...(٨).] وجعل ما يمكن تحقيقه من غايات يتطلع اليها الفرد في الحياة وفقا على مدى انتظام التكوين النفسي هذا المرتكز اساسا على السلوك النزوعي . وان النشاط الحاصل على هذه الصورة انما يقوم به الكائن العضوي ككل . وان ما يتم انجازه من اهداف يتوفر بشروط منها مثلا :

(أ) ينبغي ان يكون ثمة تبصر متضمن في النشاط المتحقق.

(ب) يجب ان يصحب النشاط ضرب من ضروب المرونة المستمرة ، ولعل هذا احد العوامل التي تكون الفوارق بين سلوك الأنسان وسلوك سائر المخلوقات التي يتصف نشاطها في الغالب بالنمطية الروتينية.

(ج) نجد شاند يتحدث عن (النظام المنسق)وعن (الغايات المنشودة) وحول (النزوع المقرر) و (النزوع القائم على الأرادة الحرة).

ولما هناك من علاقات لا تنفصم بين الغرائز والأنفعالات والعواطف ، فقد تحدث عنها شاند مدمجه . واذا ذكر ايا منها دون اردافها بالأخرى فما ذلك الأ لغرض التفصيل ليس غير. فكل عاطفة تنطوي في صميم (٩) تكوينها وفي نظامها على انفعالات توائم اغراضها ، وانها تستبعد تلك الأنفعالات التي لا تتلاءم وطبيعتها أو قد تعارضها في ما تتوخى من اهداف . وهذا بالنسبة اليه احد قوانين العاطفة أو مبادئها(١٠). فكما ان هناك في الجسم عمليات أيض مستمرة من هدم وبناء ، فكذلك توجد في الخلق عوامل تعمل متعارضه ، بعضها نزاعة الى تطلعات متسامية من حيث التكوين والبناء ، وبعضها تنشط حدرا الى مهاوي لا ترتضى لأنسان . واعتقادا بهذا(١١) الأتجاه في تكوين الخلق المبني على ما يمكن ان تكون عليه العواطف من رسوخ ، يذكر شاند قانونا أخر للعاطفة يقول فيه :

[مع اضطراد نمو الخلق تفلح العواطف وتنجح في الهيمنة على الأنفعالات والنزوات . وبأنحدار الخلق ، فأن الأنفعالات والنزوات تجد منفذا لها فتأخذ سبيلها الى تحقيق اغراضها(١٢).]

فالعاطفة هنا تعتبر ، اذن ، عاملا سائدا ومهيمنا في بناء سلم الخلق ، وهي في الوقت ذاته منظم يحفظ التوازن بين العناصر المتصارعة داخل الفرد الواحد.

ويشير شاند في ابحاثه الى ما يسمسه بـ [ثنائية الشعور(١٣)] Duality of Consciousness، وفيه يميز بين الأنتباه الحقيقي وبين موضوعه الذي يركز عليه . وينطوي التمايز هذا على ثنائية المكونات التي تدخل كعوامل في عملية الأنتباه . وان الانتباه هنا يكون مستقلا(١٤) ويتم بمعزل عن [التوافق الحسي] الذي يعد تنظيما لابد منه لتقوية الاحساس والاحتفاظ به(١٥). والمتفق عليه بين علماء النفس هو أن الوجدان والفكر والنزوع انما هي مكونات لا انفصام بينها ، وهي حالات متلازمة دائما في حياة الأنسان . ولعل هذا ما حمل شاند على ان يصوع (١٤٤)قانونا تشمل العقل(١٦) والعواطف . وخلال بحثه لموضوع الأنتباه أكد شاند على ثلاث افكار هي :

١ - ان ما يتسم به الأنتباه من وضوح لا يمكن تمليه شموليا في الأفكار أو الاحساسات التي تم تكوينها ، ولا في العملية التي تؤثر في هذا الوضوح ، بل في العملية العقلية ككل (١٧).

٢ - ان الوضوح هذا انما يتركز في وعينا وادراكنا للموقف ، بأعتبار هذا الوعي عنصرا مضافا الى الأحساسات وليس مماثلا لها ، ولا يمكن اعتباره تجريد لتلك الأحساسات.

٣ - عندما يصبح عنصر الأضافة ممكنا وحقيقة من حقائق الوظائف العقلية حينئذ يكون جزء من الخبرة المحسوسة(١٧).

لهذا فأن شاند اعتبر قوانين العقل وقوانين العواطف سيان ، طالما ان الخلق تكوين رصين يجمع بين النظامين العقلي والعاطفي في آن واحد . بي أن رجاحة اتجاهه السيكولوجي لم يحل دون تعرض منهجيته للنقد من جانب (أ.أ.روباك) ، كما يمكن انتقاده على اسس اخرى اهمها:

١ – لم يحدد على وجه الدقة ما اراده بالفاظ مثل [عقل] Mind و[الشعور الفكري أو العقلي] Noetic Consciousciousness

٢ – انتقد شاند فكرة الغرائز أو اعدادها ، لكنه لم يقدم بديلا عنها بوصفها عوامل دافعية .

٣ – عندما حاول الربط في العلاقة بين الغريزة وما يصاحبها من انفعال ، فأنه لم يتمكن من بلوغ الوضوح الذي بلغه غيره من علماء(١٨) النفس الذين عاصروه ومنهم مثلا (ستاوت)و (مكدوجل).

ولكي تكتمل السلسلة التي تتألف حلقاتها من كبار علماء النفس ومشاهيرهم ، فلابد(١٩) من نكر (سريل بيرت) ممن رسخوا الاتجاه الغرضي في هذا العلم المتطور . فهو احد طلاب مكدوجل صاحب المدرسة الغرضية في علم النفس ، لهذا نجده متأثرا بأستاذه كثيرا . ولذا فأنه تبني نظرية الغرائز ودافع عنها ، وتبني(٢٠) مسألة تكوين الشخصية وبنائها . وان ما قام به بيرت من بحوث طورها ونشرها فيما بعد تحت عنوان :

[اختبارات تجريبية في الذكاء العام(٢١)]

ومما يذكره بيرت بهذا الشأن هو ان

[ان ما يمكن تقريره تجريبيا من خصائص عقلية عند الأفراد تعد من غير شك مشكلة لها اسسها النظرية الشاملة واهميتها العلمية الواسعة(٢٢).]

وقد تمسك بيرت بهذا الأتجاه طيلة ايام حياته المهنية . ومما توخاه بيرت في بحوثه هو معرفة ما اذا كانت الوظائف العقلية العليا اشد اقترانا بالذكاء واكثر ارتباطا به مما تكون عليه الوظائف العقلية الأبسط كالتمييز الحسي ورد الفعل الحركي مثلا . وان جوانب البحث هذه قد أفضت الى اختبارات الذكاء الجمعية . وأن ما توصل اليه من نتائج أيجابية قد شجعت على ان يصمم اختبارات أخرى لها مجالها التطبيقي الطيب في مجالات التربية ، ومنها مثلا اختبارات (التشبيه)، واختبارات [تكوين الجمل] ، واختبارات [الأستدلال] وغيرها .

ولقد أصبحت هذه الأختبارات قابلة للتطبيق على اعداد كبيرة من الأطفال في وقت واحد. وبات بمقدور المعلمين حتي غير المدربين منهم تطبيقها تجريبيا في المختبرات النفسية(٢٣). ونتيجة للدراسات المرتكزة الى التحليل العاملي استطاع بيرت ان يعرف الذكاء تعريفا اجرائيا بأنه :

[كفاءة فطرية تعرفية عامة(٢٤)]

لكنه حذر من التمادي بالركون الى هذا الأتجاه كثيرا ، لأن أي اختبار في الذكاء لا يؤدى عادة بمعزل عن الظرف الذي يكون فيه الشخص المراد قياس ذكائه . اذ ان كل اختبار للذكاء انما هو في الوقت ذاته اختبار للأنفعال . فهو يذكر قائلا :

[ان اغفال أي جانب من الجوانب الأنفعالية في حالة اداء اختبارات الذكاء وتطبيقها ، قد يؤدي الى تحويل كثير من الأطفال الأسوياء الى مدارس المعوقين بوصفهم من ضعاف العقول(٢٥).]

وهذا تحذير مناسب لأن كثيرا ممن يطبقون اختبارات الذكاء يجهلون طريقة تطبيقها ويأخذون الطفل بالتزمت والصرامة ناسين ان الطفل بمحضر من الغرباء يشعرون بالأستغراب والخوف . وان التخوف خليق أن يجب نشاط العقل من الأنطلاق ، وهذا ناحية تربوية جديرة بالأعتبار.

فالجانبان المزدوجان من جوانب الحياة العقلية – الجانب الفكري والجانب الأنفعالي – ضمنها بيرت كتابه المعروف جيدا: <u>الحدث الجانح</u> (١٩٢٥)وقد تكرر طبعه عدة مرات . وفيه عزا ما يتعرض له الناشيء من جنوح الى عوامل البيئة وظروف التنشئة المخطوءة التي يتعرض لها . فما قد يتعرض له الحدث مااضطرابات انفعالية مصدرها مصدرها المحيط تأخذ به الى الجنوح (٢٦) : على انه لا ينفي المؤثرات الوراثية في هذا الشأن . ويتضافر عوامل البيئة والوراثة تضافرا لا يكون في صالح الناشيء

يؤدي الى نتائج مفزعة .

وعند ما يتحدث بيرت عن الأضطرابات الأنفعالية وما تفضي اليه من جنوح ، فأنه يجعل أساسها وراثيا متصلا بدوافع الفرد الفطرية ، أي بالغريزة . اذ انه من الناحية الوراثية يتخذ الجنوح الصيغة التالية في الغالب :

[ان اكثر انواع الجنوح شيوعا بين الأحداث اما ان تكون تعبيرا مباشرا عن بعض النزوات البدائية العامة التي تحدرت الينا فورثناها في صلب تكويننا الغريزي، أو أنها أرجاع محورة تبلورت على نحوما ، لكنها مع هذا تكون نابعة من الاستجابات الأنفعالية الفجة(٢٨).]

ونجد الأتجاه النفسي هذا متسلسلا في ما اجراه بيرت من دراسات تضمنتها كتبه ومنها مثلا .

العوامل العقلية (١٩٤٠)

الطفل المتخلف (١٩٤٦)

الاختبارات العقلية والمدرسية (١٩٤٧).

ففي الندوة التي عقد عام (١٩٤١) لمناقشة موضوع :

[هل انقضى دور مبدأ الغرائز ؟] يتسمت بيرت سبيلا ينحو فيه منحى الجمع بين الأتجاه البيولوجي والتفسير النفسي.

ففي كتبه المذكورة يصب بيرت اهتمامه على:

١ - النتائج النظرية والعملية(٢٩) للأختبارات وتطبيقاتها في المجالين التربوي والأجتماعي.

٢ - اهتم كثيرا(٣٠) بالكشف عن الموهوبين من الاطفال لينالوا رعاية توائم قدراتهم العقلية العالية بوصفهم خير ثروة للمجتمع.

٣ - اهتم بمعرفة الحدود الفاصلة بين(٣١) الطفل السوي والطفل الذي يكون بحاجة الى رعاية تربوية واجتماعية خاصة .

٤ - توخي تحقيق نظرية القدرة(٣٢،٣٣) التربوية العامة .

فالعشوائية لا يمكن أن تجد لها مجالا فيما جد بيرت في سبيله من بحوث . وكان يؤكد على العصر الذي نعيش فيه لا يحتمل التفريط بالزمن ، وعلى هذا فأن المحاولة والخطأ عادة لا يتاح لهما مجال مع المعرفة العلمية المؤكدة وكان يرمي الى ابتناء [مشروع رسم البيان النفسي].

Psychographic Scheme

ويتم فيه تمثيل القوة النسبية لمختلف سجايا الشخصية . ويمكن ان نميز بواسطته :

١ - الخصائص العقلية والأنفعالية عند الفرد.

٢ - الخصائص الموروثة والأخرى المكتسبة.

٣ - العوامل العامة والأخرى الخاصة المحددة(٣٥،٣٦).

وبالقياس الى جهود غيره من الأخصائين النفسانيين من امثال جولتن ، وكارل بيرسون ، وسبيرمن، وجودفري تومسن ، نجد بيرت يتمتع من بينهم بمكانة علمية ينفرد بها . اذ اشاد قواعد

علم النفس على اسس علمية ووسع مفاهيمه واكد على تطبيقه تربويا(٣٧) وواجتماعيا . وبمقدور المرء أن يتبين بكل سهولة كثيرا من تأثير اتجاهات مكدوجل السيكولوجية ظاهرة في بحوث بيرت منها على سبيل المثال :

١ - الدراسات الخاصة بالخصائص الجسمية والعقلية .

٢ - تطبيق الوراثة المندلية على دراسة الوراثة العقلية(٣٨).

٢- علم النفس الفسيولوجي

ثمة اكتشافات أساسية مهمة لعلم النفس وبالغة الأهمية في مجاله قام بها مختصون في الفلسجة لهم مكانتهم العلمية المشهود بها . من هؤلاء على سبيل المثال يمكن ان ننكر مثلا من :

وليم هالس ريفرز [١٨٦٢ - ١٩٢٢]

و هنري هيد [١٨٦١ - ١٩٤٠]

و تشارلس شرنجتون [١٨٥٧ - ١٩٥٢]

يمكن التأكد على أن ريفرز من بين هؤلاء وغيرهم ، قد اظهر اهتماما خاصا بعلم النفس ، وطبق ما توصل اليه من دراسات في ميدان الفسلجة على المجالات النفسية . وابرازا لدوره على سبيل المقارنة ، فلعله من الأنفع هنا ارجاء بحث ارائه بعض الوقت ، والنظر بأيجاز فيما قدمه شرنجتون وهيد اولا ، ومن ثم متابعة دراسة اراء ريفرز.

نجد اراء شرنجتون متضمنة في مؤلفه المعروف جيدا وهو: العمل المتكامل للجهاز العصبي (٣٩) المطبوع عام (١٩٠٦)

والمعاد طبعه عام [١٩٤٨] وهو كتاب قال النقاد عنه انه [لم يكن ثمة كتاب نشط الدراسات في علم النفس الفسيولوجي كهذا الكتاب (٤٠)]

تلخيصا لأبرز معالم ما حققه شرنجتون نذكر منها:

١ – توضيح فكرة وطبيعة الأفعال الأنعكاسية . فهو اول من قدم ادلة علمية على ما يسمى بالمصطلحات الحديثة بـ [التغذية الراجعة في الجهاز العصبي] . فهي مكنية في العضلات تلعب دورا بارزا في تنظيم اوضاع الجسم وحركاته .

٢ – استطاع شرنجتون تصحيح نظرية جيمس – لانج الخاصة بالأنفعالات ، وهي النظرية القائلة ان الأنفعال انما مستمد من التغيرات الحشوية والنسجية وناتج عنها . ولكن بعد دراسات مستفيضة توصل شرنجتون الى ان هذا الرأى مخطوء وان الصحيح هو أن التعبير الحشوي للأنفعال يأتي ثانويا وبالدرجة الثانية بعد ما يحصل من نشاط يحدث ضمن الحاله النفسية.

٣ – ان ما قدمه شرنجتون من اسهام مباشر لعلم النفس الحديث انما يكمن في المبادئ الخاصة التي قدمها بشأن الوظائف العصبونية ، والافعال الأنعكاسية البسيطة ، والتوصيل البسيط الذي يتم في الأعصاب ، وهكذا فكما هو معروف جيدا فأن محاولات علم النفس لتفسير السلوك والخبرات انما يعتبرها نتائج لنشاط الجهاز العصبي بجملته . وخير ما قدمه شرنجتون لعلم النفس انما يمثله جهده الذي بذله لتعليل وتفسير طبيعة تكوين الجهاز العصبي من الناحية الوظيفية

وعلاقة بنية هذا الجهاز بالتكوين النفسي ككل . وكثيرا ما كان يشير في مناقشاته التي ضمنها كتكبه المذكور الى بحوث مكدوجل الخاصة بهذا المجال وبخاصة ما يتعلق منهـا بالتعليات الجسمية – النفسية ، وبالوظائف الاجمالية ، وسواها كثير .

اما ما قدمه هيد من اسهام في ميدان علم النفس(٤١) عن طريق بحوثه الفسلجية فيتمثل بصورة أساسية في بحوثه عن الحساسية اذ لم يكن معروفا على نحو واضح قبل بحوثه ما هو نوع توزيع مناطق الحساسية الشاذة غير الطبيعية(٤٢). وقد خصص قسطا كبيرا من وقته لدراسة الحبسة Aphasia وغيرها من أضطرابات النطق والكلام . وان ما اجراه من ابحاث في هذا المجال كان من الدقة المتناهية بحيث اطلق على المناطق التي اكتشف الحساسية فيها اسم [مناطق هيد (٤٣).]وهو قد ميز أربعة انماط من الحبسة هي :

١ – الحبسة اللفظية Verbal Aphasia

٢ – الحبسة البنائية Synatactic Aphasia وهي الحبسة التي يعجز المصاب بها عن بناء الجمل وترتيب كلمات الجملة في أشكالها وعلاقاتها الصحيحة.

٣ – الحبسة الأسمية Nominal Aphasia

٤ – الحبسة الدلالية Semantic Aphasia وهي حبسة يعجز ا لمصاب بها عن فهم مدلول الكلمات والجمل وعن فهم معانيها وتراكيبها.

ربط هيد بين الانواع الأربعة الآنفة من انواع الحبسة وبين

الأضطرابات العقلية . وهذا جانب مهم أخر أسهم فيه في تطوير مفاهيم علم النفس الحديث على اسس فسلجية ضمنها كتابه المعروف :

دراسات في علم الأعصاب(١٩٢٠)

فهو قد جاء بمفهوم التخطيط الأجمالي لطبيعة جسم الأنسان ، وجعله يتخذ شكل مبدأ فسلجي – نفسي(٤٣)ليتاح به تفسير قدرة الأنسان السوي ليدرك كيفية وضع جسمه واتجاه حركاته الجسمية . ولعل هذا يعد اتماما لما كان قد بدأ به شرنجتون . وان ما اجراه هيد من بحوث خاصة بالآثار المترتبة على اختلاف الأعصاب الحسية المحيطة قد أصبحت فيما تجارب كلاسيكية ثابتة ميز فيها بين ما يسمي بالأعتلال الاولي والجانب العزمي ، وبين الحساسية الجلدية .

ولنلتفت الآن الى ما بذله ريفرز من جهود في مجال علم النفس الفسلجي وتأثره بعلم النفس الهورمي أو الغرضي. ومن طريف المفارقات ان يؤثر مكدوجل ، التلميذ ، في اراء ريفرز ، الأستاذ ، حيث كان مكدوجل ، قد التقى بريفرز في كمبرج لقاء طالب واستاذ . لكن الطالب اثر فيما بعد في اتجاهات استاذه(٤٤) العلمية ، وبخاصة ما يتعلق بالغريزة منها.

ففي تقديم لكتاب ريفرز المسمي :

علم النفس والسياسة (١٩٢٣)

يذكر جي . اليوت سمث بأن [ريفرز قد اتجه الى مشكلات السياسة والتربية والتعليم توجها خاصا واكتسب فهما شاملا لمدى أهمية علم النفس وعلم الاجتماع وان ما احرزه من تفهم وأستيعابانما ناله من خلال دراساته عن الاعراق البشرية(٤٥).]

وفي هذا الكتاب نفسه يتحدث (٤٦) ريفرز عن [الغريزة والمجتمع] ويعرف الغريزة تعريفا أوليا بأنها [استعداد موروث يؤثر في السلوك]. وهذا تعريف يعد موسعا وغير محدد(٤٧) ، فهو ينطوي على نشدان الهدف والبحث الغرضي دون تخصيص مقرر. كما يشمل التعريف هذا جوانب التكوين العقلي والخبرة الفردية المتاحة(٤٨) في البيئة .

ففي كتاب سابق لكتاب المذكور ، بعنوان :

الغريزة واللاشعور (١٩٢٠)

فسر ريفرز السلوك على أسس فسيولوجية(٤٩) وسيكولوجية فقد اشار الى أن العلاقة بين لحاء الدفاع والسرير البصري انما هي علاقة شبيهة(٥٠) بتلك العلاقة القائمة بين الحساسية الأولية والحساسية المميزة . واشار الى نوع آخر من الحساية اسماها الحساسية (العميقة) ووصفها بأنها استجابة الى الضغط وضروب أخرى من الحركة . وكان شديد الاهتمام بتكيف الانسان سلوكيا اذ يذكر :

[علينا ان نهتم في جميع الحالات بالوسائل التي يتكيف بها السلوك سواء اكان السلوك هذا يعني الانسان أم يخص الحيوان ، لتتعرف على طبيعة ما يهتم به البشر من حاجاته وما يسعى اليها الحيوان من ضروراته.(٥١)

واكد على ان الخبرة التي تصبح لا شعورية عن طريق الكبت فهي اما ان تخص العقل ولا سيما الجانب الفعال منه ، أو انها ذات طبيعة فكرية كبتت لارتباطها بعناصر الفعالية(٥٢). اراد ريفرز بهذا الرأي أن يقيم العلاقة بين الغريزة والوجدان . وأن مثل هذه العلاقة توجي بأن الوظيفة الخاصة بالشعور انما هي وظيفة تقوم بدون الخازن للأستجابات الغريزية ، وعندما تقترن هذه بالخبرة المرتبطة بها قد ينشأ عنها الم وامتعاض(٥٣).وقد رفض ريفرز فكرة حصر سلوك الانسان بجانب الذكاء وجعله قائما كلية على التبصر. ورفض كذلك فكرة جعل سلوك الحيوان قائما كله على الغريزة . فلا سلوك الانسان كله موسوم بالذكاء ولا سلوك الحيوان بجملته منسوب الى الغريزة وحدها . فهو يعتقد(٥٤) بأنه حتى سلوك الحشرة قمين بأن يتصف بالمرونة والتكيف(٥٥).

ان ما يحصل من استجابات وأرجاع قوية في سلوك(٥٦) الانسان والحيوان اطلق عليها ريفرز تعبير [الكل - والا - فلا]، واعتبره مبدأ شامل التطبيق بصح تعميمه على ما هناك من علاقات بين المنبه والاحساس أو الادراك ، أو العلاقة والصلة بين المنبه والرجع أو الاستجابه(٥٧). ولهذا فهو قد رد معادلة فخنر ورفضها وهي المعادلة القائلة بأن ايه علاقة دقيقة في هذاه الحالة تكون معدومة تماما في حالة وجود الحساسية الاولية . واجد أنه

ليس ثمة علاقة كهذه بين :

[الظروف التي تثير الأستجابه الانفعالية ورد الفعل الغريزي وبين قوة الأستجابة هذه ورد الفعل الغريزي هذا عند الطفل أو عند الفرد الكبير ممن لم يتحكموا بأنفعالاتهم بعد لافتقارهم الى الترويض الذاتي(٥٨).]

كان ريفرز يرمي الي تقديم نظرية بيولوجية لتفسير العصاب النفسيPsychorievrosisوهو العصاب الذي ينشأ من جزاء الصراع بين الانا والهو ، ويغاير الذهان في ان المريض بالعصاب يدرك انه مريض ، ويخالف العصاب الخلقي Character Neurosis الذي يتسبب في اعراض سماتةلاالقية مجانفة للأعراق الاجتماعية ،ويختلف عن العصاب الحقيقي Actual Neurosis الذي يرتبط بالحاضر ولا يرجع الى الماضي .

وللعصاب النفسي فروعه هي :

١ - الهستيريا التحولية

٢ - الهستيريا الحصارية

٣ - الهستيريا التسلطية(٥٩)

وهذه جميعها تشترك في سمات عامة ، وفي المستطاع علاجها بالتحليل النفسي.

ميز ريفرز بين الكف الناشيء عن عوامل فسلجية والكف الناجم عن عوامل نفسية . وأوضح ان هناك صلة بين الاثنين طالما انه لا يمكن الفصل بين التفاعل النفسي والجسمي . وهنا امكن تحديد مفهوم [الخبرة اللاشعورية] بتعريفها بأنها تلك التي لا تستحضر في مجال الشعور الا في حالة توفر ظروف ، منها النوم أو التنويم

المغناطيسي مثلا . وعرف ريفرز [الكبت] بأنه طرد الخبرة من مجال الشعور . وعرف [الكبح] بأنه عملية عفوية تصبح الخبرة فيها لا شعورية ولكن بصورة غير(٦٠)متعمدة . وهذا كله يوضح بجلاء مدى تأثير النزعة الغرضية في علم النفس في اتجاهات ريفرز النفسية . ولعل مما رسخ افكاره النفسية هو أنه توخي في تفسير الظواهر النفسية جانب الربط بين العلة والمعلول على اسس علمية جعل مصدرها حياة الأنسان ضمن اطار البيئة بمفهومها الشامل وبخاصة البيئة الأجتماعية منها .

٣ – مراجع الفصل السادس

1. See Shand's: The Foundations of Character, (1914), 3rd. ed. (1927)

2. The Foundations of Character (1914), p. 13.

3. J.S. Mill, System of Logic, Book, 111

4. Ibid, book, VI, ch. IV.

5. op. cit., p. 21

6. CF. Mill's Logic.

7. Ibid, p. 20.

8. Ibid, p. 21

9. (1) The Foundations of Character

(11) See also Shand's Article "The Unity of Consciousness" Mind, vol. XVI, (1891).

10. The Foundations of Character, op. cit. p. 27.

11. Ibid.

12. Ibid, p. 62

13. Analysis of Attention" Mind, vol. 111, No. 12, p. 455.

14. Ibid, p. 452.

15. Ibid, p. 473.

16. "Feeling and Thought" Mind, vol. 111, No. 28, (1898) p. 477.

17. Ibid, p. 479

18. Ibid, p. 485.

19. The Psychology of Character, London, (1931), p. 19.

See also: Al Bassam, A.A. A Study of Character

Traits in School children, unpublished Ph.D. Thesis (1951), in the Library of London University, p. 15.

20. (1) Valentine, C.W. "Cyril Burt: A Biographical Sketch and Appreciation" in studies in Psychology presented to Cyril Burt. ed. by Banks, C. and Broadhurst, P.L. University of London, Press, (1965).

(11) Burt, C. "An Autobiographical Sketch" in occupational Psychology, vol. XXIII, (1949) pp. 9 - 20.

21. B.J. Psych. vol. III, Parts, 1 and 2 (1909).

22. Ibid.

23. B.J. Psych. vol. III, (1909) op. cit.

24. Mental and Scholastic Tests, London, (1947).

25. Ibid, p. 16.

26. The Young Delinquent, ch, III.

27. Ibid, p. 63.

28. (1) Ibid, p. 422.

(11) See also his How the Mind Works, ed. by Cyril Burt, (1933), 2nd ed. 1945.

29. B.J. Psych. vols. XI, XIII (1941 - 1943).

30. See: Mental and Scholastic Tests, London, (1947)

31. See: "The Principles of Vocational Guidance" B.J. Psych. vol. XIV, Part 4 (1924).

32. See: The Backward child, London (1946)

33. See: The Factors of The Mind, London, (1940).

34. Ibid, p. 27.
35. Ibid, p. 27.
36. The Sub-normal Mind (1955), p. 22.
37. See For example, Burt's Following articles
(1) Heredity and Intelligence" B.J. Pysch. vol. XII 1957, pp. 33 - 63.
(11) "The Relative Influence of Heredity and Environment" idem. pp. 99 - 104.
(111) "The Distribution of Intelligence" B.J. Psych. vol. XLXIII (1957), pp. 161 - 171.
(IV) "The Inheritance of Mental Ability" Eugen Review, vol XLIX (1957), pp. 137 - 141.
38. "Causal Explanation in Psychology" Studies in Psychology, op. cit. p. 27.
39. Another ed. (1948)
40. E.G. Boring, op. cit. p. 492.
41. Studies - Neurology (1920). vol. 2, pp. 607 - 7
42. Obituary Notices of Fellows of The Royal Society, (1939 - 1941), vol 33, p. 668.
43. (1) Ibid, p. 681.
(11) C. Oldfield and O.L. Zangwill, B.J. Psych, vol. XXXII (1942), vol. XXXII (1943)
44. C.S. Myers, "The Influence of the Late W.H. Rivers" in Psychology and Politics by W.H.R. Rivers London (1923), p. 154.
45. Elliot Smith, Prefatory note in Psychology and Politics by Rivers, p. VI.
46. Psychology and Politics, p. 3

47. Ibid.
48. Ibid, p. 29.
49. (1) Instinct and the Unconscious Cambridge, (1920)
(11) See also: Brain, vol. XX VIII (1905), pp. 99, 116
(111) Brain, vol. XXI (1908), pp. 323, 369.
50. (1) Instinct and the Unconscious op. cit., p. 27, and 25.
(11) Brain, vol. XXXIV (1911 - 12) p. 102.
(111) Brain, vol. XVII, (1893), p. 1
(IV) Brain, vol. XVII (1894) p. 339.
51. Instinct and the Unconscious, op. cit. p. 21.
52. Ibid, pp. 37 - 38
53. Ibid, pp. 37 - 38.
54. Ibid, pp. 40 - 41.
55. (1) Ibid, p. 45, and p. 71.
(11) Brain, vol. XL (1917), p. 15.
56. Journal of Psych. vol. XLV (1912).
57. (1) Instinct and the Unconscious, op. cit. p. 47.
(11) Brain, vol XIX (1896) p. 153.
58. Ibid, p. 47.
59. Ibid, p. 47.
60. (1) Ibid.
(11) C.S. Myers "The Influence of the Late W.H.R. Rivers" op. cit. pp. 169 ff.
(111) G. Elliot Smith, Preface in River, Conflict

and Dream (1923).
(1V) W.H.R. Rivers: Conflict and Dream, op. cit.
(V) , Medicine, Magic and Religion London, (1927)
(VI) , Essays on the Depopulation of Melanesia, Cambridge (1922)
(VII) , History and Ethnology, London (1922.

الفصل السابع

الأصول الأولى للنظرية الغرضية

١ - السيكولوجية الهورمية والكلية

ان المتخصصين بعلم النفس الذين يرون بأن اهم ما ينبغي ان يعنى به علم النفس هي الحوافز والأغراض والدوافع ، يوصفون عادة بأنهم نفسانيون غرضيون أو هورميون. وأشهر هؤلاء وأهمهم هو وليم مكدوجل. ويطلق ، من جهة أخرى ، على اولئك النفسانيين الذين يصرون على أن الفرد يجب ان ينظر اليه ككل ، بأنهم نفسانيون يعنون بالذات ، أو انهم نفسانيون يهتمون بالشخصية او انهم نفسانيون يلتفتون الى الجوانب العضوية . ولتأكيدهم العام هذا على وحدة الفرد ، فقد نعتهم [ودورث] بـ [الكليين(١)] Holistic

٢ - بعض الحقائق الغرضية

ان لفظة [الغرض] Purpose وما يشتق منه من مشتقات مثل [غرضي] Purposive و [هادف] Purposeful و[غرضية] Purposivism وما ماثلها ، تستعمل ضمن سياقات متفاوتة. فكلمة [غرضي] مثلا قد يستخدمها المختصون بعلم الميكانيكي ليصفوا بها عمل الآلة أو الماكنة . وقد يستعملها من الناحية الأخرى الحيويون ليشيروا بذلك الى سلوك هادف مستبصر ، يقوم به الكائن العضوي عن وعي وأدراك، فمكدوجل ، مثلا ، قد دأب على استعمال هذا المصطلح بمعناه الاخير هذا حتى تحول فيما بعد الى استخدام لفظة [هورمي] Hormic . ومن ثم استعمل كلتا

اللفظتين بمعناها المترادف. ويبدو انه ادرك ما يكتنف لفظه [غرضي] من مصاعب لهذا السبب الى جانب اسباب أخرى حذر من مغبة التمادي في الركون الى علم النفس(٢) الميكانيكي.

نجد مكدوجل يختلف عن بعض المختصين بعلم النفس من امثال [هـ .س. وارين] الذي يختار من الألفاظ والمصطلحات ما يوافق اراءه ومناقشاته ويعزف عما - يخالف منهجه ،فمكدوجل يرى ان [الغرضي] و [الجانب الغرضي] انما هو منظم وموجه وهادف . فهو يرى أن :

[النشاط الغرضي اصطفائي بطبيعته . وهذه هي احدى خصائصه التي تميزه بصورة موضوعية عن العملية الآلية الميكانيكية. فالكائن العضوي مدفوعا بدوافعه الفطرية لينشد غرضا ، وهو يهدف الى تحقيق غاية خاصة به تخدمه بيولوجيا وتستبقيه نوعيا(٤)]

فوجهة النظر المتضمنة في الاقتباس الأنفي تؤكد على ما ينطوي عليه السلوك من هدف ومن اغراض ومقاصد تحافظ على نوعية وحياة الكائن العضوي خلال نشاطه في البيئة . وهذا من الاركان التي تميز علم النفس الغرضي أو الهورمي عن سواه.

ويذهب الفريد سيد جويك الى أن الغرض يمت بصلة وطيدة الى المعنى المنشود. وعنده أن الحقيقة Truth هي غرضية(٥). ويرى [وودورث] بأن [الغرض حقيقة حاصلة في الحياة الأنسانية، اما في حياة الحيوان ، فأن لم يكن الغرض نفسه ، فأن السعي بكد ازاء هدف يعتبر تعبيرا عن الغرض ذاته(٦)] وعند [هوفدنك] ان الغرض مقيد بالأفكار ومرتبط

بالمشاعر والأحاسيس(٧) والنزوات وبالدوافع . وبالنسبة الى سريل بيرت فان الغرض ينطوى على جانب شعورى مدرك بفضل تسميته [المقصد] أو [النية]. وان التعبير [غرض] ينطوي على تكهن بما سيكون وبما يحتمل أن يؤول اليه المقصد من نتائج(٨). وهذه الاراء كافة تتساوق وما ذهب اليه مكدوجل اذ اكد على ان ثمة معنى موضوعيا متضمن في الجانب الغرضي من السلوك(٩). نجد اصداء هذا الأتجاه منبثة في ثنايا كتاب [دالين بندرا] الموسوم

البواعث تفسير جديد منتظم ١٩٥٩)

ويؤكد [كونراد لورينز] على [ان كثيرا من الجمال والأنبهار في الطبيعة انما هو مبني على حقيقة ان الحياة العضوية موجهة بحكم صياغتها وتكوينها ازاء اهداف محددة(١٠).] فيضرب مثلا ما كلبا حين يريد من صاحبه أن يفتح الباب او حنفية الماء ليشرب من حوض تحتها فأنه يتودد على نحو بحركات خاصة مدفوعا ببواعث هادفة تؤثر في استجابة صاحبة ليؤدي الغرض المطلوب(١١).] وايمانا من كثير من المختصين بعلم النفس ، ومن بينهم [ن تنبرجن]، مثلا ، الذي يتحدث عن [علم اجتماع النبات]،و [علم اجتماع الحيوان] اما علم اجتماع الأنسان فموضوع مسلم بصحته(١٢) [١٩٥٩] فهو ينكر بأنه في علم اجتماع الحيوان يوجد دائما ضرب من ضروب روح التعاون أو معناه في الأقل. ولدى التحدث عن التعاون فاننا نفكر في اعماق تفكيرنا بان هناك فكرة ،

أجلية كانت أم باهتة ، فالفكرة هذه تتضمن متجه الغرض(١٣).

ويلاحظ أن لفظة [غرض] تستخدم أحيانا بشكل موسع لتشمل اي نشاط يفضي الى غاية ، وهذا ما تراد اليه، وهي تستعمل في الغالب بصورة محددة في حالات يكون فيها لدى الفرد شيء من التصور المسبق والتبصر السالف لتلك الغاية. ويتوقف التبصر المسبق هذا على الذاكرة . وقد ميز [وودورث] في كتابه:

علم النفس: دراسة في الحياة العقلية [١٩٥٠]

بين التبصر السابق Foresight

والتبصر اللاحق Hindsight . فالاول من الأنواع هذه انما هو استشراق الهدف قبل بلوغه ونيله . والثالث من هذه الضروب انما هؤلاء دراك بأن التوجه نحو الهدف صائب ولكن بعد اجراء المحاولات . اما الثاني منها فهو يجمع بين خصائص الأثنين معا.

ان الفكرة المبحوثة هنا قد تناولها بالبحث والتمحيص باحثون منهم مثلا مكدوجل(١٤) و [وودورث(١٥)] و[ر.لاتا(١٦)]. ويذهب الاخير منهم الى أن الغرض يختلف عن [المقصد-Intention ، في كونه مقتصرا على حقيقة العناصر الكائنة في الذهن . وانطلاقا من هذا الاعتقاد ، فأن [لاتا] قد عرف الغرض بأنه [منطلق في عمل تم تصوره مسبقا للمضي نحو غاية بعيدة(١٧).] ويجاري هذه النزعة قول [ر. هـ. ثوليس ،١٩٥٨] اذ يذكر :

[اننا ننزع الى أن نضفي تعليلا غرضيا على ما نلاحظ من نشاط

يتخذ منازع شتى بيد أنها منازع تشترك في حقيقة واحدة هي الأنتهاء الى هدف واحد محدد(١٨).]

ومثل على نلك يضرب سلوك الطيور في بناء اعشاش لها . والملاحظ أن اراء [لاتا] و[ثوليس] منسجمة تماما مع ما ذهب اليه مكدوجل من أراء غرضية أو هورمية ،وقد استخدم اللفظين فيما بعد مترادفين. ويبدو ان الطرافة العلمية قد استهوت الباحثين المختصين الذين وجدوا فى الاتجاهات النفسية الغرضية تفسيرا جديدا اضفى حيوية ناضحة على علم النفس . [فموريس أ. كوبلاند] مثلا ، يؤكد على أن كل سلوك يمكن تفسيره تفسيرا غائيا . وان ما يترتب على هذه التفسيرات من تطبيقات انما تنطوي على فكرة مؤداها بأن مؤثرات اللواحق تتقرر بفعل موجبات السوابق . اى ان الغاية تسطفى او تقرر على نحو معين نوع الأستجابة التي ستنشأ أو ستلي(١٩). والفكرة المتضمنة في مثل هذا التبرير هي ، كما يبدو ، ان النتائج تؤثر في الأسباب والعلل أو تثيرها: وان فكرة كهذه سواء كانت مقبولة ام غير مقبولة ، فأن تجدر ملاحظته في الواقع هو انها فكرة تمثل وجهة نظر طبيعة وتطورية نشوئية.

ان الموقف التطوري هذا كان سمة من سمات مستهل القرن العشرين هذا وسايره خلال رحلته الزمنية التي شهدت تحولات علمية ضخمة وانجازات في المعرفة الأنسانية هائلة. فالأتجاه الذي ساد بين مختلف علما النفس هو ان النشاط العضوي يتضمن اغراضا واضحة وان لم يكن يعي بأنه انما هو ناشط على هذه

الصورة أو تلك . فهو متهيئ ومتكيف الى تأمين نتائج والاتيان بها نقر بها ونحن نرقبها بأنها ذات قيمة للكائن العضوي(٢٠).

متابعة لهذا النهج العلمي في التفسير الغرضي نجد [جي.س.جرندلي] يفسر سلوك الأنسان والحيوان بوجه عادة نحو هدف أو غاية ، وللعقل في سلوك الأنسان نصيب أوفر(٢١،٢٢). ويذكر [جرندلي] بوضوح بأن اراءه هذه مستمدة مما يذكره مكدوجل في كتابه:

الموجز في علم النفس [١٩٢٣]

ويحسب [جرندلي] ان النظريات البسيطة التي مهدت الأساس الفسلجي للارتباطية، ونظريات [سلسلة الانعكاسات] و [الأنعكاسات الشرطية] قد اخفقت في تعليل سلوك الحيوان وطبيعة هذا السلوك(٢٣) ونجد [س. جدسن هيريك] يذكر بأن بعض ما يصدر عن الحيوان من سلوك كالأرجاع مثلا ، و [الأنتحاء النمونجي] والانعكاس ، أو الغريزة ، يتضمن اطارا يجمع بين التقدم والارتداد(٢٤) ، فهو سلوك ذو اطار مرجعي . والنشاطات السائرة المضطردة يقال عنها بأنها ذات قيمة بيولوجية غايتها خدمة النوع الحيواني بقدر ما تخدم الفرد نفسه . فهو سلوك(٢٥) تكيفي. ويبدو ان هيريك كان اكثر حذرا وابعد تحفظا من [طولمن] الذي يذكر في بحث له بعنوان :

السلوكية والغرض (١٩٢٥) بأن اي توجه وأيه حركة انما هي

تعبير سلوك(٢٦) غرضي.

وقد اكد [طولمن] في نفس الوقت على سلوك الحيوان وتعلم الأنسان يجب النظر اليهما في سياق السعي نحو هدف او تحقيق غرضي ، يحدوه عدد من الدوافع الفطرية او المكتسبة التي تمثل مطالع تعرف اولي ، ويفضي السلوك هذا الى اكتساب نوع من التكيف الرامي الى غرض او هدف يمكن وسمه بأنه تعرف(٢٧) نهائي.

تلخيصا لما سلف نكره يمكن القول بأن التعبير [غرض] قد استخدم من جانب المختصين بعلم النفس والفلاسفة والمختصين بعلوم الحياة استخداما متفاوتا ويغلب عليه التباين. فهو قد استعمل احيانا بصورة واسعة وعلى نحو يتسم بالابهام. وتم استعماله احيانا بصورة محددة ولكن مع شيء من الوضوح والمبحث الرئيسي لتطبيقاته هو ان ما ينبغي الاعتداد به هي الاحداث وليست الاشياء المجردة ، والنزعات الدينامية لا الوحدات الاستاتيكية الثابتة أو الفعالات الجامدة .

ان ما يحفظ على الفرد أو النوع من سلوك مستبصر موجه انما هو ما ينطوي عليه ذلك السلوك من دلالة جوهرية . فالاشتقاق الوصفي [هادف] قد يعني :[غرضي] ولعله يشير الى [حيوي] أو [دافع بأتجاه] أو [سالك الى نشاط] كما يتضمن معنى [نزوعي] و[نازع الى] ، [راغب] [ارادي] ، [ذا بغية]، [هادف الى شعوريا أو لا شعوريا] ، [ذا طاقة ، حيوي] ، [ضاغط بأتجاه]، [مكافح من أجل]، [تنظيم ذاتي] ، [تنظيم شعوري]، [رام الى هدف]، [متبصر في هدف]، [يهدف الى غاية]...الخ وان هذه التعابير والمشتقات

كلها تنطوي على معنى واحد محدد وهو : خدمة الكائن العضوي.

٣ - تأثير نظامين علمين

اذا ما تعقبنا علم النفس عبر رحلته التاريخية منذ ايام ديكارت حتى عهد لوك وما بعده ، نجده(٢٨) يعكس أساسا تأثير نظامين علمين تاريخيين هما : الخط الأبوليني والخط الديانوسي Apollonian and Dionysian ينطوي الاول منهما على النزعة الألية ، ويمثل ثانيهما الاتجاه العقلي الاستدلالي. ولكل منهما اصوله المنغرسة في مطاوي الفلسفة اليونانية . وان كلا النظامين قد هيمنا ، على ما يبدو ، على الثقافة الاوربية وعلى الفكر الحضاري انذاك وعبر فترة من الحقب التاريخية وعبر القرون الخالية .. وباقتراب عهد النهضة وجدت الفكرة الابولينية نوعا من التقبل من لدن الباحثين ، وقد وجدت دعما لها في اراء ديكارت الميكانيكية. فهي قد اسندتها اراء ديكارت الفسيولوجية ، والفت متكأ يدعمها في ابحاث نيوتن الفيزياوية . وخلال القرن الثامن عشر أصبحت الفكرة الأبولينية تقليعة ذلك العصر فكان تأثيرها على علم النفس ملحوظا.

فجون لوك ، مثلا، قد التقط لفظة [فكرة] من افلاطون واستمد تعبير [الادراك الحسي] وما يستند اليه من نظرية قديمة من [ديموقريطس] وأضفى عليهما معنى جديدا. وتبنى لوك مبدأ الارتباط وقد اقتفى اثره في هذا الاتجاه ديفيد هيوم ومنه امتدت السلسلة الى ديفيد هارتلي ، كما مر هذا من قبل. وكانت الاصول

الميكانيكية ما تزال سائدة في القرن التاسع عشر . وقد طورها كثيرا الباحثون الذين سلفت الاشارة الى معظمهم ، ومنهم مل ومل [الأب والابن]، و [سبنسر] و [باين] وأضرابهم ، فكان [باين] هو الذي ضم النظامين في بحوثه الفلسفية والنفسية .

تلا ذلك ان اصبح علم النفس علما اكثر ثم جنح الى النواحي التجريبية. ومع هذا فأن المبدأ الابوليني الميكانيكي قد سيطر على التفكير في اوربا خلال القرن التاسع عشر بأكمله . لكنه انتهى اخيرا الك طريق مسدود ، على حد تعبير مكدوجل ، حتى بلغ مرحلة [السلوكيـــة الراديكاليـــة(٢٩)] Radical Behaviourism

ان الفكرة الديانوسية تتعارض تماما والنظام الابوليني ، والفكرة الرئيسية المتضمنة في المبدأ الديانوسى هي انه ينبغي اعتبار الأنسان جزء لا يتجزأ من الطبيعة(٣٠) بمعناها الشامل . فالأنسان طبقا لهذه الفكرة يمكن ان يستشعر في ذاته طبيعة زاخرة تطفح على شكل اندفاعات أو اشتهاءات ، أو دوافع تنخزه فيسعى ازاء اهداف محددة . وينكر بعض الباحثين بأن مثل هذا التفسير الهورمي انما اكتسب(٣١) صياغته العلمية على يدي ارسطو.

فالمبدأ الديانوسي ، شأنه شأن المبدأ الابوليني ، قد أثر عبر العصور في مجرى التيارات الفكرية من عدة زوايا . فأحياؤه في القرن التاسع عشر مثلا ، قد وجد تعبيرا له في الحركة الرومانتيكية التي ردد اصداءها كل من [وليم وردورث] [١٧٧٠ - ١٨٥٠] و [صموئيل تيلور كوليرج] [١٧٧٢ - ١٨٣٤] وغيرهما من شعراء

الطبيعة . وقد ازدهرت في الوقت ذاته في الدراسات الفلسفية لباحثين أمثال دوجالد ستيورارت(٣٢) [١٧٥٣ - ١٨٢٨] ، وفرانسس هتشسن(٣٣) [١٦٩٩٢ - ١٧٥٢] وسواهما . وقد تجلت آثار النزعة الديانوسية بوضوح في مذهب اللذة الذي شاع في علم النفس عند جرمي بنثام ، وهو المذهب القائل ان اللذة والألم هما اهم ما يحفز الفرد الى النشاط . وان الفكرة هذه قد هون من شأنها وأطرحها جانبا باحثون بارزون ، ومنهم مكدوجل الذي وصفها(٣٤) بأنها [مسخرة].

وحوالى منتصف القرن المنصرم [القرن التاسع عشر] ، قد تبدت أثار النظام الديانوسي في كتابات مفكرين أخرين امثال شوبنهاور وهارتمان(٥٣). ففي بحوث الاول منهما نجد الفكرة الديانوسية سائدة في دعوته التي اكد فيها على اهمية الارادة Will وفي توكيده على قيمة علم النفس الطوعي الاختياري أو الهورمي. وقد احتذى المنهج الديانوسي باحثون لهم مكانتهم العلمية منهم مثلا [ستاوت] و [وودورث] و[كولبيه] فهم قد اكدوا على علم النفس هورمي غرضي.

ولعل سؤالا يثار يتصل بما يختلف فيه علم النفس الديانوسي عن سواه. وان الأجابة لميسوره اذا ما تتبعنا آثار التفكير العلمي والمنهجية الطرائفية التي انتهجها مكدوجل . فعنده ان الديانوسية والهورمية سيان . وان التعبيرين متواشجان ويتوقف احدهما على الآخر. فعلم النفس الهورمي المبني على فكرة ديانوسية فضفاضة يرى في الدافع الى النشاط اساسا مشتركا يجمع بين اساسيات تكوين الأنسان والحيوان(٣٦). وعلم النفس الهورمي عند

مكدوجل ، بعد، يجعل من الغريزة(٣٧) اساسا لطبيعة النشاط عند كل من الأنسان والحيوان . ويظهر أن مكدوجل قد تبنى هذا الضرب من التفكير لأنه يرفع الحواجز بين الأنسان والحيوان ، فلا تكون هناك فجوة في مسار التطور سواء بالنسبة للأنسان أم للحيوان . فالأنسان تبعا لهذه النظرة راسخ القدم في الطبيعة ، والحيوان لم يعد اشبه بالآلة كما كان الظن من قبل فكل من الانسان والحيوان يحمل في اطوائه دوافعه الى النشاط والحياة .

لقد وجد المبدأ الديانوسي سبيله الى بحوث كثيرين من المختصين بالتربية وعلم النفس واشهر هؤلاء هم :

١ – س. الكسندر
٢ – توماس بيرسي نن
٣ – ج. ف. ستاوت
٤ – هنري بيرغسون
٥ – جون ديوي
٦ – مورتن ببرنس
٧ – بيرلتن ألين
٨ – وليم جيمس
٩ – سيجموند فرويد
١٠ – الفريد ادلر
١١ – كارل غوستاف يونج

. وفي كتابات علماء نفس الجشتالت ، وفي بحوث بعض المختصين في الفسلجة أمثال:

ج.س. هالدين

وجيننكز

لكن ابرز هؤلاء في مجال الأخذ بمنهجية علم النفس الهورمي هو مكدوجل.

٤ - مراجع الفصل السابع

1. Contemporary Schools of Psychology, op. cit. p. 213.
2. Purposive or Mechanical Psychology, Psych. Review. vol. 30 (1923), pp. 273, 274.
3. "A Study of Purpose" J. Psych. and Scientific Method" vol XIII, (1916)
4. (1) Wm. Mc. Dougall "Purposive Experience" Pedagogical Seminary, vol. 33, (1926) PP. 354, 353.
   (11) "Purposive Striving As a Fundamental Category of Psychology" Psychological Review, vol 32, No. 2 (1925) pp. 226 - 232.
5. "Truth and Purpose" Mind, vol XXXIII, No. 132 (1924) pp. 388, 397.
6. "Dynamic Psychology" Psychologies of 1925, ed. Carl Murchison, op. cit. p. 116.
7. Outline of Psychology, p. 328.
8. "Is the Doctrine of Instinct Dead" A Symposium B.J. Ed. Psych. vol XI., part 3, Nov. 1, 1941, p. 160.
9. Dallin Bindra, Motivation: A Systematic Reinterpretation, New York, (1959) p. 52.
10. The Herring Gull's World, by N. Tinbergen, (1953), p. XI.
11. King Solomon's Ring, London, Methven,

(1954)
12. Social Behaviour in Animals, (1959). pp. 1 - 2.
13. Ibid p. 2.
14. "Purpose Experience" Ped. Semi. vol. 33 (1926) op. cit. p. 356.
15. Psychology, op. cit. p. 390.
16. "Purpose" Proceedings of the Aristelian Society, vol VIII, (1907 - 8) p. 17.
17. Ibid pp. 17 - 18.
18. General and Social Psychology, London, (1958), p. 54.
19. "Desire, Choice, and Purpose from a Natural evolutionary standpoint" Psych. Rev. July (1926), vol 33, No. 4. pp. 247 - 8
20. Mind in Evolution (1901), op. cit. p. 126
21. "The Natural Basis of Purposive Activity" Brit J. Psych. vol XVIII, (1927) pp. 168 - 9.
22. Ibid, p. 168.
23. Ibid, p. 168.
24. "The Natural History of Purpose" Psych. Rev. vol. 32. (1925) p. 419.
25. Ibid, pp. 419, 423.
26. E.C. Tolman,"Behaviourism and Purpose" J. Of Philosophy, vol. 22 (1925), p. 36 - 41.
27. "Purpose and Cognition: The Determiners of Animal Learning" Psyd Rev. vol 32. (1925), op.

cit. 285.

28. (1) Wm . Mc Dougall "The Present Chaos in Psychology and the Way out" J. Philos. Studies. vol V, (1930)

pp. 353 - 358.

(11) An Introduction to Social Psychology, 25th ed. (1943) pp. 488 - 492.

29. J. Philos Studies, op. cit. vol. 5 (1930)

30 (1) Mc Dougall, Wm., J. Philos. Studies. Vol. V. op. cit. (1930), pp. 354 - 5.

(11) AN Introduction to Social Psychology, op. cit. pp.. 488 FF

31. J.Philos Studies, op. cit. p. 355.

32. Biographical Memories of Adam Smith, (1811)

33 Sec. British Moralists, edited by L.A.. Sell Bigge. Vol. 1, (1897), pp. 69 - 177.

34. (1) An Outline of Psychogogy, (1923)

pp. 192, 193, 268.

(11) An Introduction to Social Psychology, op. cit.

36. Ibid, p. 360.

37. (1) Ibid, p. 360

(11) An Introduction to Social psychology, op. cit. p. 459.

الفصل الثامن

ارا ءبعض الغرضيين من علما ءالنفس

١- هورمية وهورميون

قبل تناول نظرية مكدوجل الهورمية بشيء من التفصيل ، لعله من المجدي التوفر الآن على موقف بعض الهورميين المعروفين ممن أثرت آراؤهم في اتجاهات مكدوجل الغرضية بشكل مباشر.

ولنبدأ بصموئيل الكسندر [١٨٥٩ - ١٩٣٨] الذي ميز بين العقل وموضوعه . فعندما يدرك المرء شجرة ادراكا حسيا مثلا ، يجب ان يكون هناك تمييز بين خبرة ما تم ادراكه وبين الشيء المدرك ذاته ، ينبغي ان يميز الفرد بين الخبرة المتكونة وبين الشجرة التي تم ادراكها . فعملية الادراك خبرة والشيء الذي تتأثر به اية حاسة هو موضوع لا يتغير من كيانه شيء. وانما الذي يتغير هو الحالة النفسية التي يكون عليها المرء ساعة الادراك . لهذا فأن الكسندر نافح عن فكرة [الفصل بين ما هو عقلي وما هو ليس بعقلي(١).] واعتبر مسألة تدبر خصائص العقل من الغايات النافعة بل المهمة.

لهذا نجد الكسندر قد رفض من الوجهة العلمية فكرة جيمس وارد الخاصة بالعرض(٢) والأبانة التي المعنا اليها في فصل سابق ، والتي يعتبرها وارد عنصرا ثالثا من عناصر العقل . واقام الكسندر الرفض علي اساس أن تلك العامل Factor لايعتبر عقليا وانه لا يؤلف جزء من(٣) الذهان Psychosis . ولذا فأن [علم النفس يهتم مباشرة بمختلف الخصائص الجوهرية التي تترتب عليها نشاطات النفس،

وان الأبانة لا تدخل في نطاق هذا المفهوم بصورة مباشرة ، وانما قد تمت اليه بصلة بشكل غير مباشر.] وهذا ما حمله على الأقرار فقط بالنزوع والوجدان على انهما عنصران فعالان من عناصر [طبيعة(٤) الأعمال العقلية]. وان النشاط النزوعي يمكن اكتناهه بوضوح في محتويات العمليات(٥) العقلية . وهذا معناه أن العملية العقلية هي جزء لا يتجزأ مما هي مرتبطة به من(٦) مدركات .

فآراء الكسندر الهورمية في علم النفس قد تجسدت بصورتها العلمية في علم النفس فيما بين(٧) عامي ١٩٠٨ و ١٩٢٠. واكد على ان النشاط العقلي انما هو [وظيفة العقل بوجه(٨) عام]. واهتم بموضوع الحالة الشعورية الخاصة بالنشاط العقلي . وأوضح كيف أن العقل هو مجال لحيز الشعور واللاشعور. وتناول هذه الجوانب بالتوضيح العملي المضروبة فيه الأمثلة مما يتفاعل معه الأنسان في حياته اليومية من جهة ، وذكر من جهة أخرى انه لا مناص احيانا من الركون الى المعالجة الميتافيزيقية والى نظرية المعرفة(٩). وحاول جادا التمييز بين العمليات العقلية الناشطة الفعالة الأيجابية وسواها السلبية أو المنفعلة حسب التعبير الفلسفي. اعتبر النوع الاول منها [الأدراك الذاتي للفكرة كفكرة وبوصفها فكرة(١٠)] واعتبر النوع الأخر بأنها الفكرة التي لا يستقيم معناها كما ينبغي وانما تحتاج الى توضيح ا ا عندما تقترن بغيرها واما تتطلب الاستجلاء الموضوعي المرتبط بما يقابلها في دنيا الحواس. على ان كلا النوعين يرتبطان بخبراتنا في الحياة على(١١) نحو أو آخر ، وكلاهما جزء من خبرتنا .

وفي ندوة عقدت بعنوان [هل العقل مرادف للشعور(١٢)] أوضح الكسندر بأن [العقل شيء فريد كأى شيء آخر ندرك معناه وقيمته وأثره في حياتنا ، وانه فريد في نوعه وفي نشاطه بكل ما تنطوي عليه هذه اللفظة من معنى(١٣) سام.] وان العقل أسم نطلقه على وحدة معقدة التركيب نسميها الحالات العقلية . وهو هنا يضرب مثلا لغرض تقريب قوله من الأذهان وبخاصة بالنسبة لغير المتخصصين ، فيقول عندما نذكر بأن العقل وحدة مركبة ومعقدة في التكوين فلا يضيرنا شيئا ولا يضير العقل شيئا ان نحن شبهناه بحجر معقد التركيب عناصره متداخلة فتجعل تلك العناصر منه حجرا له خصائصه وصفاته هي [الحالة الحجرية]. لكن هذا مع الفارق بالنسبة الى العقل الذي هو الفاعل الفعال عند الأنسان(١٤).

اما الشعور فأنه يتضمن عنصر الأنتباه . وهو عامل ادراك خصائص البيئة . وبتضافر عملية الأنتباه من جانب الشعور واضفاء المعنى على ما هو مدرك أو ما يتم ادراكه من جانب العقل تتم عملية الوظيفة العقلية والأتصال بالبيئة . وان الشعور مصطلح علمي ينفرد به علم النفس . وان عبارة [الحالات الشعورية] قلما يتم(١٥) استيعابها اذا ما نظر اليها ضمن سياق الأستعمال الأعتيادي . وان المعرفة التي مصدرها الشعور والعقل(١٦) انما تتألف من وحدتين كليتين هما الذات والموضوع. أو الشعور والشيء . وما اسماه الكسندر بالنشاط العقلي انما هو بلغة علم النفس [نزوع]. وحسب مفاهيم اطروحته فأن [الشعور

هو نزوع وليس شيئا آخر] وهذا يستتلي ان [كل شعور انما هو شعور ذاتي أو نفسي(١٧).]

ثمة نوعان من انواع التخيل أو التصور . هما التخيل أو التصور التمثيلي والتصور الأنشائي أو البنائي(١٨). وبوجود هذين المكونين يدخلان في بنائه فأن للتخيل أو التصور مظاهر وملامح محددة معينة تميزه عن عملية الأدراك الحسي. وان على علم النفس الاستطراد في تحديد هذه المظاهر وتوسيع آفاقها. وهنا يتوفر الكسندر على التفريق بين الذاكرة والأدراك(١٩)الحسي. وتختلف الاولى عن النوع الثاني ، كما يرى ، في عدم اكتمالها النسبي أو عدم دقتها . يضاف الى هذا فأن الذاكرة تختلف عن الادراك الحسي في احتمال انها قد تأتي بمظاهر وملامح جديدة تضيفها الى الموقف وليست من الاصل في شي . ويتصف الأدراك الحسي في موضوعيته ودقته وهما سمتان تفتقر اليهما الذاكرة(٢٠) . وان تصور موضوع أو شيء معين يقارن بالعمل الجسمي حينما [يلتفت المرء الى الخلف أو ينفتل الى الوراء ليرى شيئا خلفه أو وراءه(٢١).] وهذا يجعلنا نعتقد بأن الأشياء سواء ما كان منها على شكل تخيل أو تصور أو احساس انما هي في(٢٢) جملتها عقلية .

والعلم عند الكسندر فن . بيد انه ما عنى به انه فن من النون الجميلة أو الفنون الأدبية كما قد توهم اللفظة المستعمل بها هنا . بل اراد به [مثلا من امثلة العمليات التي يكون فيها الفن أوضح

مثال يضرب ، عملية تحويل مواد معينة وجعلها نتيجة يدخل(٢٣) في صنعها العقل] وان العقل يوحد بين حقائق الادراك الحسي بواسطة قوانين يتم الحصول عليها وتتاح من خلال الأختبار والأصطفاء والتأمل . ويرى الكسندر ان مجرد الركون الى قوانين العلم دونما توليف بينها وتنسيق لا تكون كلا متسقا قائما بذاته مكتفيا اكتفاء ذاتيا. وان [المادة الخام ، سواء كان حضورها ف الادراك الحسي أم في الفكر ، فهي تنتقل الى مجال التمثيل والأبداع ، وانها تنتظم(٢٤) ويعاد ترتيبها.] وهذا يوضح فنية العلم تمييزا له عن الفنون الجميلة التي تذكر ولها وظيفة تختلف(٢٥) عن وظيفة العلم.

نشر الكسندر فيما بين ١٩٢٩ و(٢٦) ١٩٣٣ بحوثا تناول فيها ضروب القيم والجمال وتطور النظام الاخلاقي . لكنه ربط بين(٢٧) القيمة الذاتية لهذه الجوانب وبين تأثيراتها على الحياة النفسية عند الفرد والجماعة(٢٨) . واكد ان معالم القيم تنبع مباشرة من مفاوز الجو العقلى . كما اكد فيها على الصلة الوطيدة بين النزعة الأخلاقية والناحية(٢٩) الشعورية . ولعل هذا احد العوامل التي أدت الى نشأة وتطور علم النفس الأخلاقي . ففي التأكيد على ان النشاط الأخلاقي يعي ما هو بصدده ويعي ما هو بسبيله(٣٠).

اجتهد الكسندر ان يفهم علم النفس وان يشرحه في ضوء معطيات الفلسفة . ولعل مما اكده هنا هو مسألة الفضاء – الزمن Space-Time ، وجعله مبدأ ينتظم جميع نظامه الفلسفي والنفسي . وان وحدة العقل هي اهم ما شدد

عليها . ولعل اغرب ما في مناقشاته النفسية هو استبعاده موضوع [التعرف] واستثناؤه اياه من الوظائف العقلية . اذ لم يعتبره جزء من محتويات العقل وانكر عليه ان يكون له أي دور يذكر ضمن اطار النشاط العقلي . وبتفكيره هذا يكون قد ابتعد عن الخط المتفق عليه من جمهرة الباحثين النفسانيين امثال وارد ، وستاوت ، ومكدوجل ، وغيرهم كثيرون . لكن ابرز معالم هورميته تتجلى في توكيده على العناصر الفعاله في النشاط العقلي.

يذكر ان اول من صاغ المبادئ المحددة للواقعية الجديدة New Realism في انكلترا هو توماس(٣١) برسي نن [١٨٧٠ – ١٩٤٤]. وخير مجال عرف فيه هو مجال التربية وفلسفتها بوصفه مربيا ، اذ هو لم يكتب عن الفلسفة الا قدرا ضئيلا . ومع ذلك فأن القليل هذا قد خلد ذكره . ففي ندوة عقدت تحت عنوان :

[هل الخصائص الثانوية مستقلة عن الادراك الحسي ؟ ١٩٠٩ – ١٩١٠] اكد مبحثين هما:

١ – ان الخصائص الرئيسية والثانوية(٣٢) للأجسام انما هى خصائص متضمنة فيها سواء ادركنا تلك الخصائص ام لم ندركها.

٢ – ان تلك الخصائص قائمة(٣٢) وموجودة وكائنة على ما هي عليه كما يتم ادراكها.

فلفظة الألم مثلا عند ستاوت هي غير ما هي عليه عند نن . فبالنسبة الى نن ان الألم احساس لكنه خارج نطاق العقل. فلا يستشعره الا الفرد الذي يعانيه في موضع معين . فمفهومه اذن يتفاوت بتفاوت الأفراد وما هم عليه من حالات نفسية(٣٤).

نجد ستاوت كذلك يذهب الى ان الخصائص الثانوية تكون قائمة وموجودة بوصفها موضوعات للخبرة المتكونه . فاذا ما نظرنا مثلا الى كأس من زوايا مختلفة وهو في أوضاع متفاوتة فأننا نتبين ظلالا مختلفة وأوضاعا متباينة ، ولكن دون ان يكون هناك سبب يحملنا على الاعتقاد بان الكأس نفسه قد تغير . واذا ما غمس عدة افراد ايديهم(٣٥) في حوض ماء أو في وعاء واحد مملوء بالماء فأنهم يذكرون بأن درجة دفء الماء أو برودته بالنسبة اليهم تختلف تمام الأختلاف ، علما بأنه لم يطرأ أي تغيير على درجة حرارة الماء .ان مثل هذه الظواهر انما تؤكد بأن الخصائص الثانوية انما توجد بوصفها اشياء تعكس(٣٦) ادراكاتنا الحسية . فهي ليست صفات حقيقية للأشياء الطبيعية(٣٧).

خلال فترة تمتد فيما بين [١٩٠٦ و(٣٨) و ١٩١٦]نجد نن يؤكد على أن [العلوم الطبيعية انما هي عمليات عقلية موجهة نحو البحث في معالم الطبيعة(٣٩).] وكان لا يكف عن التأكيد على ان على الأنسان ان يهيمن على الطبيعة بفكره وبقوة عقله . وكان يحاول أن يعد كشفا بالأشياء المنظورة عقليا وبالاحداث التي تكون تركيب الطبيعة . وكان يجتهد أن يجعل بزوغ تلك الأشياء ملموسا

ويسهل(٤٠) ادراكها . وأقام افكاره على حقيقتين هما:

١ - الخبرة الحسية تحتوي في تكوينها عنصرا متكاملا يضم بين موضوعاته اشياء مستقله عن النشاط العقلي(٤١).

٢ - ان التحليل يمكن ان يتوصل الى انه لا شيء تنطوي عليه الأشياء سوى احساسات(٤٢) وما هي عليه من ضروب الترابط فيما(٤٣) بينها .

ذهب نن الى أن التربية الحقة التي تتولى الفرد بالتنشئة وتنميته تنمية اجتماعية هي التربية التي تترسم خطى الطبيعة . وان على المجتمع ان يتيح للفرد ما يسمح بنماء شخصيته . ضمن اراءه التربوية كتابه المعروف :

التربية :حقائقها وأصولها الأولى (١٩٤٤)، [ترجمة عن طبيعته الثالثة هذه المنقحة والمزيدة الدكتور عبد العزيز البسام]. دافع في كتابه هذا عن الفرد وعن المجتمع بحيث(٤٤) لا يتجاوز احدهما على حرية الأخر. ودافع عن حرية الفرد بوصفها هدفا اسمى(٤٥) من اهداف التربية . لكنه شدد على الا يجعل الفرد ينسى في غمرة منافعه الذاتية ما للمجتمع(٤٦) عليه من واجبات ومن احترام ومن خدمة. وعليه فأن الجهود التربوية يجب ان تتركز على توفير ما يمكن توفيره لكل فرد ظروفا تتطور في ظلالها فردية الانسان وشخصيته(٤٧).]

وكان نن لا يني يؤكد على(٤٨) سؤال هو:

[ما الذي يقرر ويحدد الخصائص العامة للعملية التربوية في مرحلة محددة من مراحل تاريخ المجتمع الأنساني(٤٩)؟]. وهو يجيب على مثل هذا السؤال بقوله:

[ان الدافع الحيوي Elan Vital الذي نقل المجتمع الى مرتقى محدد من التطور هو نفسه يستحث ناشئيه على أن يلتزموا بما هو عليه من تقاليد وبما ينعم به من طرائف في الحياة(٥٠).] ويتبع هذا هو أن التربية التي يمنحها المجتمع الى اطفاله انما هي ابرز وأجلى ما يلتزم به من مثل أخلاقية وافضل صورة لنظامه في الحياة(٥١).

اقام نن مناقشاته التربوية على أسس نفسية. فهو بحث ضمن سياق التربية ادراك الفرد للنشاط الشعوري. واعتبر الفعاليات التي يأتيها الفرد عنصرا من عناصر [الدافع] أو [الحافز] أو ميل محسوس يأخذ بالفرد الى(٥٢) غاية. فالى هذا العنصر الذي يمثله الدافع أو الحافز والذي اسماه علماء النفس [النزوع]، اعطاه نن أسم [الهورمية(٥٣)]. يتبع هذا ان تكون جميع ما تأتيه الكائنات الحية من نشاطات داخلة في عنصر العملية الهورمية. ويذكر نن بأن لفظة [الهورمية] Horme، وهي لفظة اغريقية(٥٤) كان قد اقترحها كارل غوستاف يونج المحلل النفساني السويسري المعروف، بيد انه لم يستعملها أو(٥٥) يتبناها بكثرة، وبها كان يعني يونج [تعبير حيوي مفعم بالطاقة يدل على القيم النفسية(٥٦).] واستخدمها نن لتشتمل على مفاهيم [الطاقة

الغرضية كما يكشف عنها السلوك بجانبيه الشعوري واللاشعوري(٥٧).]

استخدم نن تعبير [الهورمية] ليعبر به عن الحياة الشعورية عند الانسان والحيوان التي تأتي في اعلى سلم التطور ولكن دون الانسان ، كما اراد به السلوك اللاشعوري عند الحيوانات الدنيا ، واستعمله كذلك ليدل به على الفعاليات والحركات اللاشعورية التي تصدر عن اجسام البشر والحيوان العليا . وهنا تحدث عن الذاكرة فوصفها بأنها [حافظة شعورية] كما تحدث عن النزوع واعتبره [هورمية شعورية(٥٨)] ، وهو بهذا قد اكد موضوعين مهمين هما :

١ - ان العمليات الهورمية تنتظم في مجاميع ونظم منسقة ، وان ما ينشأ عنها من فعاليات تكون اكثر تعقيدا وأنفع استمرارا.

٢ - ان ما اجري من بحوث في مجالات التحليل النفسي قد كشفت عن أن ما يصدر عن الفرد من سلوك شعوري انما تقوم بدور فعال فيه العوامل الهورمية التي قد لا يعيها المرء اول الأمر أو لا تكون في حيز مجاله الشعوري ، اي تكون لا شعورية(٥٩). يضاف الى هذا ، [فأن عقل الراشد انما يمثل الجزء المنظور لتكوينه الحيوي ونيته الحيوية تتألف طبقاته العميقة من عناصر هورمية(٦٠) ترجع في تاريخها الى ايام ارضاعة بل وما قبلها.] وان كل ما يمكن تحليلة من حياة الفرد(٦١) تحليلا نفسيا انما يكون في حقيقته حقائق حسية. والحقائق الحسية هذه هي عناصر الواقع.

تتجلى خصائص مناقشات نن النفسية والتربوية في ميادين مختلفة أهمها: -

١ - تأكيده على مبدأ الدافع الحيوي أو الطاقة الحيوية(٦٢).
٢ - تأكيده على ان المجتمع هو افضل بيئة تزدهر فيها فردية الأنسان.
٣ - اقتراحه مبدأ الهورمية كعنصر(٦٤) حيوي يفسر في ضوئه سلوك الأنسان والحيوان.
٤ - تأكيده على العمليات النزوعية ، الشعورية(٦٥) منها واللاشعورية .

نظر نن الى تاريخ الأنسان وحياته(٦٦) واعتبره سعيا وكدا مستمرين متواصلين نحو استكمال ذاتية الفرد . والفردية هذه تعبر عنها تعبيرا غنيا طبيعة الأنسان(٦٧) الشعورية . فالانسان يولد وتولد معه ارادة الحياة ، وهو دائما مدفوع بحوافز متأصلة في كيانه وفي تكوينه(٦٨).

في تقديم لكتابه : علم النفس التحليلي (١٨٩٦) ، يكتب جورج فردريك ستاوت [١٨٦٠ - ١٩٤٤] بأن :

[موضوع علم النفس والتحليل النفسي يجب ان يتم تناوله من زوايا متعددة نجمع بين مختلف ضروب المعرفة بما فيها الفسلجة ، والأمراض العقلية ، وعلم الأعراف البشرية ، والتجارب النفسية - الفيزياوية(٦٩).]

اراد ستاوت بهذا بأن الموضوعات المذكورة كافة يجب أن تسهم في دراسة علم النفس . لكنه لم ينكر الفلسفة ضمن الموضوعات التي عددها . لكننا نجد معظم مناقشاته النفسية تتخللها مناقشات فلسفية وتأملات من الفلسفة تدل على تعمقه في الموضوع ، وهو من الناحية الفلسفية كان أميل الى المثالية(٧٠).

تناول ستاوت في الجزء الاول من كتابه المشار اليه آنفا مسألة النشاط العقلي وتيار الشعور واشار الى ان [مجرى الشعور هذا متأثر بمؤثرات خارجية وهو بها مفيد ، علما بأن له مساره الخاص به.] وان تيار الشعور له ما يرفده من عوامل أهمها تتوضح بالألفاظ

النشاط

الجد والسعي

النزوع

الكفاح من اجل البقاء

الجهد والاجتهاد

المثابرة

الارادة

الأنتباه(٧١)

لكن الألفاظ أو المصطلحات الآنفة تمكث لا قيمة لها ما لم تتصل بما تدل عليه وهذه ذاتها تكون مرتبطة بحياة الأنسان الشعورية(٧٢). وان ما جاء به ستاوت من مصطلحات ضمنها معظم بحوثه وكتبه مثل [التوليف الجديد]،(٧٣) و [الايحاء(٧٤)

النسبي]، و[الأدراك الحسي(٧٥)الواضح] تعد اضافات جديدة في علم النفس (٧٦) وفي علم مفرداته النفسيـــة(٧٧) . فهـي مصطلحات(٧٨) تتضمن المعنى التعرفي وانها اضفت(٧٩) معنى جديدا على علم النفس بصيغته العملية بوصفه علما يعنـي بالأحداث(٨٠).

ينطوي كتاب علم النفس التحليلي على ثلاثة جوانب مهمة ابرزها :

١ - تحليل عام للشعور وما هو علية من طبيعة تتصل بحيوة الأنسان وحياته(٨١).

٢ - تحليل العمليات التي ينتهجها الشعور وما يطرأ عليه من تغيرات خلال تلك العمليات(٨٢).

٣ - تبيان جوانب النظام الأحيائي الشامل(٨٣).

وفي كتاب الوجيز في علم النفس(٨٤) [١٩٣٢] أوضح ستاوت اهمية النماء للفرد خلال المراحل التي يمر بها ، مبينا انه من(٨٥) الأهمية بمكان ان ندرك كيفية تمييزنا عمليا للأشكال(٨٦) والمواقع والمسافات التي تكون عليها الأشياء في البيئة . فهذه مهمة لتعلم الطفل ولتعلم الراشد واكتسابهما الخبرة.

واكد في كتابه : الأساس في علم النفس (١٩٢٧) بأن ثمة قسمين من أقسام الشعور هما:

التعرف Cognition

والاهتمام Interest

قسم الاول منهما :

أ - ادراك اولي أو(٨٧) بسيط
ب - حكم عقلي(٨٨)

وقسم الثاني الى :

أ - نزوع ووجدان(٨٩)
ب - اتجاه(٩٠)

تقييما لمكانة ستاوت في مجالات علم النفس كتب س. أ. ميس [١٩٥٤] يقول :

[ان تأثير ستاوت لم يكن تأثير مؤسس مدرسة فكرية فحسب ، انما كان تأثيره كبيرا على أولئك الذين اسسوا مدارس في علم النفس . فقد اخذ عنه واكتسب منه كثير من المختصين بعلم حتى بعد ان بلغوا مبالغ النضج الفكري. وانه في هذا السبيل قد استقى مكدوجل من ستاوت واقتبس كما استقى ستاوت من سبينوز وأقتبس وطور(١٠١).]

انظر كذلك المصادر من(٩٢ - ١٠١)

٢- مراجعة واستنتاجات

يمكن القول بأن اراء الباحثين الهورميين أو الغرضيين الثلاثة الذين سلفت الاشارة اليهم ، تتسم بالطابع المونادي . وانهم جميعا يؤمنون بقيمة العقل وبقدرته على التمييز بين الجوانب

الداخلية والخارجية لطبيعة الأنسان ، وبين الذات والموضوع وانهم يؤكدون على ان علم النفس يحتل مكانا فريدا بين سائر العلوم الأخري ، نظرا الى انه علم يتحرى حقائق بنية الأنسان من الناحية النفسية.

ان مناقشات هؤلاء الغرضيين الثلاثة تتصف بسمات بارزة مشتركة لعل اظهرها :

١ - فهم قد اهتموا ، كل بطريقته الخاصة ، في الوقت بين الأحكام النفسية والأخرى العلمية.
٢ - كانت طرائق البحث عندهم تتفق في تحري امكانية التحقق من طبيعة الخبرة وحقائقها.
٣ - كانت المسائل النزوعية اساس ما اقاموا عليه مناقشاتهم.
٤ - أتصفت دراساتهم بالأتساق والأتفاق ، وان تباينت في التفصيلات وفي الأساليب.
٥ - ان آراءهم قد اثرت في كثير مما ذهب اليه مكدوجل وان كان قد انتهج منهجية جديدة في هورميته الغرضية وعنه كتب جي. س. فلوجل [١٩٥٥] يقول:

[من بين جميع علماء النفس الهورميين ، يعتبر مكدوجل اكثرهم شمولا واقدرهم اتساقا واوسعهم اطلاعا وعمقا(١٠٢).]
وهذا ما سنتبينه في الجزء الثاني .

٣ - مراجع الفصل الثامن

1. J.C. Flugel, Studies in Feeling and Desire, London (1955) p. 51, see also pp. 19, 50
2. S. Alexander, "Foundations and Sketch-plan of a conational Psychology" B.J. Psych., vol. IV, (1911) p. 239.
3. James Ward, "Psychology" Encylopaedia Britannica, 11th ed. vol XXII, pp. 554 a (4th ed.) XX 44 a.
4. op. cit. p. 242.
5. Alexander's op. cit. p. 241.
6. Ibid, p. 242.
7. Space, Time and Deity, London (1920), vol. 1 p. 11
8. "The Nature of Mental Activity" A Symposium in Proc of Aristotle Society, vol. VIII, p. 215.
9. Ibid, p. 215.
10. Ibid, pp. 217 - 218.
11. Ibid, p. 218
12. (1) "On Relations and in particular the cognitive relation" Mind, vol XXI, (1912), pp. 305 - 328.

    (11) "The Method of Metaphysics" The categories" Mind, Vol XXI, (1912), pp. 1 - 20.

    (111) "Some Explanations" Mind, Vol XIX, ((111) "Some Explanations" Mind, vol. XIX, (1921), pp. 409 - 428.

13. Proc. Aristolelian Society, vol 1. (1888)
14. Ibid, p. 18
15. Ibid, p. 20
16. Space, Time, and Deity, op. cit. vol. 11, pp. 125, 22, 92, 105.
17. "The Nature of Mental Activity" A Symposium, Proc. Aristot. soc. vol. VIII, (1907 - 1908) op. cit. pp. 222 - 223.
18. "On Sensations and Images" Proc. Aristot. Soc. vol. X, (1909 .1910) p. 13
19. (1) Space, Time, and Deity, Vol. 11, op. cit. p. 83.
   (11) "Science and Art" J. of of. Philos. Studies. vol VI(1930), pp. 5,FF
20. (1) Proc. Arist. Soc. vol. X, 1909 - 1910, op. cit. p. 13
   (11) Space, Time, and Deity, vol. 11,, op. cit. pp. 83 FF
   (111) By the author "Space, Time" Arist Soc, vol. XVIII, 1917 - 8, pp. 410 FF.
21. Space, Time, and Deity, vol. 11 op. cit. p. 83.
22. Ibid, p. 86, see also.
   (11) G.F. Stout"The Philosophy of Samuel Alexander " Mind, vol. XLIX, (1940), pp. 6, 2, 138, 141.
23. (1) "Science and Art" J. Philos. Studies. vol(1930) p. 331
   (11) Art and Science" J. Philos. Studies. vol 1.

(1926) -pp. 5 - 19
24. Science and Art'' J. Philos Studies, vol V, op. cit. p. 352
25. ''Philosophy and Art'' J. Philos Studies, vol IV. (1929), p. 157
26. (1) Ibid, p. 160.
(11) See also by the same author, ''Is there Evidence of Design in Nature''
27. S. Alexander, Beauty and other forms of value, London, (1933), p. VI.
28. Ibid, op. cit.
29. 2nd ed. London, Kegan Paul, ch. 1
30. (1) Moral Order and Progress, op. cit. Book 1, ch. 1 pp. 31 ff
(11) Alexander, S. ''The Basis of Realism'' Proceedings of the British Academy vol. VI, (1914) pp. 279 - 314.
See also
(1) Obituary Notice by T.H. Pearin B.J. Psych, vol. XXIX (1939)
(11) ''Memoir'' by John Laird in S. Alexander'' Philosophical and Literary Pieces, op. cit. pp. 1 - 96.
31. John Passmore, A Hundred years of Philosophy, op. cit. p. 259.
32. Prace. Arist. Soc. vol. X, 1909 - 1910, pp. 141 - 218.
33. John Passmore, op. cit. p. 259

34. Stout,s Papers are "Primary and Secondary Qualities" (1903), and "Are Presentations Metal or Philosophical" (1908)

35. Proc. Arist. Soc. vol. X. (1909 - 10) op. cit. pp. 19 - 218.

36. Stout's two Papers (1903) and (1908) op. cit.

37. (1) Nunn, op. cit. pp. 191 - 218.

(11) See also Nunn's "The Place of hypothesis in Science Teaching" (1911), pp. 64 - 79.

38. S. Alexander, Space, Time and Deity, vol. 11, op. cit. pp. 187 - 188.

39 (1) Nunn "Scientific objects and Common sense things" Proc.Arist. Soc. vol. XXIV. 1923 24, p. 2

(11) "Sense Data and Psysical Objects" Proc. Arist. Soc. vol. XVI, 1916, pp. 156 - 178.

40. (1) Proc. Arist. Soc., 1905 - 1906, vol. VI, pp. 141 - 182.

(11) Nunn"Anthropomorphism and Physics" (1927) 41. 41. T.P. Nunn, The Aim and Achievements of Sceintific Method (1907).

42. Proc. Arist. Soc. vol. XXIV (1923 - 24) op. cit. p. 7

43. Ibid, pp. 7 - 8.

44. (1) Ibid, p. 18

(11) Proc. Arist. Sou. vol. X, 1904 - 1910 op. cit. p. 205.

45. T.P. Nunn, Education: Its Data and First Pri-

nciples - (1934) 2nd, p. 20
46. The First Chapters, in his book above.
47. Ibid. pp. 5 - 6
48. Ibid. p. 6
49. "The Education of the People"
Rep. Brit. Assoc. (1923), pp. 261.FF
50. Ibid, pp. 261 - 262.
51. (1) Ibid, p. 262
(11) By him"On Education" in Rep. Brit. Assoc. (1926)
52. Education : Its Data and First Principles, op. cit. p. 21
53. Ibid, p. 23.
54. Ibid, p. 23.
55. Ibid, p. 23
56. C.G. Jung, Analytic Psychology, (1916), op. cit. p. 348.
57. Ibid, p. 23
58. op. cit. p. 23, see also ch. IV "The Living Past"
59. Education: Its Data and First Principles" op. cit. pp. 36 - 37.
60. Ibid, p. 13
61. Ibid, pp. 13 - 14.
62. Ibid, p. 14.
63. Ibid, p. 14.
64. Ibid, pp. 17 - 18.
65. Ibid, p. 18.
66. Ibid, p. 20

67. Psychologies of 1930, Clark, Univ. Press ed. by Cart Murchrison

68. Preface to 22nd of An Introduction to Social Psychology, op. cit. pp. XIX - XX

69. Vol. 1 , p. IX

70. (1) Preface to Analytic Psychology, op. cit. pp. IX and XI.

(11) C.D. Broad, "Obituary Notice" in Mind, vol. LIV, (1945)

(111) John Passmore, A Hundred Years of Philosophy, op. cit. p. 197

71. G.F. Stout. Analytic Psychology, 2 vols, vol. 1 op. cit. p. 147.

72. A Symposium in : Proceedings of the Aristotelian Society. vol. VIII, 1907 - 8.

73. Ibid, p. 248

74. Both were contributors to the same Symposium

75. "The Nature of Cognition and Mental Activity" B.J. Psych., vol. 11, (1906), pp. 2 - 3.

76. B.J. Psych. vol. 11, (1906), op. cit. p. 8

77. Ibid, pp. 7 - 8

78. (1) Ibid, pp. 7 - 8

(11) See also by Stout, "Is Mind Synonmous with consciousness" Aristo, soc. vol. 1., (1888), p. 12.

79. Space, Time and Deity, op. cit. pp. 119.

80. Analytic Psychology, op. cit. vol. 11 chapters, v, VI, and VIII.

81. Ibid, vol. 11, op. cit. pp, 47 - 48, 249,
235, 26, 11.

82. A Critical Notices in Mind, vol. VI, (1897) pp. 379 - 399

83. Analytic Psych. op. cit. pp. 35 - 37

84. (1) Mind, vol. VI, op. cit. p. 394.

(11) B.J. Ed. Psych. vol. vi (1946)

(111) Arist. Soc. vol. 11. (1892).

(IV) Arist. Soc. vol. 11. (1892).

(V) Arist. Soc. vol. 1 (1888)

(VI) Arist. Soc. vol. 111, (1896)

85. Manual p. 483.

86. See Mc Dougall's Introduction To Social Psychology.

87. See, For Example

(1) T. Loveday, A Critical Notice Mind, vol. XXIII, (1914), pp. 570 - 587

(11) E.G. Boring : A History of Exp. Psych. op. cit. p. 464

(111) C.D. Broad, Mind, vol LIV, 1945, pp. 285 286.

88. The Groundwork of Psychology, p. 17

89. Ibid, p. 53

90. Published by MacMillan and Com. London.

91. Studies in Philosophy and Psychology, p. 53.

92. Ibid, pp. 56, 57, 166 - 181

93. Based on the Gifford Lectures (1921)

94. Mind and Matter, op. cit. pp. 15, 167 - 168, 171 - 2, 211, 212, 230 - 231, 236 - 7
268 - 9.
95. The Gifford Lecture. (1921).
96. J.A. Passmore, Memoirs, pp. XXV ff
97. Ibid, p. VXLIX
98. Ibid, p. XLIX.
99. B.J. Psych. vol. XXXVI, (1946), p. 54.
100. Ibid, p. 54.
101. B.J. Psych, vol. XXIV, (1954), p. 75.
102. Studies in Feeling and Desire, op. cit. p. 60

الباب الثاني

الغريزة مفهوم أساسي في النظرية الهورمية

الفصل التاسع

مفهوم الغريزة - المنظور التاريخي

١ - تمهيد

ان ما تنطوي عليه الأفكار المتضمنة في الغريزة من مفاهيم انما هي اقدم مما هو مدون عنها في تاريخ علم النفس . وان الأتجاه الذي تأخذه المشكلات الخاصة بالغريزة والمتعلقة بمسائلها في الوقت الحاضر يمتد وراءها تاريخ سحيق . اذ أن مفهوم الغريزة بوصفها دافعا فطريا يتأصل بوجود الأنسان ونشأته . كما أن مفهومها هذا انما هو نتاج عملية متدرجة من عمليات تطور الفكر الفلسفي والنفسي. ذلك أن مشكلات و[خصائص هذه المشكلات المتفاوتة قد بزغ على نحو متطور ولكن عبر فترات متباينة] كما ذكر جيمس دريفر [الاب]

٢ - الاصول الفلسفية

ثمة فترات اساسية ورئيسية في تاريخ الغريزة . وأن ما تم من محاولات في هذا الشأن انما اريد بها استقصاء التطور التاريخي للنظريات المتعلقة بالغريزة وما تنطوي عليها من مفاهيم . ولعل هذا الأهتمام الكبير بشأنها يعزى الى أنها مصدر الطاقة الحيوية عند الأنسان والحيوان ، ولكنها عند الأنسان محكومة بتوجيه العقل وبفعل هيمنته . فالمصطلح(٢) Instinctus ، مثلا ، كان قد استخدمه الرومان ليقابل لفظة Horme من حيث الترجمة للمعنى الأغريقي . واصل الفكرة(٣) الأغريقية هي : [دافع] Drive ، و [حافز] Urge ، و [نزوة] Impulsion . وان لفظة [الهورمية] كانت قد استخدمها الرواقيون بنفس معنى الغريزة كما هي مستعملة على وجهها

الصحيح في العصور الحديثة وفي الوقت الراهن(٤) على أن هناك في الحقب التي مرت بها الغريزة من حيث هي مفهوم متفاوت، فترات أجملها [فلم] Wilm في اربع(٥) فترات هي :

١ – الفترة القديمة [الاغريقية والرومانية]. The acient period
٢ – فترة العصر المدرسي. Scholasticism
٣ – فترة الأستنارة The Period of Enlightenment
٤ – الفترة الحديثة أو الفترة العلمية. The Modern or Scientific Period

ورغم ما قد يثار من اختلافات تتصل بطبيعة المصطلحات فأن هناك أتفاقا في الأتجاهات المتفاوتة يساير المراحل التاريخية. فهي تدعى تفاوتا:

النزعة الطبيعية
النزعة الواحدية
النزعة المادية
النزعة الأحيائية
النزعة الثنائية
النزعة المثالية(٦).

بيد أن مفاهيم الغريزة واهتمام العلماء بها قد اتخذ طورا جديدا بعد عهد من الحوار الفلسفي وبخاصة بعد ايام ديكارت. على أن الخلاف في وجهات النظر ولا سيما بين الآراء الميكانيكية والأحيائية مثلا، والخاصة بمسائل الحياة، من جهة، وما يتعلق

بالكائنات العضوية ، من ناحية أخرى ، قد تم تقصيها بعناية وجرت مناقشتها بأهتمام بالغ . وقد تم التأكيد خلال هذا كله على مفاهيم هذا المصطلح [الغريزة] وذلك بقصد المقارنة بين القديم والحديث من جوانب استعمالها.

وخلال فترة التعاقب التاريخي لمعت اسماء من الباحثين(٧) تتجاوز اعدادهم امكانية ذكرهم جميعا هنا . لكن يمكن القول بوجه الاجمال ، أن اوجه التفسير عندهم قد تفاوت تبعا لما يلتزمون به من اتجاهات ونظرا لما تأثروا به من فلسفات . وأبرز مظهر من مظاهر النظام القائم على مفهوم الذرة مثلا Atomistic ، يستند الى تفسير(٨) قوى الحياة تفسيرا آليا ، ويرمي الى استبعاد أي صنف من اصناف الناحية الغرضية ، أو الذكاء ، أو النفس أو الروح ، أو سوى ذلك(٩) . فهو تفسير يستعيض عن هذا كله بقانون الطبيعة وبقانون الضرورة . وان دور سقراط في هذا الشأن يعد من الادوار المشهورة في تاريخ العلم . فموقف(١٠) سقراط [٤٦٩ – ٣٩٩] قبل الميلاد ، كان يعتبر موقف داعية اخلاقي . على ان النقاد يجمعون على ان فلسفة سقراط انما هي بذرة من بذور التحليل المنطقي . فليس لديه نظام مكتوب . انما وجدت آراؤه متناثرة على صورة شذرات حفظها عنه طلابه ومريدوه ، وابرزهم تلميذه أفلاطون الذي بلور وحلل فكرة(١١) عالم الأفكار.

يستخلص من الدراسات المتواترة بأن افلاطون [٤٢٧ – ٣٤٧] قبل الميلاد هو الذي وضح كثيرا من اراء استاذه سقراط وما

كان قد ناقشه من آراء تتعلق بالظواهر الجسمية والعقلية وما هي عليه من اسباب ، وما يتصل بالذكاء . وقد أصبحت المصطلحات هذه فيما بعد متضمنة في الماحكات الفلسفية ، حتى احتوتها الدراسات البيولوجية والنفسية . بيد أن ثنائية الجسم والنفس عند الأنسان قد ازدادت منذ ذلك الوقت تعقيدا حينما قسمها افلاطون تقسيمات أخرى ، اذ قسم النفس الى قسمين أو وظيفتين هما: العاقلة وغير العاقلة(١٢) . والنفس غير العاقلة تقسم بدورها قسمين هما : القسم الروحي أو الروح وتعبر عن نفسها في الطاقة والحيوية والشجاعة ، وموقعها القلب ، والقسم الأغتذائي أو الشهوانى وموطنه المعدة ، وهذا القسم الأخير يعبر عنه في المصطلحات الحديثة لعلم النفس بأسم(١٣) [اللذة]. فالنفس اذن تقسم تقسيما ثلاثيا واقسامها هذه هي :

النفس المصممة أو العاقلة
النفس الوجدانية أو الروحية أو الأرادية
النفس الشهوانية النازعة الى سداد رغابها واشباع حاجاتها المتصلة بالحاجات العضوية . ويبدو أن افلاطون قد عمد الى هذا النوع من التقسيم ليواكب مستويات الحياة الثلاثة هي:
الأنسان
النبات
الحيوان

فالنبات يمتلك النفس الأغتذائية ، ولدى الحيوانات النفس الأقدامية، في حين يمتلك الأنسان ، الى جانب هذين القسمين ، ملكة(١٤) العقل . غير أن لفظة الغريزة لم ترد في كتابات افلاطون كما وردت في كتابات غيره بشكلها الصريح . وان مفهومها وليس لفظها ورد في اشاراته الى(١٥) معناها وجعل مستقرها حيث توجد الأنفعالات . وجعل العلاقة بين ما هو عاقل وما هو غير عاقل ضمن تكوين الأنسان علاقة تفاعل مشترك..

ان ما ابتدأه افلاطون من مناقشات قد اكمل مسيرتها بتفصيل اكثر ارسطو (٣٨٥ – ٣٢٢). وان فلسفته الطبيعية توضح العلاقة الأساسية بين منهجيته العلمية وبين نظام افلاطون . وكلا الأتجاهين كانا يرميان الى النواحي الغائية والمفاهيم الثنائية في طبيعة الحياة . واعتبر ارسطو كل شيء مزيجا من المادة والجوهر ، ويمكن ترتيب الأشياء في سلم تصاعدي ، ابتداء من الجمادات وانتهاء بالعضويات وبالكائنات الحية بوجه عام . وان جميع وظائف الجوهريات تدعى الارواح أو النفوس . وأن الروح أو النفس هي معيار التمييز بين الأحياء والجمادات ، وان المعالجة الجنينية للحياة العقلية هي جزء فكرة ارسطو العامة عن الحياة(١٥). العضوية التي جعلته يوصف بأنه بنظرته هذه قد مهد للتطور العضوي.

وميز أرسطو من الذاكرة نوع التذكر الأرادى الذي يتصف به الانسان فقط بل هو من خصائصه . وكان أرسطو يذهب الى أن الأحساس والتخيل هما مصدر اللذة والألم والرغبة والتقزز

والحركة والنشاط . وان الحركة ، تعزى الى الاشتهاء وانها ايضا تتوقف على عمليات التعرف . وان الرغبة تتوقف ايضا على عملية التعرف وانها لا تتم بدون التعرف التام . وآراؤه هذه توضح أن علم النفس عنده كان وثيق الصلة بالنزعة التي مهدت للمناقشات النشوئية . كما تبين آراؤه تلك بأن علم النفس عنده كان يستمد مفاهيمه من المعالجات الاستبطانية التي تحدث في العمليات العقلية العليا عند الانسان(١٦). وبأتساع نطاق النشاط عند الانسان تتحول الرغبة الى [ارادة] من خلال وبفعل اسهام النفس العاقلة التي تعد من مميزات الانسان ومن ابرز سماته وأظهر صفاته . فأرسطو لم ينظر الى الغريزة بمعناها الذي تعرف به اليوم ، لكنه أوضح التدرج المعروف المتعلق بالذكاء من ادنى مراتبه الى أعلاها .

٣- المدارس الفكرية بعد ارسطو : الرواقية والابيقورية

واصل الرواقيون والفلاسفة المدرسيون ما كان قد بدأه ارسطو وغيره من الفلاسفة الآخرين . والطريق هو أن يلاحظ المرء وحده الصلة فى المعرفة الانسانية تمتد عبر التاريخ دون أن تعرف الحدود الجغرافية(١٧). اذ أن للفلسفة الاغريقية نجد امتدادا يتمثل صداه في النزعة الحيوية القديمة في القرن التاسع عشر وفي النزعة الحيوية الجديدة في القرن العشرين هذا ، وابرز دعاتها هنري دريش وهنري بيرغسون ووليم مكدوجل .

فالرواقيون في ايامهم كانوا يشددون على النشاط الذي يجب ان يأتيه كل فرد في مجاله الذي يوكل اليه . وكانوا يعتبرون الأنسان صورة حيه للكون – أي انه صورة مصغرة عن هذا العالم . وان الصورة المصغرة Micrososm هذه تخضع لقوانين متطورة محكمة ولكنها قوانين مسيرة بعقل مدبر لها . وعند الرواقيين فأن الانسان وحده يمتلك فضيلة العقل ، اما الحيوانات فأنها تفتقر الى ملكة العقل ولذلك فهي يجب أن(١٨) تصنف في فئة تختلف تماما عن فئة دنيا الانسان ، واذن فلا يجوز التحدث عن الأنسان الحيوان معا . وهم يرون انه حتى اعقد سلوك يصدر عن الحيوانات فأنه سلوك ينقصه التفكير والتأمل وهما خاصيتان ينفرد بهما الانسان(١٩) .

ان محفزات الحيوانات أو الغرائز عند الحيوانات اعتبرها الرواقيون نشاطات غرضية غرستها عندها الطبيعة أو مبدع هذا الوجود(٢٠) وذلك من اجل منفعة هذه المخلوقات لتحقق غاياتها ولتحافظ على نوعها الخاص بها. وهنا يلاحظ بأن الرواقيين قد اشاروا الى ان الغرض أو الغرضية هي اساس السلوك لدى الكائنات الحية ، ولكن الأنسان يفضلها بنعمة التفكير والقوة العقلية . وانهم اشاروا الى أن الغرائز مخلوقة ولكنها مقتصرة على الحيوان ، وهذا ما جعل الباحثين المحدثين يأخذون عليهم ذريعة عدم البعد في مجال النظرة العلمية أن الغريزة مودعة أو موروثة لدى كل من الأنسان والحيوان ولكنها عند الأنسان محكومة بنعمة العقل . ويبدو ان الرواقيين قد أثبتوا الخصائص التالية من

خصائص الغريزة :

١ – صفاتها الموروثة واستقلالها عن الخبرة.

٢ – وظيفتها التكيفية.

٣ – تشاكلها وتماثلها وهنا فهي تباين الطبيعة المتغيرة للنشاطات المكتسبة(٢١). وخصائص الغريزة هذه قد ثبتت صحتها الى حد ما فيما اجرى عنها اليوم من بحوث.

بيد أن ملاحظات الرواقيين كانت ترتكز الى(٢٢) التأمل الفلسفي . فهي آراء ينقصها المنهج العلمي وتفتقر الى الشواهد العلمية . ونجد ان كلا من ارسطو والرواقيين قد نفوا عن الحيوانات صفات العقل وخصائص الخلق . لكن الأبيقوريين نسبوا(٢٣) للحيوانات ما يأتي:

١ – ادراك حسي ، ولعل هذا يقربهم من النزعة العلمية الحديثة .

٢ – الذاكرة ، وان علم النفس الحديث يثبت ان لدى الحيوانات الذاكرة الحسية في الأكل .

٣ – القدرة على التقليد والقيام بالحركات التي يدرب عليها الحيوان.

٤ – القدرة على الكلام وهذا يصدق على بعض انواع الببغاء

٥ – الابتنتاج المنطقي كما يظهر في سلوك الكلاب.

٦ – حس جمالي اولي كما يبدو في سلوك(٢٤) السلطعون (السرطان)والاسماك والأيائل والخيل.

ان ما ذكره الأبيقوريون من قوى عقلية وطاقات فكرية منسوبة الى الأنسان والى معظم الحيوانات تعتبر في مجملها موضوعات ثابتة في علم النفس الحديث . الا انهم لم يسيروا صراحة الى مفهوم الغرائز أو مدلولاتها.

٤ - النزعة المدرسية

للغريزة عند المدرسيين مجال محدود . وقد نسبوها الى الحيوانات بوصفها مخلوقات ليست(٢٥) عاقلة . وان سلوك الحيوان تمليه الغريزة . وبالنسبة الى المدرسيين فأن نشاط الحيوان يمثل موقعا وسطا بين اتجاهين ، هما : اتجاه سيكولوجي ينسب الى الحيوان(٢٦) شيئا من العقل واتجاه يفسر سلوك الحيوانات تفسيرا آليا مع شيء من الأسس الفسيولوجية ولذا فهم نفوا عن الحيوانات سمات السلوك المتسم بالشعور . وأرتأوا ان الحيوان مزود بالنزوة ولديه قوة الادراك الحسي لكنه يفتقد قوة العقل . لكن مناقشاتهم كانت تقوم على أسس فلسفية وتأملات(٢٧) ذاتية . فلم تكن آراؤهم تلك صادرة عن تجربة علمية كما هو شأن العلم اليوم . على أن ما تواتر عنهم من ملاحظات توحي بأن تلك الآراء كانت تدل على رجاحة في التأمل الفكري الرامي الى مواصلة ومتابعة اهتمام الأنسان بكيفية ايجاد التفسير الذي يسمح له بأدراك مغزى حياته على وجه البسيطة ومدى علاقته بمكونات(٢٨) بيئته.

٥ – فكرة التسيير الذاتي عند الحيوان

طفق الباحثون الذين اعقبوا ديكارت يؤكدون ان الحيوانات وليس الانسان ، هي التي تمتلك الغريزة ، ومن اهم القائلين بهذ الرأي يمكن ان يذكر توماس اكويناس وقد ردد فكرته هذه في القرن الثالث عشر الميلادي(٢٩). ويرى بعض النقاد ان الفكرة هذه تنطوى على تجزئة ثنائية تفصل بين الأنسان وبين سائر المخلوقات الاخرى. على أن رأي اكويناس هذا يمثل امتدادا لما كان قد ذكره الفلاسفة المدرسيون من قبل . بيد أن المناقشات هذه كانت قد احياها مجددا بعد أربعة قرون رينيه ديكارت [١٥٩٦ – ١٦٥٠]، الذي اراد التأكيد على التقسيم الثنائي بين الانسان والحيوان . وعزز ديكارت أفضلية الشعور عند الأنسان . وفرضيته المكررة هي أن العقل يعرف(٣٠) نفسه ويدرك ذاته افضل مما يعرف سائر الاشياء ، وقبل أن يعرف بقية موجودات البيئة . فهو يعرف ما هو كائن خارج العقل من الموجودات عن طريق ما تتركه هذه الموجودات من أنطباعات وما تطبعه على العقل من أحاسيس . وان دراسة الأنسان يجب أن تبدأ من دراسة عقل الفرد ومن التعمق(٣١) في ذاته . وعبارة [انا افكر فانا اذن موجود] راحت تتردد بأعتبارها بحكم ما صادفته من هوى من نفوس الذين حققت ورسخت ما يؤكدون(٣٢) عليه .

٦ – المناقشات التجريبية والاخرى القائمة على الوراثة

بدأت طوالع عصر الأستنارة تتهادى وهي تحمل تباشير معرفة عملية متطلعة مستزيدة . فشرح المهتمون بالعلم القائم على الملاحظة يراقبون حركات الحيوان(٢٣) وسلوكه بل عمدوا الى تدريبه ، فسرهم واستأثر بأهتمامهم ماشاهدوه من أن الحيوان يعيد نفس الحركات مقلدا بذلك ما يتدرب عليه . وراجت فكرة ان هناك تدرجا يمتد من ادنى الحيوانات الى ارقاها متى يصل هذا التدرج الى الانسان بل يبلغ ذروته عنده(٢٤). اما في جوانب الادراك الحسي(٣٥) والذكاء فأن الحيوانات العليا في سلم التطور لا تبتعد عن الانسان كثيرا . فجدت النزعة الرامية الى تقليل اهمية التمييز بين الانسان والحيوان في مضار التطور وفي مراحل اكتساب السلوك . ورغم ان معظم القائلين بنفي العقل عن الحيوان ، فأنهم اجمعوا على توفلأ الخصائص التالية التي تتمتع بها العجماوات ، واهمها:

١ – الادراك الحسي والذكاء.
٢ – دوافع موروثة.
٣ – الاستفادة من الخبرة ولو بشكل أولي.

وأن جميع الميول والنزعات تتضمن :

١ - ميول ونزعات آلية.

٢ - فعاليات وانشطة تكون موجهة بالشعور عند الانسان.

٣ - حركات جسمية ظاهرية ، أو نزوع الى احراز الراحة النفسية وتفادي الالم الجسمي.

ان المتتبع للفكر العلمي خلال القرن الثامن عشر يجد الباحثين مهتمين بأساليب استنباط ما وراء السلوك . اذ ذكر بعضهم عددا كبيرا من الغرائز بما فيها الآتية :

١ - غريزة الحركة الجسمية بوجه عام ، أو حركة اجزاء محددة منه.

٢ - غريزة استكشاف البيئة.

٣ - البحث عن الطعام وانتقاء افضل ما يناسب الجسم منه.

٤ - غريزة تفادي الخطر والأمكان الخطرة التي يحتمل أن تؤذي الجسم.

٥ - غريزة التعرف على مصادر الأذي الطبيعية.

٦ - غريزة التعرف على ابناء النوع الواحد.

٧ - غريزة العناية بالصغار من نفس النوع .

٨ - غريزة الرضاع عند الصغار.

٩ - غريزة مؤالفة النوع.

١٠ - غريزة التكيف أو اعادة التوجه نحو أفضل الاماكن في حالة التعرف الى ظروف طارئة(٣٦).

٧ - مراجع الفصل التاسع

1. A Critical Notice about E.C. Wilm's : The Theory of Instinct, in Philosophical Studies, vol. 1, No. 2 (1926), p. 259.

2. James Drever, (Snr), "The Nature of Emotions" J. Of Abnormal and Social Psychology , vol. XXVII, No. 3, (1932), p. 299.

3. Ibid, p. 299.

4. (1) Ibid, p. 299

(11) Alexander Herzberg, The Psychology of Philosphers,(

(111) Will Durant, The Story of Philosophy, London, (1926) pp. 108ff

5. The Theories of Instinct: A Study in the History of Psychology, London, (1925) p. X11

6. (1) Ibid, p. X111

(11) Aristotles Psychology: A Treatise on the Principles of Life. Eng. Trans. (1902), Books, 1 , 11.

(111) J.E. Erdman, A History of Philosophy, 3 vols. (1890)

7. (1) Sir William Hamilton, Lecture, 4 vols. Edinburgh.

(11) Aristotle's Moral Philosophy, London (1879).

(111) E.G. Wilm, op. cit. p. X111

8. Instinct, An Insight, Ed. ed. by R.C. Birney and R.C. Teevan (1961), pp. 165 - 166.

9. (1) E.C. Wilm, op. cit. pp. 14 - 15
(11) Alexander Herzberg, op. cit. chapters 1 - IV.

10. Cited by G.H. Lewes, History of Philosphy, 3 vols. vol 1, p. 163.

11. A Schwegler, Handbook of the History of Philosophy, 1868) pp. 85 ff

12. (1) Plato, the Dialogues of Plato, Oxford (1875)
(11) Will Durant , op. cit. pp. 7 - 59.
(111) E.C. Wilm, op. cit. p. 16.

13. (1) Francis Aveling, Psychology: the changing Outlook (1937), p. 144
(11) Psychologies of 1930, ed by Murchison,
(11) Plato, the Republic.

14. V.A. Herberg, op. cit. pp. 140 - 1
(11) E.C. Wilm op. cit. pp. 16 - 17
(111) Will Durant, op. cit. ch.1

15. (1) Aristotle's Psychology, op. cit. Books 1 , 11, 111
(11) Aristotles's Moral Philosophy, op. cit.
(111) E.C. Wilm, op. cit. pp. 22 - 23.

16. (1) Aristotle's Psych., op. cit.
(11) A. Herzberg, op. cit. pp. 16 ff

17 (1) Will op. cit. p. X111
(11) Will Durant, op. cit.

18 (1) A. Herzberg, op. cit. pp. 39 ff
(11) J.E. Erdman, op. cit. vol. 1
(111) E.C. Wilm, op. cit. p. 40
(IV) Will Durant, op. cit. pp. 108 ff
19. OInstinct, op. cit. p. 166
20 (1) Aristotle's Moral Philosophy, (1879)
(11) J.E. Erdman, op. cit. vol. 1
(111) James Drever (Snr) op. cit.. (1932) pp. 297ff
21. op. cit. pp. 40 - 41
22 Instinct, op. cit.. 166
23. L.J. Henderson, the Order of Nature (1925, p 17)
24. (1) Wihn, op. cit. pp. 43 - 49

(11) A. Herzberg, op. cit. pp. 45 ff.

25. (1) Herzberg, op. cit.
(11) Will Duranr, op. cit.
26. (1) J.E. Erdman, op. cit. vol 1
(11) Will Durant, op. cit.
(111) Herzberg, op. cit.
27. (1) Wilm, op. cit. pp. 67 - 61, 62
(11) Hamillton, op. cit.
(111) C.N. Cofer and M.H. Appley, Motivation, Theory and Researach (1955) ch.2
28. (1) Durant, op. cit.

(11) Hamilton , op. cit.

29. (1) Instinct, op. cit. pp. 167 - 166

(11) Wihm, op. cit. p. 78

30 (1) Descartes's Philosophical Works' (1942)

(11) Durant, op. cit. p. 166

31. (1) Descartes op. cit.

(11) Hamilton, op. cit.

(111) Brett's History of Psychology (1953) op. cit. pp. 344 ff

32. (1) Erdman op. cit. vol 1

(11) 'Wilm, op. cit. pp. 78 - 88

(111) Durant, op. cit.

(IV) Cofer and Appley, op. cit. ch.2

33. Durant, op. cit. pp. 218 - 275.

34. Joan Wynn Reeves , Body and Mind in Western Thought (1958) pp. 140 - 1, 252 - 62.

35. (1) Erdman op. cits. vol 11

(11) Wilm, op. xcit.

(111) Hamilton's Lectures, 4 vols op. cit.

36. Cited by Wilm, op. cit. pp. 116 , 117, see also pp. 97 - 109

الفصل العاشر

التأكيد على كون الغريزة دافعا خلال القرنين التاسع عشر وفي هذا القرن

١ – المناقشات الفلسفية لمفهوم الغريزة

كانت قد صيغت خلال القرن التاسع عشر نظريات متقدمة في الشمول والتنظير تناول فيها واضعوها مفاهيم الغريزة لما لها من أهمية بوصفها دافعا سلوكيا . وكان قبل ذلك ، خلال القرن الثامن عشر ، قد جاء [لايبنتز] Leibniz [١٦٤٦ – ١٧١٦] بنظرية [الموناد] Monads . ويبدو ان نظرية لايبنتز هذه قد استهوت عددا كبيرا من الباحثين خلال القرن العشرين هذا ومنهم مثلا مكدوجل فتبناها منذ عام(١)[١٩٢٠]. وقد استعملها مكدوجل اساسا في مناقشاته الهورمية أو الغرضية. فهو يؤكد على أن النشاط الهورمي عند الكائن الحي الذي يتصف بالتسيير الذاتي يبدو جليا على أنه نشاط ذاتي ارادي وان النشاط هذا يمكن تسميته [الموناد]. ولعل مكدوجل برأيه هذا كان يقرن الموناد بالغريزة والعكس بالعكس . وربما هو كان متأثرا بمن سبقه من مفكري القرنين السابع عشر والثامن عشر من امثال [أ.شافتسبري(٢)] و [ف.هتشبسون(٣)] و [ادام سمث(٤)]، ممن استخدموا الغريزة ليعللوا اسباب سلوك الانسان وليلتمسوا تفسيرا للسلوك البشري بوجه عام وليجدوا تعليلا مقبولا للفلسفة الاجتماعية فالمصطلحات التي كانت تستخدم من قبل مثل [الضمير] و [المشاركة الوجدانية] و [التقى] و [الهوى أو العاطفة المتأججة]، هذه كلها وسواها استبدلت بها الغريزة محركا لنوازع الانسان.

فنظرية لايبنتز مثلا قد تضمنت اقتراحات محددة يمكن وصفها بأنها غائية . ولعل ابرز ما انطوت عليه مناقشاته هي:

١ - استمرارية الطبيعة ابتداء من العوامل اللاعضوية وانتهاء بالانسان(٥).

٢ - تعليلا للتغير التلقائي الذي يطـرأ ضمـن الكائنـات العضوية(٦) .

٣ - التأكيد على ان تعريف الواقع يمكن تعليله على نحو أفضل ضمن اطار النشاط(٧).

واراد لايبنتز بالنشاط ما يمكن أن يقوم به الكائن الحي من وظائف في مواقف محددة ، وهي الوظائف التي يطلق عليها اليوم تعبير [فعاليات التنظيم الذاتي] والتي كثيرا ما يؤكد على دورها في المناقشات الغريزية . ويرتبط بالغريزة موضوع التوجه الغرضي المفضي الى هدف والمتفق عليه عامة هو ان الغرضية تتوفر حيث يتوفر الشعور . ولكن كيف يمكن تعليل غرضية الغريزة . ان ما يتردد بين المهتمين ببحث موضوع الغريزة هو ان الغريزة تعتبر بحد ذاتها نشاطا غرضيا خاليا من الشعور . فالحيوان لا يدرك غاياته بأنها غايات على النحو الذي يتبصر فيه الأنسان بغاياته . وان النشاط الذي يدرك لاشعوريا ما يرمي اليه من غايات هو ما عناه ارسطو بقوله بأنه نشاط [غائي(٨)]، واستجابة الأشياء استجابة سرمدية الى فكرتها المطبوعة عليها والى طبيعة ما جبلت عليه . ولعل هذا ما كان يفكر به هارتمن [١٨٤٢ - ١٩٠٦] حينما عرف الغريزة بأنها [نشاط غرضي ينقصه الشعور بالغرض(٩)] وبعد

مناقشة مستفيضة لمسألة الغريزة خلص هارتمن الى القول :

[ليست الغريزة نتيجة تأمل شعوري ، ولا هي بمحصلة النظام الجسمي ، وما هي بالمكنية المركبة في نظام الدماغ ، بل ليست هي نتيجة أو الية جامدة طارئة على العقل ، انما هي ما يأتيه الفرد من نشاط خالص نابع من صميم طبيعته من صلب تكوينه . وان الغاية التي نتحدث عنها والتي يخضع لها ويتعلق بها النشاط الغريزى ، لا يتم ادراكها من جانب عقل هو بمعزل عن تكوين الفرد ، وان ضرورة النشاط والعمل في اطاره ليست مملاة على الشخص من خارج نطاق ذاته ، بيد أن غاية العمل الغريزي انما هي في كل حالة مصممة بصورة لاشعورية وبأرادة محددة على نحو يتصورها الفرد في ذاته ، وأن اصطفاء الوسيلة المناسبة لكل حالة خاصة انما هي مهيأة بشكل لاشعوري(١٠)].

يبدو مما هو مقتبس هنا ان مفهوم الغريزة ، بوصفها دافعا ، يجعلها مفهوما جوهريا يفسر في ضوئه سلوك كل كائن عضوي بيد ان الصفة الغالبة على طبيعة الاقتباس توحي بأن النزعة الفلسفية هي المستحوذة . لكن روح الاقناع تبدو ظاهرة ، لان المنطق الذي صيغت به العبارات انما مستمد من الملاحظة ومن التأكد من حقيقة كينونة الغريزة .وان هارتمن قد عالج الموضوع بمنطق الفيلسوف وليس بالشواهد العلمية كما فعل دارون فعلا أو كما حاول هربرت سبنسر في الاقل الذي جهد ان يجمع بين المناقشات الفلسفية والنزعة العلمية المتوفرة في عصره ويمكن

القول في هذه العجالة بان مناقشة مفهوم الغريزة يمكن تعقبها في التأملات الفلسفية التي كانت تشدد على القول بان تصرف الانسان Conduct تمليه حكمة العقل في ان سلوك الحيوان Behaviour تتحكم به نوازع الغريزة.

٢- المفاهيم النشوئية والعلمية الأولى

قبل ان يتم تبين مفهوم الغريزة اساسا علميا ، كان الأتجاه العام في مراحل سابقة يجنح الى تفسير السلوك على أنه وليد الخبرة وحدها. لكن الفكرة هذه أصبحت فيما بعد لاحقة بسبب اصرار القائلين بالتطور بأن هناك اسسا بيولوجية يجري على أساسها تبرير الدوافع السلوكية التي لا يمكن بحال من الأحوال عفوية أو وليدة المصادفة. ومنذ تلك الفترات وفي الفترات التي تلتها أضحى الأتجاه يأخذ بالمنحى العلمي الذي أنكر أن يكون التعلم وحده أو الخبرة وحدها هما المؤثرين في السلوك وبخاصة عندما سلوكا(١١) متكيفا . وان نزعة التحري العلمي قد اتخذ صفة الشمول بين الباحثين فتوصلوا الى قناعة هي أن الغريزة تجمع بين سمتين بارزتين هما :

(أ) السمة الطبيعية النشوئية.
(ب) السمة الفطرية قبلا.

(٣) خصائصها عند افراد النوع الواحد(١٢).

ويعزو الباحثون المحدثون التحول في الأتجاه العلمي هذا الى علماء كبار ابرزهم [جانةبابتست لامارك] و [تشارلس دارون] و [وليم مكدوجل] وهو احدثهم ، وان جهود الأخير منهم هذا والتي توصف من جانب الناقدين بأنه [جهود فائقة واستثنائية متميزة] سيتم الالتفات اليها فيما بعد (١٣،١٤).

واظهر ناحيتين وردتا في اصل الغريزة تقدم بهما اصحاب المذهب النشوي هما :

١ – وراثة المهارات المكتسبة [لامارك].
٢ – الانتخاب الطبيعي المصاحب لها [دارون(١٥)].

ويذهب لامارك في فكرته الى أن وراثة الخصائص المكتسبة تنطبق على التكوين والوظيفة أي ان الكائن الحي يرث ما يكتسبه من خصائص وسمات ومهارات فتظهر هذه في بنيته وفيما يأتيه من وظيفة حياتية سواء تخدمه أو تخدم النوع الذي ينتمي اليه . ان نظرية أصل الغريزة المتضمنة في اراء لامارك اصبحت تعرف بـ [نظرية الذكاء المتنحي(١٦)] ويراد بها أنها مشتقة من النشاطات الكامنة في بواكير الذكاء وفيما يصدر عن الكائن الحي من سلوك متكيف . لكن عبارة لامارك هذه والموصوفة بانها [غير موفقة] وأنها [فائلة(١٩)] ، عارضها بشدة كل من [س.ج.هولمز] و

[س.أ.هوتمن]. والطريف في الامر أن موقف لامارك هذا كان قد استقبله بالتأييد كثير من المتخصصين بعلوم الحياة والمتجهين الى الدراسات النفسية . ولكن حصل فيما بعد تحول كبير ضده وابتعاد عن منحاه(٢٠).

وقد مر آنفا ان دارون [١٨٠٩ - ١٨٨٢] قد ابدى اهتماما جما بمفهوم الغريزة واولاها مكانا واسعا في كتاباته وفي بحوثه ، وجعلها حجر الاساس في نظرية النشوء والالتقاء(٢١) والانتخاب الطبيعي. وكان يؤكد على أن أهمية الغرائز لصالح الانسان والمخلوقات لا تقل عن حقيقة تكوين اي نوع من الانواع التي تتألف منها هذه المخلوقات . وتحت تحوير طفيف من التغيرات فأن تحوير أو تكيف هذه الغرائز يكون ذا جدوي بالنسبة الى النوع الذي تخصه . فالملاحظ اذن ان هناك جانبين مهمين هما:

١ - احتمال تحوير الغريزة وتكيفها مسايره للظروف البيئية وهذا يتساوق ونظرية النشوء.
٢ - الأنسجام والتماسك المتضمن في مفهومي الغريزة ونظرية الأنتخاب الطبيعي ، بوصفهما عاملين متوافقين في حياة أي كائن حي.

ومع هذا فأن دارون لم يقر بالقول بأن الغريزة تتميز بالتكامل . فثمة تناحر في هذا الوجود ، يقوم على غرائز المخلوقات التي يجعل بها هذا الكون. فنجد مثلا احد الكائنات تدفعه غريزته ليهاجم

فريسته، ونجد مثلا في الطرف الآخر ، تلك الفريسة تحاول التخلص(٢٢) والنجاة بنفسها مدفوعة بدافع حب البقاء والمحافظة على الذات . وان وصف دارون للغريزة قد تضمن بعض الجوانب الأساسية التي اكدها في هذا القرن الباحث المعروف [ر.و.جي.هحستون (٢٣)] ومن اهم ما نكره دارون من خصائص تتصل بالغريزة هي:

١ - استقلالها عن الخبرة.
٢ - تماثلها عند افراد النوع الواحد
٣ - خلوها من الغرض الشعوري . وان السمة الأخيرة هذه قد اعترض عليها باحثون محدثون من اهمهم مكدوجل كما سنتبين هذا فيما بعد.

ان دارون قد تبنى وجهة نظر ثنائية فيما يتصل بأصل الغريزة . فهو قد ميز بين ما اسماه بالغرائز المتكيفة Domisticated والغرائز الطبيعية Natural ، واعتبر النوع الاول بعيدة عن الجمود وتتسم بالمرونة اكثر من النوع الثاني. وان النوع الاخير هذا لم ينل منه الانتخاب الطبيعي كثيرا ولم يتعرض الى عوامله القاسية بقدر ما تعرض النوع الاول ، وان النوع الثاني قد تم انتقاله بين اجيال النوع الواحد بصورة سريعة(٢٤) وتحت ظروف في الحياة بعيدة عن الجمود والثبات والرتابة ، اما عن كيفية وراثة الغرائز المتكيفة هذه وقوة وراثتها وسرعة انتقالها

وطبيعة تسمياتها بوصفها اسسا لعادات والاستعدادات ، فان هذا يتم عن طريق تزاوج أو تهجين انواع مختلفة من المخلوقات(٢٥). وباتخاذ أمثلته من حياة الطيور أو الكائنات الدنيا ، تمكن دارون من أن يبين بأن تأثيرات العادة تأتي تاليه أو تعد ثانوية بالنسبة الى اهمية المؤثرات الناجمة عن الانتخاب الطبيعي لما اطلق عليه [التغيرات الطارئة للغريزة(٢٦)] . Accidental Variations of Instinct

ولقد اراد دارون بهذه العبارة تلك التغيرات التي تنشأ عن اسباب مجهولة لكنها تؤثر في نفس الوقت في احداث تغييرات طفيفة في بنية الجسم(٢٧). وان الغريزة من وجهة النظر هذه انما هي امتداد وراثي لغرائز تكيفت لصالح الكائن الذي ينتفع بها(٢٨).

ولعل ما فات دارون ادراكه هو عند ما علل بأن الغرائز توصف احيانا بأنها حالات عقلية ، والغرائز يمكن أن تتحدد عن العادات التي يكتسبها الانسان أو الحيوان ، وبمضي الوقت تتأثر بمكونات البئية فتكتسب(٢٩) صفة الوراثة. ولعل خطاه الآخر هو ظنه أن بعض الغرائز قد نشأت عند بعض الافراد بصورة مفاجئة ومن ثم انتقلت الى ذرياتهم بمعزل عن مجال الانتخاب الطبيعي وبمنأى عن اختبارات الانتفاع القاسية وأن مثل هذه الغرائز المفاجئة تتأثر [بحكم العادات(٣٠)] على حد تعبيره بيد أن كلام دارون هذا لا ينطبق عليةكلغرائز جميعها . فهو قد أوضح ما هناك من استثناءات. اذ نكر بأن غرائز النحل وغرائز اصناف كثيرة من النمل لم تكن قد اكتسبت بالعادة وانما هي وراثية بالنشأة

وبالأصل . ويرى دارون من ناحية اخرى بأن كلا من الغريزة والعادة انما هما ظاهرتان لاشعوريتان. وانهمـا يتصفـان بالاستمرارية والثبات مدى الحياة. وكل منهما تتألف من مهارات جزئية صغيرة محددة متخصصة . وأن العادات اشبة بالغرائز فهي ترتبط بعادات أخرى ، وتقترن بفترات زمنية محددة ، وبحالات جسمية معينة . على أن الغرائز تتفاوت وتتباين في اتجاهات متعددة .

مما اكده دارون في دراساته ، وبخاصة في كتابه اصل الانسان (١٨٧١) ، أنه لا فرق في الخصائص العقلية بين الانسان والثدييات الراقية . ومن بين الشواهد المقدمة للتدليل على هذا الرأي هو أن معظم ما يستدل عليه من غرائز عند الحيوانات مثل غرائز الجنس ، والمقاتلة ، والهرب ، والعناية ، بالصغار ، والالفة للنوع والنزعة الاجتماعية – تكون موجودة عند الانسان كذلك . ومن الملاحظات المدربة التي تمت الاستعانة بها ملاحظات اجراها دارون التي تم على اطفاله ابان الرضاعة والنشأة الاولى من حياتهم والوراثة هي الموضوع الاساسي في هذه الحالة ، وانها ، كما قال عنها سريل بيرت ، تؤلف [الجزء الرئيسي في نظرية صندل الذاهبة الى أن انتقال الجينات وتكوينها وأعادة تكوينها تقررها الى حد بعيد قوانين الصدفة(٣٢)] وهذا يعني ان هناك فروقا جينية بقدر ما هناك مشابهات جينية(٣٣).

وان ما يترتب على هذا هو أنه طالما ان الغرائز تعتمد على البنى

العصبونية ، فهي أذن كثيرا ما تتعرض لما هناك من تفاوت بين الأفراد وما هناك من فروق فردية.

وان الباحثين عن الغريزة وعن طبيعة تكوينها كانوا مدركين بأنها دوافع عند الفرد ، وانها تتنازع وتتناحر فيما بينها حتى عند الفرد الواحد وفي ذات الفرد في اوقات مختلفة فلفظة [الكفاح] Struggle أو [الصراع] كما تترجم احيانا ، استخدمها دارون في بعض الاوقات واراد بها الصراع بين الغرائز المختلفة ، او الصراع بين غريزة معينة وبين استعداد تعودي اعتاد عليه الفرد أو اعتادته جماعة معينة وهذا التناحر ضرب من ضروب السلوك . والسلوك الناجم هذا مبني على وحدات بنيوية تم تحضيرها ، وهذه البني هي الغرائز ، وفي ميدان الدفع والجذب بينها ، يتحرك الكائن الحي ، ولكن الانسان يخصصها(٣٤) لسلطات العقل في الغالب . وباتخاذ الغريزة اساسا للسلوك ثم التحول عن فكرة تبني نظرية الأفكار الفطرية التي كانت يأخذ بها كثير من الباحثين والفلاسفة آنذاك . فهذا التحول العلمي قد غير اتجاهات الباحثين شيئا كثيرا. وان مفهوم الغريزة قد أقيم على اسس من مفاهيم الانتخاب الطبيعي ، كما يؤكد على هذا اوجست فايسمن(٣٥) [١٨٣٤ - ١٩١٤] ، وان القواعد العلمية الجديدة هذه قد استهوت كثيرا من العلماء منهم مثلا ، فرانسس جولتن ، وجورج جي . رومينز ، ولويد مورجان ، و أ.ل. بولدوين ، ووليم جيمس(٣٦،٣٧).

ففكرة الأساس الغريزي كمصدر للسلوك ، واقتران هذا بالحركة النشوئية التطورية قد أصبح منحى جديدا في علم النفس . وان نظرية الغرائز بصيغتها الجديدة هذه وبشكلها المتطور انما تعزي الى جهود وليم(٣٨) مكدوجل . وان تأثير نظرية مكدوجل هذه قد ظهر واضحا في معظم الدراسات الحديثة الى جانب المعاصرة له ، وممن يمكن ذكرهم في هذا المجال ، على سبيل التمثيل لا الحصر .

كونراد لورينز في الوقت الحاضر في كثير من كتبه التي ظهرت منذ اواسط الخمسينات حتي الوقت الحاضر .

ون.تنبرجن الذي كان ولا يزال يؤكد على أثر الغريزة في سلوك المخلوقات الدنيا ومنها النمل مثلا والمخلوقات العليا وتنتهي بالأنسان وقد تضمنت اراءه هذه معظم كتبه التي ظهرت خلال الخمسينات والستينات(٣٩) من وقتنا الحاضر.

ان بحوث مكدوجل ولورينز وتنبرجن(٤٠) في ايامه ومن بعده قد ارست قواعد الغرائز على اسس الوراثة والبنية الجسمية والحالات العقلية . وقد أوضحت دراساتهم كثيرا من الفوارق بين اراء الباحثين السابقين(٤١) من امثال دارون وسبنسر مثلا ، فالاول انتهج المنهجية العلمية في تقديم الشواهد والادلة وجعل الثاني منهما مقومات(٤٢) الغريزة مرتكزة الى دواعي الخبرة مع عدم انكار لوجود الوراثه(٤٣). فهو كان يرى ان الغرائز انما هي

[تكيفات عصبونية عضلية(٤٤)].

ولعل اراء معظم القائلين بطبيعة الغرائز الاوائل يمكن تلخيصها على النحو التالي :

١ - ان كثيرا من المناشط الغريزية انما(٤٥) تقوم بها مخلوقات لم تبلغ بعد مبلغ التطور المتكامل ، مما ينفي عن تلك المخلوقات صفة الذكاء.
٢ - ان النشاط الغريزي والسلوك(٤٦) الغريزي عند الحيوانات العليا ، قد تأصل فيها قبل نشوء الذكاء وتطورة لديها ، وان الطاقة الغريزية عند هذه المخلوقات قد وجدت اسبابه حتي قبل احتمالات(٤٧) التعلم لديها .
٣ - ومع ان الغرائز ذات أهمية للمخلوقات في حياتها(٤٨) ، فأن الغرائز هذه تخضع لناموس الانتخاب الطبيعي ، شأنها في هذا شأن المخلوقات التي تحمل في تكوينها حقيقة الغرائز هذه(٤٩).

ومن دلائل أهتمام العلماء بالغرائز انهم حاولوا يومذاك تصنيفها من الوجهة النفسية الى :
١ - رئيسية(٥٠)
٢ - ثانوية(٥١)

واكدوا أن ثمة فروقا بين النوعين من الناحية النفسية هذه . ولكن اذا ما التقت اليها فسيولوجيا فلا فروق فيما بينها . وأن(٥٢) بعضهم قال بمرونة الغريزة وبجمودها في آن واحد . فهي مرنة في مواقف وجامدة في مواقف . وهي متكيفة احيانا وثابتة أحيانا أخرى . ومن الغرائز التي ذكروها مثلا :

غريزة المحافظة على الذات.

غريزة اعادة النوع أو المحافظة على النوع.

غريزة رعاية الصغار.

غريزة الهجرة وخاصة عند الطيور.

غريزة بناء السكن .

الغريزة الجنسية .

غريزة الرضاع.

غريزة اللعب .

غريزة المحبة .

غريزة حب الاستطلاع(٥٢ - ٥٨).

٣ - مراجع الفصل العاشر

1. Psychologies of 1930, op. cit.
2. Inquiry concerning Virtue or Merit (1897) vol. I
3. (1) An Inquiry concerning the Origin of Our Ideas of Virtues or Moral Conduct, op. cit.
(11) An Essay on the Nature and Condut of the Passions and Affections, op. cit.
(111) A System of Moral Philosophy, op. cit.
(4) The Theory of Moral Sentiments, op. cit.
(5) (1) Frank Thilly, A History of Philosophy (1931), pp. 364 FF
(11) Wilm, op. cit. pp. 45 , 50, 61 FF
(111) A Herzberg, op. cit. pp. 296, 385.
(IV) Will Durant, op. cit. pp. 296 385.
6. Wilm, op. cit. p. 126.
7. Arthur Schopenhaver, The World as Will and Idea, Eng. Trans, 3 vols, (1948), vol. III, ch XXVI.
8. (1) Aristotle's Psychology, op. cit.
(11) Wilm, E.C. , op. cit. p. 122
9. E. Von Hartman, Philosophy of The Unconscious Eng. Trans. (1931), Book 1, ch. 111, p. 79
10. Ibid, book 1, p. 113
11 (1) See chapter 1 above
(11) Instinct, op. cit, p. 168.
(12) (1) "On Instinct" In Nature, vol. VI (1872)
(11) "Flight of Birds not Acquired" Nature,
(111) "Instinct with Original Observations on

Young Animals" MacMilan Magazine (1873), vol. 27, 282 - 293.

(IV) "Instinct and Acquisition" Nature, vol. XII, (1895)

See also:

Charles Baudovin, "The Evolution of Instinct from The Standpoint of Psycho-Analysis" Psyche, vol. 3, 1922.

13. See chapter 11 above.

14. A.G. Tansley, The New Psychology and its Relations to Life (1921), p. 18.

See also by the same Author:

Mind and Life, (1952), pp. 41 ff, 53 ff

See also:

(I) A.G. Tansley, the New Psychology, op. cit. pp. 41 ff

(II) C.N. Lofer, abd M.H. Appley, op. cit. ch.

15. (I) Will Durant, op. cit. pp. 385, 405, 4;8, 384, 428.

(II) Wilm, op. cit. pp. 144 - 149.

16. (I) Will Durant : op. cit.

(II) Wilm, op. cit.

17. (I) Wilm, pp. 154, 161.

18. The Evolution of Animal Intelligence (1911).

19. Animal Behaviour (1899)

20 (I) Will Durant, op. cit.

(II) E.C. Wilm op. cit.

21. The Origin of Species, (1859), 6th, Impression

(1950), p. 180
22. A Posthumous Essay on Instinct appended to Mental Evolution in Animals, by George John Romanes, London, (1883), pp. 39 - 380.
23. Problems of Instinct and Intelligence (1928).
24. The Origin of Species, op. cit. p. 183.
25. Ibid, pp. 183 - 4.
26. Ibid, p. 185
27. Ibid, p. 180
28. From Darwin's Mss, p. 264, appended to Romance's Mental Evolution.
29. C. Darwin, "Inherited Instinct" Nature vol. VII (1873), p. 281.
30. (1) Ibid, p. 281, see also, pp. 417 - 18.
(11) The Descent of Man, op. cit. pp. 149 - 151.
31. The Origin of Species, op. cit. p. 201.
32. "Instinct in Man" Medical World, vol. LX XX VII (87) No. 4, (1957), p. 308.
33. Ibid.
34. Ibid, p. 306.
35. Essay upon Heredity and Hundred Biological Problems, 2 vols. (1891)
36. See Charles S. Minot, A Critical Notice about Morgan's Instinct and Habit Psycho. Rev. vol. IV, No. 3 (1893), pp. 312ff
37. The Evolution of Animal Intelligence, (1911)
38 . (1) King Solomon's Ring, (1952)
(11) On Aggression (1966).

39. (1) The Study of Instinct, (1951)
(11) Social Behaviour in Animals, (1953)
40. The Principles of Psychology, (1855), part IV, ch V, p. 539.
41. Ibid, p. 542.
42. (1) H.I. Spencer, "Comparative Psychology", Mind, Vol. 1 No. 1 (1876).
(11) Principles of Psychology, op. cit. pp. 542, 553.
43. See: "Homing Instinct in Dogs", Psych. Ns., vol. 11. No. 1, (1921)
44. Will Durant, op. cit. p. 385.
45. G.J. Romanes, Mental Evolution in animals (1883)
46. M.E.A. op. cit. p. 177
47. Ibid, pp. 177 - 178
48. Ibid, p. 257 and pp. 177 - 178.
49. Ibid, p. 178.
50. "Animal Intelligence" in the vol. XIX Century, vol. IV, No. XX. pp. 653, 672.
51. "Animal Intelligence" (1879), op. cit . p. 159
52. Mental Evolution in Man (1888) p. 7
53. M.E.A., op. cit. p. 186.
54. Ibid, p. 200
55. M.E.A. Op. cit. pp. 7 - 8.
56. " Animal Intelligence" (1879) op. cit. pp. 153 - 157.
57. M.E.A. p. 275.
58. Ibid, p. 250.

الفصل الحادي عشر

المحاولات الأولى لتصنيف الغريزة

١ - محاولات أولية نظريا وفلسفيا

ان الأهتمام بتفسير السلوك في ضوء مفاهيم الغريزة ، بوصفها منهجا علميا جديدا ، قد أدى الى مناقشات حامية بشأنها . وان التباين في الأتجاهات بشأنها قد أفضت الى وصفها أوصافا تختلف بأختلاف الباحثين واتجاهاتهم(١). فبعض الباحثين من امثال ر.س.بولز [١٩٦٧] كان يتحدث عما اسماه [المناقشات الكبرى عن الغريزة] ونجد كونراد لورينز [١٩٦٧] يتكلم عن [البرلمان الكبير بشأن الغرائز]. وكلا الكاتبين يؤكدان على اهمية الغرائز كونها قوى طبيعية تتجلى آثارها في جميع المواقف السلوكية(٢). على أن التفاوت في وجهات النظر قد أدى الى أهتمام بتصنيفها تصنيفا يسلط شيئا من الضوء على وظائفها وعلى انواعها بيد أن هناك صعوبة تعزى الى سبل الاتفاق على التبويب ، هل ينبغى ان يتم على اسس نشوئية أو أسس من التطور السلالي ، ولعل مرجع الصعوبة يتأتى من الأختلاف الواسع في التصنيف اذ لا يوجد تبويبان متفقان تماما على ما يجب اتباعه.

ان المنهجية في تصنيف الغرائز انما هي منحى جديد ، والحداثة هذه جعلت الباحثين يقفون ازاء أمور لم يألفوها في منهج علم النفس من قبل . ومرد هذا الى اكثر من سبب . فمن هذا الدواعي هي هل الغريزة موجودة أم غير موجودة . والعامل الآخر فما هي(٣) وما تكوينها . لكن البحوث الفسلجية والتشريحية اكدت وجودها بلا ريب . فتحول السؤال الى البحث عن عددها وعن سبل

ترتيبها من حيث اولويات أهميتها(٤) سلوكيا . واولى محاولات التصنيف(٥) كانت تستند الى أساسين هما:

١ - الطريقة السيكولوجية القائمة على محاولات فرويد ومدرسته.
٢ - طريقة البحث البيولوجي وكيفية نشوئه وما حققه(٦) من نتائج .

وأجتزاء للوقت يمكننا البدء من الوقت الحديث . وهنا نجد ي . ب. تيشنر في مستهل هذا القرن وفي العشرينات منه يذكر :

[اذا ما حاولنا تصنيفا أوليا للغرائز فأننا نجد في ادنى السلم منها عددا من الحركات تنسلك في عداد الافعال الأنعكاسية ومنها على سبيل المثال - السعال ، التبسم ، العطاس ، الأزدراد ، الانسياب في الزحام على الطريق ، الأنصات الى الموسيقى ... ففي هذه كافة نجد استجابات محددة الى منبهات معينة . وفي أعلى السلم نجد ميولا عامة شاملة: كالميل الذي يحدونا الى ادراك عالم المحسوسات بصفتها الواقعية . والميل التأكيدي الذي يحملنا على أن نضفي نزعة انسانية على كل شيء يكتنفنا ، سواء ما كان منه حيا أم جمادا . وثمة الميل الأجتماعي الذي يجعل منا مقلدين ومقتدين . الميل الى التقسيم الثنائي بحيث ننظر الى عالمنا على أساس تناقضي مثل اللذة - الالم فننطلق الى ان نسمي الأشياء والاشخاص مسميات وفق الاوصاف التى تلائمهم مثل صالح - طالح ، نشيط - خامل ، ايجابي - سلبي.]

وبين هذين الطرفين نجد تيشنر قد ذكر ضروبا أخرى تكاد تكون محددة المعالم أهمها :

غريزة الخوف [وكان ينبغي أن يذكر غريزة الهرب والانفعال المصاحب لها هو انفعال الخوف].

غريزة المودة والمحبة ،

غريزة الغيرة [بعض الباحثين لم يوافق على هذه التسمية اذ لم تعتبر الغيرة ذات اساس غريزي].

غريزة المنافسة

غريزة حب الاستطلاع

غريزة المقاتلة

غريزة التقزز

غريزة تأكيد الذات

غريزة الضعة

ولقد أسمى تيشنر الغرائز التسع هذه الغرائز الأساسية . ويلاحظ في تصنيفة هنا ركنان اساسيان هما:

(١) المدى الواسع الذي حدد في اطاره مفهوم الغرائز وكأنه اراد لها أن تشمل مختلف انواع نشاط الانسان.

(٢) والركن الآخر هو انه ، كما يبدو(٧) ، كان متأثرا الى حد بعيد بآراء وليم جيمس التي تضمنها كتابه المعروف :

أصول علم النفس (١٨٩٠).

ولعله يمكن ان تضاف نقطة أخرى هنا في هذا الصدد تلك هي أن تصنيف تيشنر هذا يتساوق وتصنيف ي . ثورندايك الذي جاء به عام(١٩١٣). فالمدى الواسع لمعنى الغرائز يتفق واتجاه ثورندايك القائل بأنها [استعدادات فطرية] . وكلا الباحثين متفقان على التأكيد اهمية الغرائز كمحركات للسلوك وعلى الاحتمالات الوراثية المتعلقة بالحياة العقلية(٨).

٢ - محاولات مبنية على الفسلجة والتشريح

فوليم جيمس (١٨٤٢ - ١٩١٠)، مثلا أصر على أن للأنسان من الغرائز اكثر مما لدى الحيوانات الثديية . فقد ذكر حوالى[٤٦] غريزة ، تمتد من غريزة الرضاع حتى تبلغ غريزة المحبة الأبوية . ولقد أجمل في قائمته هذه بعض الحركات الأنعكاسية أو الأنشطة التي تدخل في عداد الأفعال الأنعكاسية ، كالعطاس ، والتشمم، والسعال، والتثاؤب وسواها(٩). وهو قد أستعمل لفظي نزوع وميل واعتبرهما مرادفين لكلمة الغريزة . ومما يستغرب انه جعل لفظة [استعداد] مقصورة على غريزتين فقط هما غريزة [الأفراز] وغريزة(١٠)[المحبة]. ثمة جانبان يجدر تبيانهما . الأول منهما يتلخص في ان وليم جيمس لم يكن متأكدا تمام التأكد مما اسماه من غرائز . فهو مثلا قد اشار الى غريزتي [النظافة] و [التواضع] ووصفهما بأنهما [موضع شك(١١)]. وفي مثل هذا الشك كان

فرانسس جولتن قد وقع من قبل .

والجانب الثانى الجدير بالتدبر هو أنه حتى الغرائز المحددة التي ذكرها جيمس لم تكن واضحة المعالم على النحو الذي ذكرها فيه وليم مكدوجل مثلا . على ان المهم في هذا الشأن هو ان جيمس(١٢) قد تعرض الى ما اسماه بالغرائز [الاساسية التي تعد اهم وابرز الميول التي تؤلف محور سلوك الأنسان وهو بها يتصف وينفرد] . لكنه جعلها خاضعة لتوجيه العقل(١٣) . واننا لنجد واطسون في تصنيفه للغرائــز قد حذا حذو جيمس في بادئ الأمر(١٤) . فهو قد ذكر حوالى أثنتي عشرة غريزة . ولكن تجدر الأشارة الى أن موقف واطسون من الغرائز هو موقف المتشكك المتردد من(١٥) الأقرار بها ان لم نقل موقف المناهض . لهذا فهو قد أطلق على مجموعة(١٦) الاستجابات وردود الأفعال عنــد الانســـان ووصفهـــا بأنهـــا [سلــوك مكتســب(١٧)]

Unlearned Behaviour

. ففي نظامه النفسي نجد التأكيد ينصب(١٨) على العادات بدلا من الغرائز. ان العادة وليست(١٩)الغريزة ، هي الاساس في حياة المرء.

٣ – محاولات قائمة على التجريب

واكثر التصنيفات تفصيلا هي تلك التي بنيت على اساس سلوكى ، وقد جاء بها ثورندايك . وقد ضمن قائمته المطولة(٤٢) غريزة تتراوح بين غريزة الأنتباه ، كما يظن وتضم غريـزة

الخضوع ، وبين [غريزة النشاط العقلي]، ويضاف الى هذه الغرائز غريزة النشاط الجسمي والغرائز الأجتماعية(٢٠) . واننا لنجد في تصنيفه للغرائز ان لفظه [استجابة(٢١)] وكلمة [نزوع] يتكرران بوصفهما مرادفين للغريزة كما عبر عنها هو(٢٢) وشرحها . واعتبر الغريز اساسا للطبيعة الأنسانية . وبأقراره بالغرائز وبالفروق الفردية فأن ثورندايك يرى انه [طالما ان هذه الفروق في النظام الغريزى هي حقائق(٢٣) مقررة وانها اسباب ثابتة فلا يبدو من الحكمة في شيء التنقيب عن سمات أخرى اقل شأنا وندع جانبا هذه المسببات(٢٤) السلوكية]. ولقد ذكر ثورندايك اربع طرائق تصح أساسا لتبويب طبيعة الأنسان ، هي :

١ – الوظائف التي تستكمل عن طريق الميول.
٢ – الاستجابات التي تعتبر نتائج للميول .
٣ – المواقف التي تعد نتائج لتلك الميول وللاستعدادات .
٤ – الأصول التي تنبع منها(٢٤،٢٥) الغرائز أو الدوافع.

واعتبر ثورندايك التصنيف المستند الى الوظائف اكثر سائر انواع التصنيف(٢٦) الأخرى ذيوعا . واعتمد ثورندايك اسلوبا لتصنيف الغرائز منهجية كركباترك (١٩٠٣) . وكان كركباترك قد صف الغرائز في مجاميع(٢٧) هي :

اولا – غرائز المحافظة على الذات ومنها :

(أ) غريزة الطعام أو التغذية أو الاغتذاء.
(ب) غريزة التخوف [وكان يجدر ان يسميها غريزة الهرب على اعتبار الخوف انفعالا مصاحبا لها.]
(ج) غريزة المقاتلة أو المخاصمة.

ثانيا – غرائز الابوة ،أو الأبوية ، ومنها:

(أ) غريزة الجنس.
(ب) غريزة الأنشاد أو الغناء أو الحداء.
(ج) غريزة العري
(د) غريزة بناء الأعشاب عند الطيور.

ثالثا – مجموعة الغرائز الأجتماعية ، ومنها:

(أ) الانتماء الى الجماعة أو المجتمع.
(ب) التعاون من أجل الصالح العام والدفاع عن النفس والوطن.
(ج) البحث المؤالفة والمؤانسة.
(د) التماس الأعتراف بالذات من لدن الجماعة.

رابعا - غرائز التكيف ، ومنها:

(أ) الميل أو الغريزة التي تؤدي الى الحركة التلقائية.
(ب) غريزة الطاقة العصبية في اداء حركات بتكرار لأنها مألوفة.
(ج) غريزة التقليد والمحاكاة.
(د) غريزة اللعب.
(هـ) غريزة حب الأستطلاع

خامسا - الغرائز التنظيمية ، ومنها:

(أ) الميل أو الغريزة الأخلاقية للأمتثال للقانون والنظام.
(ب) الميل الى الدين أو الغريزة الدينية وتحدو الفرد الى الأعتراف بقوة عليا سامية .

سادسا - غرائز متفرقة واحاسيس شتى ، ومنها:

(أ) الغريزة التي تؤدي الى تجمع اشياء من ضروب شتى والتمتع بأمتلاكها.
(ب) غريزة البناء.
(ج) غريزة الهدم.
(د) غريزة التعبير وما يصاحبها من شعور باللذة.
(هـ) غريزة التذوق الجمالي(٢٧)

ولعله مما تجدر ملاحظته هو أن التصنيف القائم على المنهجية الوظيفية قد يجعل من المتعذر التمييز بين غريزة واخرى. وهذا مما يجعل التبويب المستند الى الأستجابات اكثر جدوى واشمل اقتصادا بالجهد .وينسلك تحت هذا الباب غرائز النشاط التي يؤديها الفرد وتتمثل فيها حركات جسمية(٢٨) محددة كالعطاس مثلا أو التبسم حيث في المستطاع ملاحظتهما . اما التصنيف حسب المواقف فليس من السهولة تحديده بدقة ، فقد لا تكون ثمة مكنيات جسمية - نفسية مشمولة في النشاط الذي يؤدى.

اما التصنيف حسب المصادر أو المنابع التي ترد اليها الغرائز فيرى ثورتدايك انه التصنيف العلمي الذي يمكن الركون اليه وهو تصنيف طبيعى لأنه تصنيف يرجع غرائزالأنسان واستعداداته وامكاناته الجسمية والعقلية الى نظام منسق يتسلسل وفقا لنشأة هذه الغرائز بصورة واقعية كما هي في دنيا الواقع . وهذا يوضح بدوره أن سلوك الأنسان وتكوينه انما يرجع الى اصول تطورية(٢٩).

يتبين مما سبق بأن تصنيف ثورتدايك للغرائز وتجميعها في مصفوفات محددة يتساوق وما كان قد سار عليه من قبل ه. وتجرز مارشال [١٨٩٦]. فمارشال كان قد قسم ما اسماه بـ [المنظومة الكبرى من الغرائز] في ثلاث مجموعات مقررة ومحتمة بثلاث غايات بيولوجية مختلفة والمجاميع الثلاثة(٣٠) هذه هي :

١ - مجموعة الغرائز التي تمكن الجنس الذي ينتمي اليه الفرد من الأستمرارية والبقاء.

٢ - مجموعة الغرائز التي تتيح استمرارية الحياة الفردية والذاتية.

٣ - الغرائز التي تؤدي الى التماسك الأجتماعي وهو التمسك الذي يسهم فيه الفرد، ويمثل اعلى وارقى الدرجات في عمليات التطور.

وقد حذا ت. هـ. ريبو [١٨٩٧] حذو مارشال في تقسيم الغرائز. اذ ان ريبو هذا صنف الغرائز في ثلاث مجموعات هي:

المجموعة الاولى: وتضم مجموعة الغرائز التي يسميها المختصون بعلوم الحياة الجوانب العضوية او الحيوية . ومهمة هذه المجموعة هي اغتذائية ، وتنطوي على ثلاثة اصناف فرعية هـــي :

(أ) الغرائز الأستلامية كما تبدو في حالة الجوع والعطش.

(ب) الناقلة ومهمتها أو وظيفتها فسلجية.

(ج) التعويضية أو التجديدية وتتجلى في الحركات(٣١) الغريزية.

المجموعة الثانية : وقد وصفها ريبو بأنها تضم غرائز اسماها غرائز [الحياة النسبية]. وهي مجموعة نفسية - فسيولوجية ونمت بصلة قوية الى الغرائز الأستلامية والتجديدية .

المجموعة الثالثة : وهي مجموعة الغرائز التي تكون مهمتها الأساسية نفسية ، ومهمتها التواصل والترابط والتطور ، فهي

تخدم الفرد(٣٢) بوصفه كائنا شعوريا .ومن هذه المجموعة بالذات تنبعث الأنفعالات .

وثمة تصنيف و.ب.بلسبري [١٩١١] للغرائز . وقد قسمها الى فردية ، وعرقية ، واجتماعية . وهو في هذا النهج يكون قد ماثل [و. تروتر ١٩١٩] الذي تحدث عن أربع غرائز فقط ، تلك هي(٣٣):

١ - غريزة المحافظة على الذات.
٢ - غريزة القطيع
٣ - غريزة التجمع أو الأجتماع
٤ - غريزة الأغتذاء

بيد ان تروتر كان جم الأهتمام بالمجتمع . واذ هو تحدث عن الغرائز ، فأنما كان يتحدث عنها منسوبة الى الفرد بوصفه عضوا فى مجتمع ، وكيف يجب ان تكون علاقته بمجتمعه مدفوعا بغرائزه بوصفها دوافع موجهة بالطاقة العقلية . وقد جعل نقاشه مرتكزا الى قواعد علم النفس . فأهتمامه كان اذن نفسيا - اجتماعيا . وقد ضمن حديثه عن الغرائز ما اسماه بالغرائز الفردية أو التفردية التي تعنى بالحركات الأساسية عند الطفل . ونسب الى هذه الغرائز ما يبديه الطفل من مخاوف وململة(٣٤) وعدم استقرار.

وان المهتم بهذه الموضوعات والمتخصص النفسي بصورة اوف ليجد تأثير مكدوجل واضحا في تبويب [أ.ج.تانسلي ١٩٢١] للغرائز . وقد جهد على أن يوائم بين ما ذهب اليه وما كان مكدوجل

قد ضمنه كتابه مقدمة لعلم النفس الاجتماعي المنشور أول مرة عام [١٩٠٨] والذي تكررت طبعاته المزيدة وتوالت بحيث أصبح هذا الكتاب يعد بداية تحول جديد في علم النفس لما انطوى عليه اراء وافكار جديدة لم تكن مألوفة من قبل . نجد تانسلي هنا قد حاول ارجاع تصنيفات مكدوجل الى ثلاثة اصول هي :

١ - مجموعة الوحدات الذاتية : وتشمل: تأكيد الذات ، والمخاصمة أو المقاتلة ، وحب الأستطلاع ، والاطعام ، والاكتساب ، والبناء، والخضوع ، والهرب، والتقزز.
٢ - مجموعة الغرائز الخاصة بالجنس : وتحت هذه تأتي : غرائز الأبوة ، وغرائز الأمومة ، وغرائز الأنسان أو الأنجاب.
٣ - مجموعة غرائز القطيع ، وتنطوي على : غريزة التجمع عند الحيوان ، والغريزة الأجتماعية عند الأنسان .

ان تقسيمالت تانسلي هذه تأتلف وما ذهب اليه من تصنيف للغرائز يتمثل في مجموعات اساسية هي :

أولا : حفظ الذات أو المحافظة عليها.
ثاني : المحافظة على القبيلة
ثالثا : المحافظة على العرق

ويلمس الباحث بوضوح تأثير مكدوجل في تقسيمه للغرائز ، يلمسه واضحا في دراسات باحثين آخرين ، منهم مثلا ، لويد

مورجـــان [١٩٢١(٣٥)] وايرنســت جونــز [١٩٢٤(٣٦)] و أ.ه.برلتون الين [١٩٣٠(٣٧)] . فمورجان مثلا قد ميز بين ثلاثة مستويات من الغرائز وهذه المستويات هي :

١ - الميول الحركية الآلية البسيطة.
٢ - مجموعة الغرائز ذات المستوى المتوسط أو الوسيطة .
٣ - مجموعة أو مستوى يضم غريزتين رئيسيتين هما :
(أ) كل سلوك يأتي ضمن اطار المحافظة على الذات.
(ب) كل سلوك يشتمل عليه الحفاظ على العرق.

وليلاحظ هنا بأن فعاليات السباحة أو العوم ، والالتقاط والخمش ، والتي اسماها مورجان غرائز المستوى الأدنى ، لم يعتبرها غرائز بالمفهوم الذي ناقش فيه فحوى الغرائز كما هي.

اما بالنسبة الى أيرنست(٣٨) جونز ، فقد ارتأى انه من الأجدى تجميع كل مظهر سلوكي يأتيه الأنسان تحت :

أ - انجذاب أو اقتراب أو توادد ثم
ب - تقزز أو نفور أو تصادر أو احجام .

ويذهب بيرلتون ألين الى أن التكوين الغريزي الانساني عند الأنسان انما يتألف من :
١ - عملية صيانة الذات ، وهذه تشتمل على : النمو والنماء

والديمومة الحياتية ، وما ينشأ عن هذه من انشطة أبتعثتها مسببات النشوء.

٢ - دوافع اساس روحي يكمن وراء اسباب حقائق الحياة.

٣ - واخيرا هناك غرائز الخوف والغضب ، وعنهما تصدر ارتجاعات وظيفتها حماية الدوافع الأخرى(٣٩).

٣ – مراجع الفصل الحادى عشر

1. Theory of Motivation, N.Y., p. 90 (1967)
2. On Aggression, London, (1967) ch. VI.
3. James Drever (Snr) "The Classification of Instincts" B.J. Psych. vol. XIV, part 3 (1924), p. 248.
4. (1) See Sigmund Freud (1915), "Instincts and Their Vicissitudes" in collected papers, vol. IV, ch. 4, (1925).

(11) James Drever, op. cit. pp. 24 ff.

5. Drever, J., op. cit. pp. 248 - 249.
6. A Text-Book of Psychology, New York, (1924) pp. 463 - 4.
7. Principles of Psychology, 2 vols vol 11
8. Educational Psychology, op, cit. vol. 1. ch. X XIV.
9. Educational Psychology, vol 1, New York
10. Ibid, pp. 433, 437
11. Ibid, pp. 434 - 435.
12. Enquiries into Human Faculty, pp. 47 - 57.
13. Principles of Psychology, op. cit. p. 441.
14. Psychology from the standpoint of a Behaviourist, London, (1919) pp. 254 - 61.
15. The Title of an article in Psychologies of 1925
16. Ibid, p. 1
17. Ibid, p. 1
18. Ibid, p. 2

19. Ibid, p. 6
20. Behaviourism 2nd. ed. (1911) p. 143
21. Psychologies of 1925, p. 17.
22. Educational Psychology, vol 1 op. cit.
23. Ibid, p. 150
24. Ibid, p. 203, vol 11
25. Ibid, p. 205, vol 1
26. Ibid pp. 205 ff
27. Fundamentals of Child Psychology, pp. 15 - 63.
28. See also
Bernard L.L. Instinct: A Study in Social Psychology London (1924) pp. 150 ff
29. Vol. 1, op. cit. p. 208
30. "Consciousness and Biological Evolution " Mind, vol. IV, No. 20, p. 524.
31. The Psychology of the Emotions, London, pp. 193 - 197
32. The Essentials of Psychology, N.Y. (1924) ch. X, pp. 267 - 287.
33. Instincts of the Herd in Peace and War, (1949), ch.2
34. The New Psychology and Its Relation to Life, London, op. cit.
35. "Instinctive Disposition " in Scientia, (1920)
36. "The Classification of Instinct" B.J. Psych. vol XIV, Part 3, (1924)
37. Pleasure and Instinct: A Study in the Psy-

chology of Human Action
38. B.J. Psychology, vol. XIV, Part 3, (1924) op. cit.
39. L.L. Bernard, op. cit. pp. 154 - 162.

الفصل الثاني عشر

المحاولات الاولى لتصنيف الغريزة
(تكملة)

١ - تصنيفات وباحثون

مر آنفا - في الفصل الحادي عشر - أن ثمة محاولات شتى تمت بشأن تصنيف الغريزة . وهناك من الدواعى التي ادت الى كل هذا الاهتمام بالغريزة وبتصنيفها . من ذلك مثلا أنه لم تكن من قبل قد تم التوصل الى اثباتها . فهي في هذه المرحلة العلمية الحديثة قد اكتشفت كعنصر اساسي في تكوين الفرد وبنيته الفسلجية والوظيفية . فأضحى الاهتمام بها بارزا في الدراسات النفسية الحديثة على نطاق شامل لم يكن مألوفا من قبل .

وقد سبق القول من قبل ان هناك باحثين كثر ممن أهتموا بمتابعة اصول الغريزة(١) سواء في مجال الاكتشاف البيولوجي أم تنشيط السلوك الفردى فهى بهذا الاعتبار اذن ، مصدر للسلوك ومظهر للتدليل على اساسياتها(٢)التكوينية . وما اكثر من اهتم بها من المتخصصين بمختلف فروع المعرفة وحسبنا ان نذكر منهم على سبيل المثال : أس.أس.كولفن [٣١ غريزة]، م.ف.ماير [٨ غرائز]، و.سي.باجلي [٥ فئات أو اصناف]، هوارد وارين [٣١غريزة] و ر. أسي. وودورث [١١٠غرائز(٣)] . وقد تحدث وودورث عن هذا العدد الكبير من الغرائز فوصفها بأنها [ميول موروثة]، وهو بهذا يكون قد جارى واتسون قبله وفي ايامه ذاتها.

وقد اراد وودورث بوصفه للغرائز هذا تفادي ما عساه أن ينشب من اختلافات في التسميات المنسوبة اليها ، ولعل هذا مما حدا به

الى أن يقرنها بالعادة . اذ هو يرى ان ليس ثمة من حد فاصل بين الغريزة والعادة . وتعليله لذلك هو ان لكل نشاط يأتيه الفرد وكل فعالية يقوم بها انما تنطوي على جانبين احدهما موروث وآخر مكتسب(٤). ونجد وودورث قد تحدث في نفس الوقت عن البواعث أو الحوافز والدوافع مؤثرا هذين التعبيرين على الغرائز ، وان تساوت اقدار الالفاظ في الاداء وفي نشاط الكائن الحي . فكان يتحدث نقلا عن حافز الامومة بدلا من غريزة الامومة . وهذا الوصف يصدق عنده على دافع الأستكشاف ودافع المقاتلة ودافع الغضب . ويلاحظ هنا ان لفظة غريزة قد استبدلت بها لفظة دافع ، لكن النشاط المنسوب هو من غير تبديل ولا تحويل . وعرف الباعث بأنه :

[حالة أو موجه عند الفرد ينزع به الى سلوك محدد ويحدوه الى السعي نحزااهداف معينة(٥)] ولا ينأى هذا التعريف بعيدا عن تعريف مكدوجل للغريزة التي وصفها بأنها حالة أو استعداد أو نزوع يأخذ بالمرء الى اهداف وغايات غرضية فيها منفعة للفرد وللرس.

فالباعث أو الدافع بالنسبة الى وودورث يطلق مخزون الطاقة عند الفرد فيتوجه بعدها الى مسالك معلومة . واللفظان عنده يرميان الى نفس الشيء الا وهو اطلاق الطاقة والاتجاه الى هدف . واننا لنلفي في هذا السياق الباحث النفساني طولمن يذكر ما اسماه ب [نمط النظريات الغائية] وقد جعلها اطوارا مقترنة بمعنى الانعكاسات(٦). لكنه اراد بهما احيانا معنيين متفاوتين . اذ اقتصر في استعمال النوع الاول على ما يدور حوله مفهوم(٧)

الغرائز من تعريف وتحديد وجعل هذا مرتهنا بالغايات . وللغايات هذه نعوت شتى عنده ، فهو اما ان ينظر اليها من الناحية البيولوجية : واما من الزاوية العقلية ، واما من الوجهة السلوكية(٨). وكان طولمن يستعمل لفظة [غائي] Teleological بالمعنى الوصفي الخالص ، بعيدا عن الأشارات الميتافيزيقية . وربما استعمل طولمن النظرية الغائية واراد بها النزعة الآلية ، وهذا مما يبعدها عن مرماها الدنيامي الحيوي . ولعله كان يستخدمها وهو يريد بها الغايات ends المفعمة بمعنى الاهداف . والغايات التي تعد امتدادا للأهداف يمكن ان تكون ظواهر ذات خصائص طبيعية تتجلى في ادق(٩) سماتها .

فالاتجاه السالف الذي اختاره طولمن قد استلفت اهتمام باحثين آخرين معه . منهم يمكن ان نذكر ، مثلا ، كلا من هل Hull و سكنر Sticnner ، وقد(١٠) عرف اتجاههم هذا بالغرضية السلوكية Behaviouristic Purposive ، ويعتبر هذا تحولا جديدا في علم النفس بعيدا عن النزعة السلوكية القديمة التى كثيرا ما وسمت بأنها آلية . ونزعتهم هذه قربتهم كثيرا مما دعا اليه مكدوجل من نظرية هورمية . وحاول طولمن تبويب النظريات الغائية في انواع فرعية ثلاثة هي :

(أ)بايولوجية

(ب) عقلية

(ج) سلوكية(١١)

اما بالنسبة الى (أ) فأن طولمن حاول تصنيفا بيولوجيا لكن تقسيمه هذا كان مسبوقا اليه بتأكيد مكدوجل وبمحاولات دريفر . وأما ما يختص(١٢) بالفئة (ج) فأن طولمن حاول الجمع بين النظرية السلوكية والنزعة الغرضية لما فيها من دنيامية وحيوية . وهو حاول في متجهه هذا الى أن يذهب الى استقطاب آراء باحثين أمثال كريج Craig ودونلاب ، وكذلك وودورث . بيد أن مناقشات وودورث في هذا المضمار لاغبار عليها ولا تحتمل التأويل . فهو يصدق عليه وصف [دنياميكي] Dynamist أو الباحث النفساني(١٣) الانتقائي أو [التوليفي] Eclectict

واما ما يتصل بالمجموعة (ب) فأننا نجد طولمن قد تحدث عما اسماه بالجوانب(١٤) العقلية عهدا اليها بنظرية الانعكاسات . واعتبر نظرية الانعكاسات هذه أساسا لتحديد مفاهيم الغرائز بأنها مكنيات حسية – حركية تنطوي على انعكاسات بدلا من كونها ذات مسارات غائية . وقد صنف ذلك في فئتين هما :

(أ) فئة تعتبر فيها الغرائز(١٥) ذات ارتباطات حسية – حركية .

(ب) وفئة تشتمل على مجموعة(١٦) انماطا حسية – حركية .

واولى هاتين الفئتين والتي يمكن(١٧) ان تسمى بنظرية الانعكاسات البسيطة توجد متضمنة في كتاب (جي.لويب) Loeb الموسوم ب : الحركات القشرية : الانتحاء وسلوك الحيوان (١٩١٨). ان معظم آثار واتسون النفسية تقترن بفئة (ب) وفئة(أ) نجد ثورندايك اكثر التصاقا(١٨).

لا ينبغي النظر الى النشاط الغريزي أنه مجرد فعل انعكاسي بسيط أو مركب . فهو نشاط غرضي الأصل وهادف . وهذا ما يجعله يتعارض ونظرية الفعل(١٩) المنعكس الآلي الذي يستمد أصوله من نظرية ديكارت الفلسفية . فالفعل الغريزي يعتبر نشاطا مستمرا ولا يكف عن استمراريته حتى يبلغ ما هو مرسوم له من هدف . وان الكائن العضوي وهو(٢٠) يسعى نحو هدفه أو غاياته يستشعر انفعالا أو انفعالات ، وهذه تطلق من صميم الغرائز وتلازمها . فنجد مكدوجل بوصفه [حيويا حقيقيا] كما وصفه كونراد لورنز [١٩٦٧(٢١)]، قد فسر بجلاء كل سلوك يأتيه الكائن الحي بما في هذا الانسان والحيوان ، على انه سلوك ترسى قواعده على دعائم فسلجية . وقد ضمن مكدوجل تفسيراته هذه في كتابيه :

مدخل الى علم النفس الاجتماعي ، طبع اول عام [١٩٠٨] وآخر طبعة منقحة وهي الطبعة الثلاثون ، صدرت عام [١٩٥٠] . وكذلك موجز علم النفس(٢٢) ، طبع اول مرة عام [١٩٢٣]، وفي هذا الكتاب الأخير وجه(٢٣) الاهتمام الى ما وصفه لورنز بالخطا الوظيفي في الاتجاه السليم أو الصحيح الذى ترتكبه بعض المخلوقات(٢٤) ، وبخاصة الحشرات لدى طيرانها ليلا بأتجاه اللهب فتحترق ، وهذا ما يسمى(٢٥) [بالانتحاء] Tropism

٢ - تصنيفات مكدوجل

لعل تصنيف مكدوجل للغرائز يعد اكثر المحاولات الأخرى وضوحا وابرز تحديدا . فهو قد حدد مسمياته من الغرائز تحت الفئات التالية(٢٦).

غرائز رئيسية ، وتشمل:

الغريزة	انفعالها
١ - غريز الطيران أو الهرب	الخوف
٢ - غريزة التقزز	الأشمئزاز
٣ - غريزة حب الاستطلاع	التعجب أو العجب
٤ - غريزة المقاتلة	الغضب
٥ - غريزة تأكيد الذات أو حب الظهور	الزهو أو الشعور الايجابي بالنفس.
٦ - غريزة الضعة	الخنوع ، أو الأحساس السلبي بالذات.
٧ - غريزة الأبوة	الحنان
٨ - غريز الجنس	ليس هناك انفعال محدد يصاحبها.

والغريزة الأخيرة في المجموعة الآنفة توضح بجلاء حقيقة طالما اغفلت خلال بحث موضوع الغرائز ، وتلك الحقيقة التي اكدها مكدوجل بأستمرار ، هي : [ان الغريزة ليست مجرد نزوع فطري يرمي الى النشاط والتحسس بأتجاه محدد وبصورة معينة ، انما هي كذلك نزوع موروث يدرك ويميز ما يسعى اليه وان استجاباته وارجاعه تحقق منفعة لصالح النوع(٢٧) ايضا.]

(ب) غرائز ليست بذات معالم محددة بوضوح ، وتتضمن:

١ – غريز التكاثر ولا انفعال محدد يصاحبها.
٢ – غريزة التجمعوهي الأخير من غير انفعال يقترن بها.
٣ – غريزة الاكتساب ولاانفعال يرتبط بها.
٤ – غريزة البناء ولم يذكر معها انفعال(٢٨).

(ج) غرائز صغرى ، وهذه تضم :

١ – غريزة الرضاع وهي بدون انفعال
٢ – غريزة الصراخ أو البكاء وهي الأخرى بدون انفعال.
٣ – غريزة الحبو ولاانفعال يصاحبها
٤ – غريزة المشي بدون انفعال
٥ – غريزة الرمش أو طرفة العين وليس لها انفعال مصاحب.
٦ – غريزة الأنكماش أو التقهقر أو التقلص أمام الضربة،وهي من غير انفعال.
٧ – غريزة الأرتخاء أو الراحة والنوم(٢٩).
٨ – غريزة الحك أو الميل الى الحك ، كما يحصل عند ما تتعرض منطقة من الجلد الى الوخز أو الحاجة الى خمش مكان تحسس الجلد الى الفرك أو الدعك .
٩ – غريزة السعال أو الميل اليه.
١٠ – غريزة التمخط أو الميل اليه.
١١ – غريزة التثاؤب أو الميل

١٢ - غريزة التبول أو الشعور بالميل اليه.
١٣ - غريزة التغوط أو التبرز أو الأحساس بالميل اليه .

ان ما حمل مكدوجل على أن يسمي الغرائز الـ (١٣) المذكورة آنفا غرائز صغرى أو ثانوية ، أو [مبهمة] ، لأنها تأتلف في جميع جوانبها وماتؤديه ، أو بقية الغرائز الرئيسية من نشاطات مشهورة في حياة الأنسان(٣٠) . ومع هذا فهو لم يسمها انعكاسات ، وانما اسماها غرائز صغرى لمالها من طبيعة حافزة ضاغطة . فسي تخدم غرضا مخففا على الفرد ، لكنها لا تسعى الى هدف خارج اطار البنية التكوينية له(٣١) وأن الغرائز الموصوفة تحت (أ،ب) آنفا تؤلف وحدة ذات الغرائز قيمة بيولوجية فى حياة الانسان . وانها مضافة الى الغرائز الأساسية والأخرى قد صفت في مجموعة بمثلها شكل بياني في(٣٢) الملحق (رقم١) في نهاية الجزء الثاني من هذا الكتاب.

بيد أن تصنيف الغرائز من جانب مكدوجل قد طوره فيما بعد ، ورصفها تحت عنوان رئيس اسماه الميول الطبيعية أو النزعات أو النزوع(٣٣) ، ضمنه كتابه:

طاقات الأنسان : دراسة في اساسيات علم النفس الديناميكي (١٩٣٩)وفيه أمل (١٨) نزوعا أو ميلا ،اشلاغ:
١ - البحث عن الطعام [نزوع التحري عن الطعام].
٢ - الأبتعاد عن أو تفادي الأشياء الضارة

٣ - التودد والمغازلة [النزعة الجنسية].

٤ - الروغان عن مصدر الخطر [نزعة الهرب وانفعالها الخوف].

٥ - الأرتياد واكتشاف المجهول.

٦ - اطعام الصغار وأيواؤهم [نزعة الحماية لذات الجنس].

٧ - الانضمام الى الآخرين [نزعة التجمع] وحب المصاحبة.

٨ - حب السيطرة ، ونزعة القيادة ، وتأكيد الذات ، وحب الظهور [نزعة حب السيطرة وتأكيد الذات]

٩ - الطاعة والاستخذاء والأستكانة [نزعة الخضوع].

١٠ - الأستياء والأمتعاض ومناهضة التهديد [نزعة الغضب].

١١ - الاستغاثة ، طلب العون والنجده [نزعة الاستعانة].

١٢ - البناء والتطبيق [نزعة البناء].

١٣ - الكسب ، الأكتساب ، التملك ، المغالبة للحصول على كل ما هو نافع وثمين [نزعة حب الأكتساب].

١٤ - الضحك ، السخرية من هنات الأخرين ، [نزعة الضحك والاستخفاف].

١٥ - الأزالة التغيير، ابعاد كل ممل ، [نزعة الراحة] .

١٦ - الراحة ، النوم ، الأستلقاء [نزعة الأسترواح].

١٧ - الهيمان ، التجوال في مناظر طريفة وجديدة [نزعة الهجرة].

١٨ - ثمة مجموعة من النزعات البسيطة جدا غرضها خدمة الحاجات الجسمية كالسعال والعطاس ، والتنفس والأفراغ (٣٤).

مما تجدر الأشارة اليه في هذا الشأن هو أن النزعات أو الغرائز

المرقمة (١١،١٤،١٥، ١٦،١٧) قد وردت في هذا التصنيف أول مرة . والملاحظة الأخرى في هذا الصدد هي ان الغرائز الصغرى غير المحددة المعالم المضافة هنا كالسعال والعطاس ، قد تحمل المرث على ان يضيف ما يشاء من النزعات واذن فالقائمة تصبح ممتدة الى ما لانهاية .

بيد أن قائمة الغرائز تلك لا يمكن اعتبارها(٣٥) نهائية . فالنزعة رقم (١٣) مثلا تنطوي على اكثر من تفرع تشابكت اطرافها معا. ولم يكن مكدوجل متأكدا تماما من ان النزعة رقم (١٧) هي غريزة أو هي مجرد حدس عابر ، فهو لم يشأ أن يتطرق الى انها جزء من تكوين الفرد ولم يجزم بذلك . ورغم هذا ، فأن مكدوجل ما كان ليكف عن التأكيد على أنه:

[ما من شك في أن تلك النزعات الفطرية تؤلف أساس الحياة العقلية لنا ، وانها تكون القوى الدافعة ، وهي الطاقات الهورمية ، المعبرة عن نفسها في جميع فعاليات ونشاطاتنا ، ابتداء من أبسطها وأنتهاء بأعقدها(٣٦).]

٣- الاتجاه البيولوجي والنفسي

مما تقدم يتجلى لنا أن النزعة والغريزة كلتيهما استخدمتا بنفس المعنى ولتعبرا عن غرض واحد . ولكن لماذا استعيض عن لفظة الغريزة بلفظة نزعة أو ميل ؟ هذا ما سنتبينه في الفصل القادم ، الفصل الثالث عشر .

اشار مكدوجل في معظم بحوثه الى ما اسماه باشباه الغرائز Pseudo - Instincts ، ونذكر من أبرزها :

المشاركة الوجدانية Sympathy

الأيحاء Syggestion

التقليد أو المحاكاة(٣٧) Imitation

ان العناصر الثلاثة المذكورة تعتبر من غير شك اسس التفاعل العقلي والوجداني وانها لبالغة الأهمية لمختلف جوانب الحياة الأجتماعية. (٣٨ – ٤٠) فالتفاعل بين الأفراد في المجتمع الواحد لا يمكن أن يتم بدون أن ترسى اسسه على قواعد من العلم والمعرفة . والمعرفة هذه يجب ان يتم ابتناؤها على أصول محددة مقومة بالبراهين التى تمت ممارستها في دنيا الواقع . ولعل اكتشاف حقيقة الغرائز عند الأنسان والحيوان مكنت الباحثين من التنقيب عن جوهر التواصل الأنساني أو ما يسمي في علم النفس الحديث بالارتباط بين الجماعات.

ويبدو أن موضوع الغرائز قد أستهوى الباحثين من مختلف الفئات ، وحملهم على تحرى حقائق التصرف الذاتي عند الفرد انطلاقا من دوافعه أو من غرائزه أو من مكوناته الأساسية . فثمة متخصصون بعلم النفس كثيرون أتجهوا في دراساتهم الى تمحيض الغريزة فسلجة أو تصنيفا. فدريفر [الأب] قد ميز ثلاث مجاميع من الغرائز أو الميول الغريزية كما كان يسميها احيانا .

١ – المجموعة الأولى تتسم بأستجابات محددة ازاء المواقف المختلفة . من امثلة هذا النوع نذكر [دريفر] غريزة الرضاع أو

مص اليد أو الأصبع وعض ما يوضع فى الفم .

٢ - وصنف تحت المجموعة الثانية ميولا أو غرائز فئوية في نوعيتها ولو بدرجات متفاوته ، تصاحب الأنفعالات التي تستثيرها المواقف الحياتية . لكنه لم ينكر أمثلة معينة .

٣ - والمجموعة الثالثة ضم تحت لوائها غرائز اللعب والتقليد . وجعل مجموعة هذا الصنف غير محددة ولم يقرنها بموقف أو بمنبه خاص(٤١ - ٤٣).

ان تصنيف (دريفر) للغريزة على وجه التحديد هو كما يوضحه المخطط التالي تلخيصا :

ميول فطرية

- [غرائز] ميول
  - عامة
    - اللعب
    - التجريب
    - التعاطف
    - الايحاء
  - خاصة محدد
    - [انفعالية]
      - الخوف
      - الغضب
      - الاصطياد
      - التملك
      - حب الاستطلاع
      - الاجتماع
      - المغازلة
      - حب الظهور
      - الخنوع
      - الابوية
    - خالصة
      - استجابات التكيف والانتباه
      - التشكك والتخوف
      - الحركة
      - النطق والتلفظ
- ميول [اشتهائية]
  - محددة
    - الجوع
    - العطش
    - النوم
    - الجنس
    - الغثيان
  - عامة
    - البحث عن اللذة
    - اجتناب الالم

لكن دريفر حاول تصنيف الغرائز ثانية في كتابه الموسوم بـ : تمهيد الى علم النفس التربوي (١٩٢١) مع تحوير اذ هو اضاف هذه المرة [الممارسة] أو النشاط أو التمرين أو المران الى الميول المحددة الأشتهائية . واضاف [الهرب] و [المقاتلة] و [التقزز] الى الميول الانفعالية وهو قد اكد اكثر على ان التصنيف هذا يجب أن يشتمل على الجوانب التالية :

١ - ميول غايتها الحفاظ على حياة الفرد واستمرارها.

٢ - ميول غرضها الحفاظ على ذات النوع

٣ - ميول ترمي الى صيانة حياة الجماعات الأجتماعية التي ينتمي الفرد اليها . وتلخيصا لهذه المجموعات الثلاث يمكن ان تدرج تحت عناوين أساسية وفق احدث مصطلحات علم النفس (٤٤ - ٤٨) وهي على التوالي :

(أ) الذات Ego

(ب) الجنس أو الرس Sex

(ج) القطيع أو المجتمع Herd

فتصنيف دريفر الآنف والموجز بالاساسيات (أ، ب ، ج) يمكن ان يوصف بأنه ذو نزعة بيولوجية ، وفي المستطاع تلخيصها على النحو التالي :

الذات	الجنس	القطيع او المجتمع
استجابات تكيفية بسيطة	النزعة الجنسية	غريزة الاجتماع والتجمع
الخوف	المغازلة	المشاركة الواجدانية
الغضب	غريزة الابوة	التقليد
الاكتساب		الايحاء
الجوع	اللعب	الاكتساب
الغثيان		
اللعب ؟		

فهذا التلخيص يكاد يكون بيولوجيا خالصا ، وهو يقابل التصنيف الآنف الذي يعد سيكولوجيا بحتا . فتصنيفه يمكن تلخيصه بأنه :

١ - يجمع بين التعميم والتخصيص .

٢ - وانه استجابي بشطريه سيكولوجي وبيولوجي .

٣ - وان بعض الميول التي نكرها تجمع بين طرفي الأنفعالية والبساطة(٤٩ - ٥٢)

في ضوء ما تقدم بوسع المرئ القول بأن علم النفس قد اتجه وجهة جديدة لم تكن من متضمنات منهاجه في يوم من الأيام الخوالي . فأصبح بمقدور المتخصص بعلم النفس تفسير بياناته وارساء معلوماته على قواعد من العلم البيولوجي والتحليل النفسي وأضحى هذا العلم يصاغ في أطر نظريات حديثة مستمدة من الواقع ومن التجربة . بحيث أصبح الباحث يقيم حججه ويدعم

آراءه بما يستقيه من واقعه . ويبدو ان مفهوم الغرائز قد تأثر بأقترانه بما بذل من جهود علمية معززة بالبراهين الحسية . حتى انه ليقال احيانا بأن المتخصص بعلم النفس والمتخصص بالفيزياء كليهما يفسران الظواهر ضمن سياق المحسوسات التي يتفاعل معها الفرد وان مفاهيم الغرائز في هذه الناحية انما اهتم بها المعنيون بها لأكثر من سبب . فهي اتخذت منطلقات لتبرير السلوك الغرضي . وهي ، بعد، استخدمت للتمييز بين الأنسان والحيوان . وان البحث العلمي ، كما نعرف ، وكما عبر عنه و. جراي والتر (١٩٦٥) [ليس برحلة أو بة الى ارض الوطن] .

فمما هو معروف لا يكاد يتفق العلماء على شيء حتى يفترقون . وأن موضوعا شائكا في علم النفس كموضوع الغرائز أحرى ان يثير كل ما هو معروف من نقاش ساخن في مجالات هذا العلم . بيد أن ماطرأ من تطور قد تحول السؤال فيه من : هل الغريزة موجودة ؟ الى سؤال ما وظيفتها ؟ ثم انتقل الأمر الى كيفية تحديد اعدادها واستبانة طبيعة اهميتها في حياة الكائن العضوي وبخاصة الأنسان الذي استأثر بأهتمامه التنقيب في خفايا المعرفة ليستكشف حقيقة ذاته من جهة وليستبين طبيعة صلته بهذا الكون الرحيب.

٤- المراجع الخاصة بالفصل الثانى عشر .

1. L.L. Bernard, op. cit. pp. 154 - 162.
2. Human Psychology, Boston (1922), p. 106, sec. also:
Bernard, L.L. "The Misuse of the Concept of Instinct" in Insighted ed. op. cit. p. 15.
3. Psychology: A Study of Mental Life (1943) 1st Published in Britain (1922), pp. 138 - 169.
4. Ibid, p. 371.
5. Ibid, pp. 376 - 377, 374 - 382.
6. Ibid, p. 363.
7. Tolman, E.C. "The Nature of Instinct" The Psychological Bulletin, vol. 20.
No. 4, (1923), p. 200.
8. Ibid, p. 200
9. Ibid p. 200
10. (1) Ibid, p. 208, see also.
(11) "Mechanism and Teleology in Psychology" Psychological Review, vol. 32, No. 4, (1925), p. 265.
11. "The Nature of Instinct" op. cit., p. 208.
12. Ibid, pp. 209 - 210.
13. Ibid, pp. 210 - 211.
14. "The Nature of Instinct" op. cit. pp. 200 - 201.
15. Ibid, p. 209.
16. Especially his "Behaviour: An Introduction to comparative Psychology (1914)

18. "The Nature of Instinct" op. cit. p. 201, See also
Thorndike Educational Psychology, vol. 1 op. cit.
19. "The Nature of Instinct" op. cit. p-. 201.
21. An Introduction to Social Psychology, London, 25th ed. (1943), pp. 413, see also, p. 25.
22. Ibid, p. 413, see also: An Outline of Psychology, op. cit. pp. 53 - 54.
23. On Aggression (1967) op. cit. p. 42.
24. Ibid, p. 199
25. An Outline of Psychology, op. cit. pp. 59 - 64.
26. (1) An Introduction to Social Psychology, op. cit. pp. 43 - 56, 228 - 239,- 54. 331 - 363.
(11) An Outline of Psychology, op. cit. pp. 71 ff, 110, 118, 133.
27. An Introduction to Social Psychology, op. cit. p. 334
28. Ibid, pp. 69 - 75, see also pp. 255 - 259, 277- 279
29. Ibid, pp. 35, 379 - 399
30. Ibid, p. 398
31. Ibid, p. 397
32. Expanation of Human Behaviour, 2nd ed. op. cit. pp. 182 - 183.
33. The Energies of Men: A Study of the Fundamentals of Dynamic Psychology, London, Methven (1939) 4th ed. chapter (VII)
34. Ibid, op. 97 - 98.
35. Ibid, p. 98

36. Ibid p. 99
37. Introduction to Social Psychology, op. cit. p. 77
38. Ibid, p. 77
39. Ibid, p. 77
40. Ibid, pp. 77 - 78
41. McGurdy, Problems of Dynamic Psychology, (1923), ch. XVIII.
42. Cambridge University Press, 2nd ed. (1921), pp. 166 - 167.
43. Instinct in Man, p. 169.
44. Ibid, pp. 168 - 9
45. London, Edward Arnold, p. 57.
46. B.J. Psychology, vol. XIV, Part 3, (1924), op. cit. pp. 249 - 250.
47. Ibid.
48. An Introduction to the Psychology of Education, op. cit. p. 49.
49. Instinct in Man, op. cit. p. 169.
50. (1) B.J. Psychology, vol. XIV (1924), op. cit. p. 250.

(11) An Introduction to the Psychology of Education, op. cit. pp. 50 - 51.

(111) (a) See also: J. Drever (with Mary Collins) Psychology and Practical Life. (1936)
(b) J. Drever Experimental Psychology (1941).

51. (1) An Introduction to Social Psychology, op. cit. pp. 311, 312, 313.

(11) An Outline of Psychology, op. cit. pp. 100 -

103.
52. (1) Animals and Men, London (1937)
(11) "Psychological Needs" in Human Affairs ed. by R.B. Callell (1937), pp. 36 ff.
53. J.C. Flugel, Morals and Society , London Duckworth, (1945), p. 249.
54. The Living Brian, Pelican ed. p. 139.

الفصل الثالث عشر

متجهات ومنطلقات

١ - بعض العناصر الاساسية

تجدر الاشارة الى أن مفهوم الهورمية الذي أضحى بعد اليوم اساسا لنظام نفسي متكامل ، يعتبر دون ادنى شك ممهدا نظريا لعلم النفس الادراكي الدينامي الحديث . وان النظرية الهورمية من حيث اساسها المنطقي لهي مدينة نشوء وتطورا الى ما بذله مكدوجل من جهود . فأصبح علم النفس الهورمي موضوع بحث ميداني بعد ان كان موضوع مناقلات فكرية فقط. فعلم النفس الهورمي او الغرضي أصبح خلال الحقبة الممتدة عبر الأربعينات من هذا القرن يمثل فسحة في نطاق الدراسات النفسية لم تكن مألوفة من قبل . وانه يمثل من ناحية أخرى حسما في اتخاذ موقف علمي متميز يتجلى وضوحه عند المقارنة بين مختلف اتجاهات علم النفس بمدارسه المعاصرة . ولقد جهد علم النفس الغرضي ان يوضح بجلاء قواعد سلوك كل من الحيوان والأنسان ، بعد ان كانت تبريرات هذا السلوك تعد من قبل لغزا محيرا.

ويبدو ان ثمة عناصر من ضروب شتى قد تضافرت لتوفر الأسس الرصينة التي نهضت عليها النظرية الهورمية . من هذه العناصر ما هو سلبي ، ومنها ما هو ايجابي.

١ - ففي الجانب السلبي ، يمكن ان نورد المذهب المادي . ومؤداه انةكلطبيعة يمكن تفسيرها على اساس فيزيقي فيزياوي بحت. بيد ان مكدوجل قد عارض وجهة النظر هذه على اساس ان

الطبيعة التي يمكن ان تقترن بالحياة لا يمكن ردها فقط الى تفسيرات مادية خالصة . ففي هذا الاتجاه ما يجانف قدسية الحياة وما يخالف قيم الأنسان الاجتماعية .

٢ - ومن الجوانب السلبية الأخرى ما جاءت به الدارونية الجديدة وما التزمت به من تبريرات حتمية تناقض مبدأ المرونة وسنة التدرج . اذ ان للحياة مقصدا ، وللحياة غرضا ، وان نزعة المنافحة القصدية تتوخى دورا مرسوما لها فلا تتعداه . ولهذا الركن ناحية وظيفية . والوظيفة في المفهوم النفسي عند مكدوجل ما يقابل النزعة الحيوية والتي اطلق عليها دريش تعبير [المعنى المنسجم او المتناغم].

٣ - بيد ان هنا عنصرا ايجابيا يبدو انه قد دعم من الموقف الهورمي وشد أزره. اذ ان القوى أو الطاقات العقلية أصبحت مقرة على انها موروثه فطرية . وهذا الاتجاه عزز من المنحى الغائي الذي يذهب الى أن السلوك انما هو موجه صوب اهداف مثلى

لكن ما سلف نكره قد واجه شيئا من المواقف المناهضة فثمة :

اولا : مبدأ الشك الذي كان متحكما في الفكر العلمي يومذاك .

ثانيا : كانت هناك الى جانب النظرية الغرضية نظريات علمية اخرى وهذه أصبحت في مجابهة فكرية مع النظريـة الغرضية الهورمية . ولعل هذا ما جعل المناقشات احيانا تمتد اعواما وكلها تدور حول نقطة علمية محددة بالذات .

ثالثا : نشوء بعض النظريات النفسية ، ومنها مثلا النظرية السلوكية التي كانت في الأفق ، والتي اعتبرت كل نظرية نفسية سواها مناهضة لدى تأثيرها . فكانت النظريتان الهورمية الغرضية والسلوكية متناحرتين ، ولكل منهما اتباعها ومؤيدوها ، علما بأنهما يبحثان في ميدان واحد مجاله الأنسان والتعرف على قيمه في الحياة.

رابعا : ان علم النفس الهورمي لم يلزم نفسه بطريقة محددة وانما حاول اولا الانتفاع من كل ما يمكن ان ييسر حقائق تطبيقه.

٢- مجالات اهتمام علم النفس الغرضي

اهتم علم النفس الغرضي بموضوعات شتىٰ ، لكن تأكيده على جانب الاستعدادات الموروثة قد ميزته في حقبة زمنية كان النقاش فيها لا يخرج عن نطاق النواحي الفلسفية ومناقلاتها . فعلم النفس الغرضي ارسى قواعد مناقشاته على التجريب وعلى الفسلجة وعلى المنطق العقلي . وجعل النشاط لباب ما ذهب اليه وما اكد عليه . فلم يكن علما نمطيا وانما كان علما غائيا . ويرى اصحاب مدرسة علم النفس الغرضي ان الطاقات العقلية انما تتألف من نزعات فطرية وان مصدر الطاقات العقلية وراثية من حيث المنشأ والتكوين ، ولكنها تنمو في مجال البيئة التي تتيح لها سبل النماء فتزيدها قوة وثراء.

فمما يؤكده علم النفس الهورمي هو أن مجمل نشاط الانسان انما هو موسوق بعامل دينامي يعتبر نتيجة لحافز غريزي. وأن ما كان يرمي اليه مكدوجل هو تناول جوانب من مشكلات سلوك الأنسان ومحاولة ارساء حلولها على قواعد التفسير العلمي في مجالات الاتجاهات النفسية الحديثة. وأن ما تمسك به علم النفس الهورمي ، والذي اثبتت صدقه الأيام والتطبيق ، هو ان كلا من التبريرات البيولوجية والتفسيرات الأجتماعية والمناقشات الحفزية قد أرسيت أسسها على قواعد من الاراء الفطرية . وان ما قام به مكدوجل من بحوث في هذا المجال وما يضطلع به من بحوث حاليا كل من [لورنز] و[تنبرجن] كلها تؤكد صدق هذا الاتجاه . وهو أتجاه تبنى نزعة استمرارية السلوك في حياة الفرد بأعتبار السلوك هذا يعبر عن نبض الحياة عند الكائن الحي. وابرز خصائص السلوك الحي هذا :

١ – المرونة وعدم الرتابة أو الجمود . ومنبع السلوك هذا أساسا الجوانب الفطرية ولكن للتعلم دور المحور.

٢ – قد يكتسب السلوك هذا سمة الانطباع المستمر فلا ينثني اذا ما تم تثبيته . ولهذا الركن جانب تطبيقي مهم فى حياة الفرد والجماعة .

٣ – تدل ملامح السلوك بوجه عام على ان دوافعه موروثة في الأساس ، والوراثه هذه مدعمة بيولوجيا.

٤ – ان القول بوراثة الدوافع المحفزة للسلوك تجعل من الميسور التأكيد على نظرية البواعث التي يعول عليها كثيرا في الوقت

الحاضر في الدراسات النفسية خاصة وفي الدراسات الاجتماعية عامة .

٥ - ان ما قام به الباحثون من دراسات مختبرية وميدانية فيما بين الاعوام الممتدة من ١٩٢٦ حتى الوقت الراهن تؤكد على ان مفهوم الدافع بمختلفة مسمياته هو العامل التفسيري الذي ينتظم الانماط السلوكية . من امثال هؤلاء الباحثين يمكن ان نذكر علي سبيل المثال كلا من : جي.ب.ايجسان ، وئي.ب.هولت ، و ب.ت.يانج، و أ.جنزبرج ، و ف.أ.بيش، وئي.هـ.هيس، و ف.ف.سمث

ان الوصف الغرضي للغريزة مثلا، يختلف تمام الاختلاف عما ذهب اليه يونج من تفسير يرتكز الى الجانب النمطي الأثاري . فالغرائز كما وصفها جي.أ.هادفيلد [طاقات تحدرت الينا على نحو يتسم بالشمول] ويريد بذلك ، بطبيعة الحال ، ان الدوافع هذه تشمل بني الأنسان من حيث عددها وان تفاوتت في قوتها وفي تربيتها وتهذيبها . وان ما ذهب اليه كورت ليفين فيما بعد من قول [بالموجهات] و [الطاقات] لا يخرج عن كونه نفس فكرة الدوافع أو الغرائز بوصفها محفزات للسلوك .

ما من شك في ان هناك جانبين متمايزين لابد من الاخذ بهما .

الاول : التمييز بين البواعث من ناحية وبين انماط السلوك من ناحية اخرى.

الجانب الثاني التمييز بين السلوك المرتكز الى الاسس الفطرية والسلوك المستمد مما يتعلمه المرء في الحياة .

على انه يجدر الا نغفل عنصر التنشئة الاجتماعية التي من شأنها تحوير وتهذيب الدوافع الفطرية ، واكساب الناشئين عادات راسخة ايجابية منذ البدء فتحصنهم ضد ما قد يتعرضون له من مزالق سلبية فيما بعد في الحياة . والدوافع أو الغرائز في ضوء المفهوم الهورمي تشير الى :

١ - انها تمثل وحدة سلوكية فطرية .

٢ - انها تعبر عن صميم التكوين الجبلى للكائن الحي بوصفه كلا متكاملا .

وان الكائن الحي وهو يتفاعل مع الحياة انما يكشف عن :

١ - نزعته الفطرية

٢ - قدرته على انه مؤهل لمواجهة ظروف الحياة ، فهو يكشف عن نزعته الحيوية وعن قدرته على النشاط الذي يميز كائنا عن كائن أخر . وهذا يسمح بتفسير حقائق الغرائز وفق قواعد اهمها :

١ - انها استعدادات موروثة

٢ - ان كل غريزة تعتبر وحدة قائمة بذاتها حسب مفهوم مندل.

٣ - انها مولدات ذاتية للطاقة فهي ذاتية النشاط

٤ - انها تعرفية النزعة

٥ - انها مصادر السلوك وتلقائية النشاط وديناميسة الحركة.

وللمرء ان يتساءل لم كل هذا التأكيد على الغرائز ؟

ومهما تعددت الاجابات وتباينت الاراء فأننا نجد علماء النفس يكادون يجمعون على أنه لم يقدم بديلا مقبولا لمبدأ الغرائز خلال رحلة علم النفس هذه منذ ان اصبح علما له كيانه بين سائر العلوم الأخرى . واننا لنجد هارفيلد(١٩٦٧) مثلا يذكر ما يلي:

[... لقد اسهم مكدوجل اسهاما واسعا في ترسيخ قواعد علم النفس بخاصة ، واسدى الى العلاج النفسي عامة خدمة جلى . فهو قد عزز من كيان الصحة العقلية ومن مبدأ رسوخ الاخلاق ، وذلك عندما اوضح انه في المستطاع توجيه الغرائز بوصفها محفزات للسلوك ومحركات له ، من مساراتها المخطوءة المنحرفة الى متجهات جديدة تكون مقبولة اجتماعيا ومرضية للنزعة النفسية وللذات الانسانية..]

فالتسامي في الحياة والمشاركة الوجدانية بين افراد المجتمع والتعاون في مجالات الحياة والرضا عن الذات والانسجام مع البيئة كلها عوامل تؤدي الى نزعة الأنسان الى ان يسعى الى تحقيق ما هو مطلوب منه من دور اجتماعي بناء.

لكن علم النفس الغرضي ، وهو يؤكد على مبدأ الغرائز فيعتبر مولدات للطاقة السلوكية انما وضعها في مراتب متتالية من حيث سلم التطور ، واهم مراتبها هذه هي:

١ – المرحلة الا ولى : مرحلة الابهام والغموض : في هذه الفترة بالذات نجد السلوك يتجلى في حركة المخلوقات الدنيا.

٢ – مرحلة كفاح المخلوقات التي يمكن ان توصف بأنها عجماوات ، وتجدها تسلك غريزيا صوب اهداف تسعى اليها دون ان تعيها.

٣ – تصرف من مستوى ادنى الى مستوى اعلى.

٤ – تصرف المراتب الوسطى ، وفي هذه المرحلة نجد الدوافع الغريزية تخضع للضغط الأجتماعي.

٥ – تصرف موجه بمراتب سلوكية عليا . وفي هذه المرتبة تتحكم العلاقات الاخلاقية في حياة الأنسان .

ان ما اتجه اليه علم النفس الغرضي هو تحري الاجابة على اسئلة تثار منها مثلا : ما طبيعة الأسس الفطرية التي يرتكز اليها العقل ؟ ما هي الأسس التي ترتكز اليها النزعة النزوعية في سلوك الكائن الحي؟ واننا لنجد ان علم النفس الغرضي هذا قد تصدى في ذات الوقت الي نزعة جانفت روح العلم ردحا من الزمن الى نزعة ، ومؤداها أنه يجب الفصل بين الفسلجة وعلم النفس . ولعل النزعة هذه مستمدة من الماحكات الفلسفية ، او لعلها متبقية من أثارها . بيد ان الأتجاه الحديث الى تفهم وظائف الجسم ، وكيفية اداء الجسم لنشاطه ، قد مكن الباحثين في علم النفس من الربط ربطا محكما بين حقيقة الفاعلية النفسية والوظيفة الجسمية بوصف الانسان كلا متكاملا وأنه يعمل وحدة متكاملة . على اساس ان اهم مظهر من مظاهر الحياة انما هو غرضي في نشأته

وفي مختلف ظواهره ومظاهره . على أن الظواهر هذه انما هي تعبير عن جوانب من العمليات العقلية التي استهوت كثيرا من الباحثين في ايامنا هذه ومنهم يمكن ان نذكر على سبيل المثال :س.شاجاس (١٩٥٤) ، وهـ.جي.أيزنك(١٩٥٥،١٩٥٧،١٩٦٣)

ومما اجرى من دراسات فيما بين ١٩٥٠ - ١٩٦٨ نجد دعما لفكرة وراثة الغريزة بوصفها عنصرا اساسيا في النظرية الغرضية في علم النفس الحديث فهي:

١ - موروثة.

٢ - وهي تكون بعدد محدد عند افراد النوع الواحد .

٣ - وانها أصل تحفيز السلوك.

٤ - وانها ليست جامدة .

وهذا يجعل السلوك يتصف بخصائص منها :

(أ) انه فطري بالوراثة الى حد بعيد .

(ب) وانه صادر عن تحفيز داخلي ذاتي

(ج) وانه منتظم انتظاما داخليا .

٣- خصائص وسمات

وكثيرا ما يثار سؤال مؤداه : كيف يتوافق سلوك الحيوان وبيئته؟

حاول الباحثوت ومنهم مثلا أوبريماننك (١٩٦٧) وسمث(١٩٦٨) ، الاجابة ، كل منهم بطريقته الخاصة ، لكن

مجمل آرائهم لا تخرج عن أطار جانبين اساسيين هما :

١ - الاستجابات الغريزية المتضمنة في حقيقة تكوين المخلوق وتركيبه.

٢ - قدرة الحيوان على استخدام الخبرة والانتفاع بحيث يقوى على معايشة البيئة . فهو يكيف سلوكه ليحقق مقتضيات حياته ومتطلباتها . ويرجع اجماع الباحثين الى تأكيد كينونة الغريزة ، الى اكثر من سبب ولعل ابرز تلك الأسباب هو ما ينطوي عليه تعريف مكدوجل لها تعريفا غرضيا اذ يقول انها

[استعداد نفسي - جسمي موروث توجه صاحبها الى أن يدرك معها بيئته ادراكا متميزا وان ينتبه الى اشياء محددة انتباها خاصة ، وان يستشعر محتوياتها استشعارا انفعاليا محددا فينزع فيها نزوعا خاصا أو أن يتحسس في الأقل مبلغ سلوكه ونشاطه ازاء مكونات تلك البيئة.]

فمن التعريف الآنف للغريزة عدة خصائص يمكن استشفافها لعل ابرزها :

١ - ان الغريزة لا تعبر عن نفسها وعن طبيعتها خلال فترة وجيزة . فهي تنمو بنمو الفرد . وهي ، بعد تهذب بالترويض وتنمى بالتنشئة. ومن هنا تتجلى أهمية التربية المقصودة في حياة الفرد الاجتماعية .

فلا يمكن الحكم على السلوك بأنه غريـزى ما لم يتكرر. ومع هذا فأن تكراره اما أن يكون راجعا لاحكام الغريزة ، واما ان يكون نتيجة دوافع لا شعورية واما ان يعزى الى العادة .

٢ – لكل غريزة ما يتصل بها عادة من حقائق وما يرتبط بها من اشياء موضوعية متماثلة .

٣ – ان الدراسات المقارنة تكون ذات جدوى في التعرف على طبيعة الغرائز وتعددها عند المخلوقات المختلفة .

٤ – ان الغريزة تمثل وحدة متكاملة حسب مفهوم قانون مندل ، فهي ذات خصائص بيولوجية موروثه.

٥ – الغريزة تعتبر عامل من عوامل التكامل ، فهي قابلة للانتقال ، وهذا العنصر يقترن بما ذكر في (٤).

٦ – والغريزة في الواقع مظهر ثابت من مظاهر التركيب البيولوجي في حياة الانسان والحيو ن .

٧ – والغريزة من الناحية الفسلجية تمثل نشاطا حيويا يرتبط بنظام الجهاز العصبي.

٨ – ان ما يصدر عن الحيوان أو الانسان من نشاط يتميز بأنه غريزى يسمح للباحث بالتنبؤ وبالتكهن عما يمكن ان يكون عليه سلوك ذلك الحيوان أو سلوك الأنسان.

وهذا يتيح مجالا للقول بأن الدوافع أو الغرائز تتسم بملامح اهمها :

١ - ان الغريزة في طبيعتها ترمي الى هدف في حياة الكائنات .
٢ - يمكن استشفافها من الموقف الذي تكشف عن نفسها فيه .
٣ - المنبه الذي يستثيرها ضمن نلك الموقف المحدد.
٤ - ان خصائص الغريزة لتعبر عن ضروب السلوك المتوافقة في البيئة التي تؤثر في الغرائز .لكن طبيعة الغريزة بوجه عام تتميز بسمات تنفرد بها ، منها :

(أ) تلقائية في الحركة.
(ب) استمرارية في النشاط.
(ج) تنوع في الاتجاه الذي يتسنمه نشاطها .
(د) استنفاد الحركة بمجرد تحقيق اغراض السلوك.
(هـ) تأهب لاستكمال النشاط خدمة لأغراض حياة المخلوق انسانا كان ام حيوانا .
(و) تحسن وتطور في طبيعة السلوك وبخاصة عندما يتكرر .
(ز) ان نشاط الانسان والحيوان انما هو نشاط غرضي وهو نشاط صادر عن الانسان خاصة بوصفه وحدة متكاملة كلية .

بيد ان سلوك الانسان ينطوي علي التبصر وعلي التعرف وعلي النزوع القائم على الذكاء والتفكير والتخطيط المسبق . واذا كانت للغرائز كل هذه الأهمية ، فهي جديرة اذن بان ترسى قواعدها على اصول من العلم التطبيقي . وهذا هو في الواقع ما اكسبها اهتمام الباحثين ، فتناولوها من مختلف ارجائها . ومع اتفاق معظم

الباحثين علي صدق كينونتها ، فأن تساؤلهم بشأنها ينطوي على: (١) الجوانب النظرية المتصلة بها ، و(٢) طبيعتها،(٣) عددها ،(٤) وراثتها ،(٥) سبل تصنيفها ،(٦) وما اذا كانت تعرفية - وجدانية - نزوعية ،(٧) وما اذا كانت غائية - حيوية أو انها ميكانيكية ، (٨) مكانها وموقفها من الجهاز العصبي ، (٩) علاقة الأنفعالات بالغرائز ،(١٠) المعايير التي يجب تبنيها في حالة تحديد طبيعة الغرائز وهل هذه المعايير هي :

(أ) بيولوجية ،

(ب)سيكولوجية ،

(ج) احصائية،

(د) سلوكية ظاهرية ،

(هـ) تتصل بالنشاط عامة ،

(و) ترتبط بأتجاه الفاعليات التي ينجزها الفرد،

(ز) أو انها تقترن بالأهداف المتوخات أم ان المسألة تشتمل على العناصر الآنفة كافة ؟

واضح مما مر بأن الموضوع ليس موضوع اختلاف على وجود ما يتصل بتكوين الفرد ودوافعه ، وانما المسألة مرتهنة بكيفية التحديد والاتفاق على مقاييس هذا التحديد . ومهما يكن من أمر ، فأنه ما من احد ينكر في الوقت الحاضر ما للغرائز من أهمية بوصفها دوافع محركة للسلوك وموجهة بالفعل عند الأنسان وانها ظواهر نفسسية فسلجية بيولوجية الأساس والنشأة والتكوين .

وان علم النفس الغرضي قد ارسى قواعده على اصول مستمدة من مختلف ضروب المعرفة الانسانية حتي اصبح [اثره وتأثيره على الأتجاهات النفسية الحديثة اعظم مما كان متوقعا له عند اول نشأته] كما يذكر ودورث.

٤- المصادر الخاصة بالفصل الثالث عشر .

1. Emlyn Williams, Beyond Belief, p. 51.
2. The Science and Philosophy of the Organism, op. cit. p. 134.
3. History of Psychology in Autobiography, vol 1. op. cit. p. 204.
4. F.V. Smith, Explanation of Human Behaviour, op. cit. chapters, VI - X, Part 3, Chapters XI - XIV.
5. S.A. Barnet, Instinct and Intelligence, London, (1967) p. 156.
6. "Is the Doctrine of Instinct Dead?" Symposium, B.T. Psych. vols. XI, XII. X III, (1941 - 1943)
7. "Is Instinct an Entity?" J. Abnor and Soc. Psych. Vol XXI, pp 38 - 51.
8. The Senses of Animals and Men, p. 176.
9. K. Lorenz, on Aggression (1968), pp. 211, 223, 184 - 6.
10. K. Lewin, A Dynamic Theory of Personality, New York, (1935)
11. E.C. Wilm, The Theories of Instinct (1925), op. cit.
12. P.L. Broadhurst, The Science of animal Behaviour, (1963) pp. 14, 15, 71, 79, 90, and ch. IV.
13. Hearnshaw, A Short History of British Psychology (1964)
14. Cofer and Appley, Motivation: Theory and

Research (1965)
15. A.T. Hadfield, Introduction to Psychotherapy, (1967)
16. C. Spearman, Abilities of Man, (1932)
17. Mc Dougall the Energies of Man (1932).
18. Flugel, A Hundred Years Of Psychology, (1955), p. 222.
19. (1) (1960), Animal Behaviour, vol 8, pp. 197 200
(11) (1962), Symp. Zool, Society of London, Vol 8 pp. 171 - 191.
20. (1) (1961), Animal Behaviour, vol. 9, pp. 159 - 166.
(11) 1963 a), Animal Behaviour, vol 11, pp. 57 - 61.
(111) (1963 b), Animal Behaviour, vol 11. pp. 300 - 305.
(IV) (1963 c), Animal Behaviour, vol. 11. pp. 397 - 399
(v) (1964 a), Animal Behaviour vol. 12. pp. 60 - 62.
(Vi) (1964b), Animal Behaviour vol. 12. pp. 252 258
(vii) (1964 c), Animal Behaviour, vol. 12, 259
(VIII) (1966 a), Animal Behaviour, vol. 14, pp. 120
IX) (1966 b), Animal Behaviour, vol. 1 pp. 391 - 295.

21. Hebb, Presidential Address, Amer, Psychologists, vol. 15, (1960)pp. pp. 735 - 745.
22. ,The Organisation of Behaviour, last ed. (1966) p. 294.
23. R.S. Lazarus, Fundamental Concepts in clinical Psychology, (1952) p. 184.
24. H. Hartman, "Psychoanalysis and Scientific Method" in Psychoanalysis, ed. by S. Hook, (1960) p. 64.
25. L.S. Hubie, "Psychoanalysis as a Scientific Theory" in Psychoanalysis, ed. by S. Hook, (1960) p. 12.
26. W.M.O. Neil, The Beginnings of Modern Psychology (1968), p. 92.
27. W. Mc Dougall, Body and Mind: A History and Defence of Animism (1911) pp. 54, 53.
28. Arthur Eddington, The Philosophy of Physical Science, (1939) p. 148.
29. E.D. Adrian, "Consciousness" Symposium, in Brain and conscious experience, ed. by Sir John C. Eccks (1966) p. 239.
30. ,Brain and its Functions (1966) p.
31. G. Murphy "Body Mind as a Factor guiding survival Research" T. Amer. Social Psychology, (1965) pp. 148 - 155.
32. C. Sherrington, An Integrative Action of the Nervous System, (1906) p.
33. Smith and P.A. Hoyes, "Properties of the Vis-

ual Stimuli for the approach Response in the Domestic chick'' Animal Behaviour, No. 219, vol. 9, C. 1961, pp. 154 - 166.
34. Ibid, pp. 164 - 5.
35. Ibid, p. 165.
36. Ibid, p. 165.
37. Leon Festinger, ''The Motivation effect of Cognitive Dissonance'' in readings in the Cognitive Processes, ed. by C.C. Anderson and others. (1964), pp. 509 ff.

الفصل الرابع عشر

مراجعة وخلاصة

يبدو الآن واضحا ان النظرية الهورمية التي أضحى تأثيرها على علم النفس الحديث بالغا ، مدينة فيما حققته من نجاح وثبات الى عاملين رئيسيين هما :

(أ)منهجية من التفكير الفلسفي متأثلة في ماضي يرفده ركن من الأعراف المديدة.

(ب) ما بذله مكدوجل من جهود مضنية مثمرة رائدة وما اكده من حقائق علمية . فمما لا شك فيه انه تسنى له ان يبرز لنا في صورة محددة نظاما نفسيا يتسم بالعمق والشمول ، فكانت المحصلة المؤطرة اتجاها نفسيا هورميا ناجحا وثابتا تعزز من مكانته الدراسات ببحوثها والأيام بكرها.

فالاتجاه الفلسفي يتمثل في حلقة فكرية محبوكة حلقاتها لم تنفصم عراها على مر الزمن . فكل فيلسوف ابتداء بهوبز ، ومرورا بجون لوك ، وبيركلي، وهيوم، وهارتلي، وجيمس مل ، [الاب] وجون ستيوارت مل ، الأبن ، وانتهاء ببين ، كل من هؤلاء وأضربهم تحرى ما كان يسعى اليه من سبقهم من السلف الباحث من تطلعات. فهؤلاء الفلاسفة وسواهم آخرون قد اهتموا ببحث مشكلات تلتصق بشدة بحياة الأنسان على وجه هذا الكوكب ، ونريد بذلك انهم توفروا على دراسة الظواهر العقلية . فقد اخذوا انفسهم بدراسة ما اسموه تفاوتا بـ[الارتباطية] Associationism أو [الخبرية] أو [التجريبية] Empiricism ، أو [الأرتباطية التجريبية] Empirical Associationism .
على ان هذا لم يكن متضمنا في وجهات نظرهم بأن الفلسفة ينبغي ان تكون مجزأة في اقسام تفصل بينها حوافز مفتعلة وكأنها دهاليز ومتاهات الداخل فيها ينتهي الى بلبلة وحيرة . بل بالنسبة

اليهم ، ومما ذهبوا اليه انه ان آنت ولجت وصيد الفلسفة عليك ان تنشر شباك اهتمامك في رحاب فسيحة لتتناول موضوعات متباينة لكنها تكون في النهاية متكاملة لأن العقل وحدة متكاملة . وهم بعملهم هذا قد جعلوا الفلسفة تهتم بشئون الحياة اليوميـة فحولوها عما كانت تذهب اليه من اهتمامات بمسائل ميتافزيقية .

فالعقل ، منظورا اليه من وجهة النظر الفلسفية ، كان يعتبر اذن منظومة من الاحاسيس والمشاعر والاستعدادات تعمل تبعا لقوانين علم النفس . والأفتراض الممهد لهذا كله بطبيعة الحال كان يرتكز الى أسس من الأرتباطية والخبرية : وكلا الاتجاهين هذين كانا ينضحان بالحياة خلال القرن السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر ، ويعزى الأمر في هذا الشأن الى حماس المفكرين الكبار الآنف نكرهم : وحيثما وردت الأشارة الى هؤلاء التجريبيين ، فأنهم يوصفون عادة بالأرتباطيين ، ويرجع السبب في نلك الى ان المناقشات بأكملها بنيت بصورة اساسية على مبدأ ترابط الأفكار .

وما من شك في ان التعارض في وجهات النظر بين الارتباطيين كان واضحا : وان سيكولوجية التفكير كانت تعد من ضمن حوزة الفيلسوف . وان المفكرين المبحوثين هنا قد انطلقوا في بحث مشكلة الحياة العقلية من منطلقات متباينة ، ولعل هذا اتاح لهم ابتناء نظام متماسك من علم النفس الفلسفي الذي اضاء فيما بعد رحاب التنظير السيكولوجي . والى جانب هذا فهم قد افلحـوا في مناقشاتهم في التوكيد على الفروق الأساسية بين الحواس بوصفها ادوات لأدراك ما هو حاصل في البيئة وبين الخبرة أو الأحساسات كاللون والحرارة وسواها : والتي تشخصها اعضاء الحس

المتخصصة ، وكذلك ضرورة التميز بين الخبرة وبين الأشياء كالمنضدة ، مثلا، والقلم . فالاشياء الموضوعية هذه هي مصادر الأحساسات .

فالأتجاه في التفكير ، اساسا ، لم يمكث رنقا ولم يكن مجرد قطاع وكأنه مقصور على تفكير الفيلسوف . فمن خلال الجهود الضخمة المتواصلة الممثلة فيما بذله كل من هربرت سبنسر ، وتشارلس دارون ، وفرانسس جولتن ، وجورج جي. رومينز ، ولويد مورجان ، وغيرهم آخرون من خلال جهود هؤلاء جميعا ، تحول التأكيد ، بدون ان يجنح عن المسار المعتمد ، الى بحث طبيعة الأنسان على أسس بيولوجية مع أعتماد المنهج العلمي الحديث . فالماضي الفلسفي السحيق قد اتاح حافزا الى اشراق فجر عهد علمي جديد في الدراسات البيولوجية والنفسية المختبرية .

ان تأثير دارون كان ولا شك تأثيرا متميزا . فهو كان قد كرس كتابه أصل الأنواع [١٨٥٩] بشكل محدد الى مسائل بيولوجية خالصة [وكان قد ارسى قواعده على اسس من رحلته الشهيرة التي استغرقته قرابة خمسة اعوام [١٨٣١ - ١٨٣٦]. وان اواليته المقترحة تنطوى على الأنتخاب الطبيعي ، والأختلاف الطبيعي والوراثة ، وهذا اتجاه وجه الأهتمام لأول مرة الى ضرورة العناية بالمعطيات البيولوجية المحددة ، وهو اتجاه لم يكن من قبل يستأثر بما هو جدير به من اهتمام . فالبنى والتراكيب والعمليات الخاصة التي تتخلل حياة الكائن العضوي كانت مثلا تفسر من قبل بأنها جزء لا يتجزأ من كفاحه من اجل البقاء . لكن دارون وبما فطر عليه من استقراء ما في مجاله ، اكد كثيرا على النتائج السلوكية التي

تتاح مشاهدتها فيمكن اعتبارها رصيدا ومصدرا يقترن به تكوين الحيوان وتركيبه . فهو اكد بوجه خاص على السلوك الغريزى وأعتبره عاملا رئيسيا في مجمل عملية البقاء . فالغرائز بوصفها وحدات فطرية في الأنماط السلوكية ، عدها دارون شواهد لا تدحض تنم على استمرارية التطور . وما توصل اليه من اكتشافات بيولوجية أصبحت كنلك ذات تأثير مباشر ومحدد على مختلف مجالات علم النفس الحديث ، وبخاصة علم النفس المقارن ، حيث تم ربط الجوانب السببية لسلوك الأنسان لأول مرة بماضيه البيولوجي .

فدارون عن طريق تقديمه وسائل بيولوجية وفسيولوجية لمواجهة ما تحفل به بيئة الأنسان ، فأن تفسيراته المحددة قد افضت في النهاية الى تبريرات عضدت علم النفس الوظيفي ، وعلم النفس العلمي أو الأجرائي ، كما انتهت الى نشأة ضرب من ضروب التفكير الطوليولوجي أو الغائي ؛ كما أضحت طريقته تلك ايذانا بالنظرية الهورمية في علم النفس . فالمجالات الأربعة المذكورة هنا — وهي الجانب الوظيفي ، والعملي والغائي ، والهورمي — كانت مستحدثات نشأت وانتشرت في انكلترا وأثرت تأثيرا كبيرا في التفكير النفسي في الخارج . على أن ابداع السيكولوجي هذا كان من مبادرات مفكرين من امثال سلي ، ووارد، وستوت، وس. الكسندر ، وبيرسي نن ، وبصورة أساسية مكدوجل ، الذى يعتبر ف رأي معظم الباحثين المؤسس الحقيقي للنظرية الهورمية . اذ افلح هؤلاء الباحثون ، وبخاصة مكدوجل ، افلحوا بجهودهم المتواصلة في تنقية علم النفس من كثير مما شابه من معميات ورطانات علقت به من قبل : وأن الأعتبار الاول ليعزى الى مكدوجل بالذات في

ارساء قواعد علم النفس التحفيزي الحديث على اسس من المفاهيم التفسيرية التوضيحية الثابتة .

ان مبدأ الهورمية الذي جاء به مكدوجل بحلته الحديثة والذي أثر تأثيرا بالغا في مختلف آفاق علم النفس ، انما هو مبدأ تأثلت جذوره بعيدا في خلفية علمية زاخرة . وأن النظرية نفسها يمكن تأثرها بعيدا عبر التاريخ العلمي فتبلغ مداها في دراسات افلاطون وارسطو اكثر . بيد انها اكتسبت ما هي عليه اليوم من قوة علمية ظاهرة ملامحها في مجالات علم النفس المتعددة ، بعد أن اكتست بحلتها الجديدة على يدي مكدوجل . وما من شك في أن اي مجال محدد من مجالات البحث انما يراد به الأستعانه للتوصل الى الأجابة عن اسئلة معينة . ومع هذا كله فأنه بعد تحري ما هناك من عناصر تطرق اليها البحث ، يستبين الباحث ان الميدان المطروق اعقد مما كان متوقعا من قبل . وهذا ما حصل بالفعل لمكدوجل اذ جوبه بعدد من الصعوبات التي نشأت من جملة مصادر أبرزها (١) طبيعة الموضوع نفسه ؛ اذ ان ما تصدى له من موضوع كان جديدا تماما وكان عليه ان يعالجه بتوكيد علمي وان ينافح عنه بتثميد هورمي .(٢) والصعوبات الثانية تتمثل فيما تعرضت له التفسيرات الهورمية من مناهضات أول الأمر . اذ لم تكن لتستكمل صورة أو تحل مسألة أو مشكلة في ضوء ما كان متوفرا من حقائق علمية ، حتى تستثار اعتراضات أخرى . ورغم هذا كله ، فأننا نجد مكدوجل ، شأنه في هذا شأن اي باحث علمي منقطع الى شئون العلم ، قد ادرك ان جهوده ينبغي ان تبقى موصوله لتتيح اجابات منثالة على اسئلة منهالة . يضاف الى هذا ، فأن الطبيعة المتفاوتة لهذا الموضوع العلمي ذاته يبدو انها قد

اثارت مزيدا من الأسئلة : وهذا ما جعل المبحث بجملته يصبح موسعا فتجاوز آفاقا لعلها لم تكن محددة من قبل . على ان الموضوع على ما هو عليه من مجالات واسعة تجدر دراستها ، ومسائل شاملة تجب معالجتها، وجوانب معقدة تقتضي مواجهتها ، هذه الأمور كافة وسواها قد الزمت مكدوجل ان يتناول بعض النقاط بصورة مخففة ، وان يمس بعضها بشكل مألوف ، لكنه توافر على معظم موضوعاته تلك بعمق وشمول مؤكدا ما كان بالغ الأهمية منها . وأميز ما اتسمت به بحوثه الأساسية هي الشمول والعمق . فهو وان كان عليه ان يبحث في اتجاهات شتى ، فقد تسنى له ان ينسق وان يوفق بين كثير مما تطرق اليه من موضوعات توحدت في موضوع رئيسي واحد وذلك هو النظرية الهورمية في صيغتها الحاضرة .

تقييما لمبدأ الهورمية في ضوء اداب علم النفس الحديث ، فيمكن القول على التو بأن هذا المبدأ على النحو الذي صاغه وبحثه مكدوجل ، يعتبر من غير شك ظاهرة لها اهميتها الفكرية والعملية في تاريخ علم النفس الحديث بأكمله . وكثيرا ما يجد الباحث في علم النفس ان اسمي دارون ومكدوجل يذكران مقترنين : فأولهما يذكر لأنجازاته التطورية المؤثرة ، وثانيهما يتردد ذكره لما استحدثه من آراء في علم النفس متميزة بوضوح . فكلا الباحثين ، كل منهما في مجال تخصصه وبطريقة تفكيره ، استطاعا حقا أن ينقلا الى الامام الفكر العلمي الأنساني نقلة مشهودة . وأن ما اسهم به مكدوجل في علم النفس الحديث أصبح واضح الأهمية . فعندما طرحت الأفكار الهورمية اول مرة اثارت عاصفة من الأعتراضات ، لكن المبادئ الأساسية قد تحققت صحتها وثبتت دقتها فأصبحت

مقبولة بل أثرت على علم النفس تأثيرا بالغا . وانه لمن خلال بصيرة مكدوجل ودأبه أضحى اليوم واضحا بأنه يجب التنقيب عن طبيعة حفز الفرد في اطار مسلك الفرد نفسه .

وانه ضمن سياق الهورمية ذاتها أجتهد مكدوجل أن يتصدى لعدد من البحوث الصعبة كالغريزة مثلا والعمليات العقلية ، والعلاقات العقلية – الجسمية ،والطبيعة المونادية للشخصية ككل . ومن بين ما بحثه من موضوعات شتى لم يواجه موضوعا اشد صعوبة من مبدأ الغرائز.

وكان اعتقاد مكدوجل الراسخ يدعو الى أن الغرائز يجب فهمها بوصفها وحدات فطرية موروثة وراثة بيولوجية وفق مبدأ مندل : وان لكل غريزة ما يتخللها وتغلغل فيها من متعلقات نيورولوجية . وان الأفكار المقدمة الخاصة بالغرائز قد تعرضت أحيانا الى نقد شديد؛ وأن بعض النقدات المثارة بلغت مبلغ انكار وجود الغرائز اساسا . وعلى الرغم من هذا فأن دراسات علم القوانين الحيوية والدراسات الخاصة بالجملة العصبية ، والفسلجة ، والملاحظات المدرية ، مضافا الى هذا كله الأساليب الفنية الحديثة – هذه كلها تعضد موقف مكدوجل ، وهو الموقف القائل ان مبدأ الغرائز هو علمي صحيح وانه مفهوم جوهري يتم على اساسه تفسير الظواهر السلوكية الخاصة بالانسان والحيوان على حد سواء . وان الشواهد المتجمعة تجعل كفة الرجحان في صالح آراء مكدوجل الراسخة وهي الاراء القائلة(١) انه من صميم تكوين الفرد تكوينا وراثيا بيولوجيا في ان يكد بجد صوب اهداف أو غايات محددة :(٢) وان الهدف انما يتم بلوغه من خلال عملية تعرفية –

نزوعية – وجدانية . وان هذا كله ، على أية حال ، يستتلي حقائق ومضامين ابرزها :

(أ) ان الغرائز تنطوي على أنماط سلوكية معقدة .

(ب) من الثابت هو انه فى اي نشاط غريزي ، تكون الحركات الجسمية والبيولوجية بالغة الانتظام والأنسجام .

(ج) ان الأعمال والنشاطات الغريزية انما تستثار بفعل مواقف معقدة يستجيب لها الكائن الحي أو المخلوق بحيث انه ينتبه انتباها محددا الى اشياء معينة في بيئته ، وانه مجبول على أن يتابع هذه الأشياء بمثابرة وبذكاء ؛ ولذا فأن مفهوم الغرائز يمكن ان يتيح اليوم موضوعا محفزا لدراسات مجدية كثيرة فتلقي بذلك اضواء ساطعة على طبيعة الفرد الداخلية .

على ان ما للنظرية الهورمية في الوقت الحاضر من تكوين ومن قابلية في مجال التطبيق يجعلها تتمتع بدعم كبير ونجد لها تعبيرا تاما في مختلف مجالات علم النفس المتعددة ، ولا سيما في بحوث وكتابات اعلام بارزين أهمهم جي.دريفر[الأب]، وجوردن البورت، ور.ب.كاتيل، وجودفري طومسن، وبيرسي نن ، وتشارلس سبيرمن، وأي.سي.طولمن، وسريل بيرت ، ون.تنبرجن، وكونراد لورنز، وسواهم كثيرين ممن تعكس بحوثهم بوضوح تأثير مكدوجل على التحول في علم النفس من مجرد مماحكات ميكانيكية الى تطبيقات هورمية تحفيزية ارادية.

فأسلوب مكدوجل في البحث والتنقيب ، اذن منظورا اليه موضوعيا وتأمليا ، انما هو أسلوب ينطوي على الشيء الكثير من الخصائص المحددة الحاسمة الصادرة عن باحث بارز تسنم دور

الرائد في ادب علم النفس التطوري فكتب في طبيعة الحيوان والانسان بوصفها افتراضات وبحث في كثير من الملامح التي تحسسها بأنها جديرة بالبحث والأبراز. ولعله من حسن حظه ان خلفيته البيولوجية كانت من العمق والشمول بحيث جعلت هذه استغراقاته وبحوثه مرتبطه بالواقع البيولوجي. ففرضيته الأساسية الخاصة بالأنماط الفطرية للسلوك وما ينسرب في ثناياها من نظام ادراكي موروث قد استأثرت بتدعيم كبير لم يشهده سواها في تاريخ علم النفس : فهو حتى وان اقتبس كثيرا من كتابات شاند وستاوت ، وسواهما آخرين ، فما هذا الا لأنه استحسن ضرورة الحفاظ على الأستمرارية بين تفرد الأنسان بطبيعته البيولوجية وبين صياغة تأثير التنشئة الأجتماعية والتدرج على اكتساب المسئولية الأخلاقية في المجتمع . فكتابه : مقدمة في علم النفس الأجتماعي ، المطبوع عام [١٩٠٨] والذي نقح واعيد طبعه حوالي ثلاثين مرة خلال حياته وتكررت طبعاته دونما زيادة فيما بعد ، ليعد بهذا المعنى مقدمة حقيقية استهل بها علم النفس الاجتماعي الحديث عهدا جديدا له ، بل هو كما اكد البورت ، قد مهد السبيل الى هذا العلم ومكنه من مكان ثابت واساس راسخ .

وان كثيرا من الباحثين ، ممن انشأوا أنظمة نفسية خاصة قد استخدموا في الواقع فرضياته واختطوا لأنفسهم نفس اساليبه الأساسية – ومنهم مثلا البورت وليفين وطولمن – وفي هذا دلالة أخرى على مواءمة منحاه النفسي وتأثيره على الأتجاهات السيكولوجية الحديثة .

وقلما يجدي القول كثيرا بأن تطور علم النفس ما كان ليحقق ما

حققت في اتجاهاته الحديثة عقب الدراسات النفسية في مختبر فونديت لولا جهود مكدوجل الرائدة . فثمة افتراضات جمة متضمنة فيما تم من اتجاهات وما أجري من مناقلات . وان الحقيقة العلمية هي أن اطروحة مكدوجل الأساسية قد اكتسبت موقفا لها منذ عام ١٩٠٨ وأستمرت في تطور ونماء حتى وفاته . وأن اطروحته تلك قد ضمنها تضاعيف كتابه المذكور آنفا ، ولم يكتسب اي كتاب أخر في علم النفس ما اكتسبه هذا الكتاب وتشهد على ذلك كثرة تعدد طبعاته المنقحة في حياته وتكرارها دوما بعد مماته . ولقد عزز كتابه المذكور بكتاب آخر هو مجمل علم النفس [١٩٢٣]، واردفهما بكتاب ثالث هو طاقات الأنسان [١٩٣٣]، ضمنهما اراءه المنشورة في كتابه الاول المشار اليه سلفا . وللأطلاع على وفرة ما كتبه يمكن الرجوع الى الملحق رقم (٢) ج٢ ، لكن الاشارة هنا وردت الى بعض كتبه لأنطوائها تأكيدا على نظريته الأساسية ، في حين ضمن مؤلفاته الأخرى وبحوثه أراء علمية نفسية شتى تستمد مصدرها من تطويره وتوكيده الهورمية . واذا كانت ثمة صعوبة في مناقشة تأثير مكدوجل السببي على مجرى علم النفس الحديث ، فأن العلاقة العضوية بين ما أنجزه وبين ما جد من هذا العلم انما هي علاقة ثابته ومقطوع بصحتها .

94 - 06 - 30 - 05024